

الغريبان³

الجزء الثالث

عبد الحميد وشفون

الغريبان

الجزء الثالث

عبد الحميد وشفون

رواية

الكتاب: الغريان.. الجزء الثالث
تأليف: عبد الحميد وشفون
النوعية: رواية فنتازيا
صدر عن كتوباتي: 2024م
التنسيق والتصميم: مكتبة كتوباتي
النشر الإلكتروني: مكتبة كتوباتي

support@kotobati.com

www.kotobati.com

كل الأفكار المذكورة في الكتاب لا تعبر عن مكتبة كتوباتي.
وكل الحقوق محفوظة لدى المؤلف.

الفهرس

5	الإهداء:
6	المقبرة
14	الشيخ
27	نار
38	صراع
52	تفاوض
84	ظلام
96	نزول
106	القرين
124	نار
139	أجنحة
158	خبث
168	الدمية
174	الحاكم
183	صراع
195	العجوز - المتحول
201	تحول
210	استرداد
216	بجر
228	مطر

244	صخر
252	منطقة محرمة
256	_ قبل ستة أشهر _
266	رمل
269	دمار
290	الكهف
296	صمت مطبق
318	فوق الغيوم
328	تحول آخر
337	بركان
341	ثلج

الإهداء:

إلى أخي الصغير أنس (رحمه الله)
لأنك تستحق أن تبقى في الذاكرة... فأنت لم تزعج أحدا طوال فترة مكوثك
في هذا العالم.

المقبرة

بعد مسيرة ليل كامل ظهرت غابات الأرض الوسطى وهي تفتersh قاعدة
 الجبل مثل بساط أخضر متعرج، لكن مباشرة وعند وصولهم إلى مفترق طرق
 يقع في منطقة تتوسط أرض الغابة والأرض الوسطى فإنهم بدؤوا يلحظون
 آثار أقدام خيول كثيرة أتت من الطريق المؤدي نحو أرض الرماد مخلقة ورائها
 أشجارا مكسورة وأوراقا متساقطة على الأرض بحيث لا تزال أطرافها رطبة
 ومبللة، وكان القائد ليث في هذه اللحظة قد ترجل عن حصانه ونزل يبحث في
 التراب فحمل في يده عظما سقط من عقد أحدهم وقال ونفسه تثور مع كل
 كلمة:

- "أرض الرماد يا سيدي، نيفين كانت محقة، يبدو أنهم يخططون لشيء ما
 هنا، علينا اللحاق بهم ومنعهم من فعل ما يريدونه، فإنهم قوم لا يعرفون
 طريقة لفعل شيء صالح".

ارتجت الخيول في أماكنها وصهلت صهيل حرب مرتفع ثم انطلقت تعدوا
 كالرماح الجامحة عبر ظلال الصباح المزينة بذهب الشمس اللامع، لكن
 فجأة أثناء تقدمهم، وقع في صدر الأمير جابر شعور قاسم، فأحس بألم يخطف

قلبه، وتلبد نظره للحظة، وأتته صورة وسيط أرضه يستغيثه ويطلب معونته، لكن بعدها اختفى كل ذلك، وأدرك الأمير أن مخاوفه تتحقق، ثمة من يعبث مع الوسطاء في هذه اللحظة، وعليهم الإسراع للإيقافه، ركل حصانه ليل على بطنه فزاد من سرعته وراح مثل النور الذي لا يسبقه شيء أبداً، واختفى في الظلال تاركاً أصحابه خلفه.

وصل الأمير إلى دائرة السحرة، ونزل يمشي على قدميه حتى وقف أمامها مباشرة، كان وسيط أرض الماء يرقد على الأرض ميتاً مثلما تركوه آخر مرة، فيما كان الآخرون يطوفون فوقه، لكن اثنان بجانبه كانت ملابسهما ممزقة وتُظهر أنهما بالفعل قد تمت مهاجمتهما، أحدهما كان وسيط أرض الرماد والآخر وسيط أرض الرمال، وحينما وصل ليث والفتاتان بعد ذلك ووقفوا ينظرون جميعاً بعيون ذاهلة، فإنّ رشا نطقت تسأل والحيرة تملأ فمها: - "تُرى ما الذي وقع هنا؟".

فيما قالت خولة:

- "ألا يفترض أن أتباع الأمير أرون هم من قاموا بقتل وسيط أرض الماء، فلم وسيط أرضهم قد تعرض للهجوم أيضاً؟".

وقال الأمير جابر:

- "لا أحد يعرف، فليس من السهل على بضعة جنود عاديين حتى لو كان مدربين جيدا أن يقدروا على قتله" قال ذلك وطلب منها القوس حتى يريهم ما عناه بقوله، وأخذ القوس و صوب سهمه نحو ساحر أرض الرماد وأطلق نحوه، لكن السهم اختفى فجأة لحظة اقترابه من الساحر، ثم ظهر مرة أخرى يعكس طريقه متوجها صوب وجه الأمير جابر، وكأن مرآة سحرية قامت بعكسه، لكنه انغرس في الأرض بعدما تجنبه الأمير بحركة سريعة.

قال القائد ليث بعد ذلك.

- "فإذن ما تفسير ما حدث؟".

فرد الأمير جابر:

- "قد شعرت قبل قليل بأنّ شخصا ما كان هنا، لكنّ ذلك الشعور قد اختفى الآن تماما...".

تلقف القائد ليث جواب سيده بفكر هائم، ولما كانت عيناه تغوصان في جسد الساحر الميت منذ ما يقارب الدقيقة فإنه لاحظ عليه شيئا، ولذلك نزل يبحث في أسماله، ولم يلبث أن اتسع نظره بدهشة:

- "سيدي".

وتقدم الأمير ليتفقد الأمر أيضا، ثم قام بعدها يتحسس ثلاثة من أصابع

يده:

- "الصدأ، مرة أخرى".

وقام القائد يقول بعده:

- "إنه هو نفسه، ذلك المتجول، هذا يثبت تمتعه بقوة لا يستهان بها".

- "هل استعاد الخنجر؟".

انتظر الجميع من الأمير أن يقول أكثر من ذلك، لكنه كان بالفعل قد فكر

في شيء غريب جعل جسده يتصلب للحظات قبل أن يشب نحو حصانه.

كذلك امتطى الأمير جابر حصانه وسط دهشة الآخرين وانطلق به نحو

ركام الصرح فمر بجانبه دونما التفاتة ثم عبر الجسر الذي يقطع النهر وراح في

عمق الظلال عبر الطريق التي جاؤوا منها.

حاول ليث أن يتوقع المكان الذي سيقصده الأمير هذه المرة، وكان توقعه

صحيحا، فلقد عثروا عليه بعد جري سريع واقفا بجانب حصانه أمام الجدار

الصخري يطالع التوابيت الخشبية المعلقة، ودار القائد بحصانه في ذات

المكان وقال بينا يلقف لجام الحصان ليل بيده:

- "ما الذي تفكر بفعله يا سيدي؟".

- "سأصعد".

- "ماذا؟".

- "سأصعد يا ليث، لا أعرف ما الذي سيحدث، فلقد كان محرم فتح التواييت أبدا بعد أن يتم غلقها".

- "إنها تواييت يا سيدي، بها عظام بالية فما الذي تخشاه منها؟".

- "لا، إن أجساد الأمراء لا تبلى بسرعة، على الأقل ليس قبل مرور بضعة مئات من السنين على دفنها، وأمير أرض الرياح السابق لم يمضي على دفنه مثل هذه المدة".

- "أتود فتح قبر الأمير إيرام إذن؟".

قال القائد، وكان سؤاله هذا إنما ينوب عن دهشة شا وخولة اللتان كان في نظرهما قلق وتصلب يشابهان ذلك الذي كان في عيني القائد وهو يطرح سؤاله، لكن حينما التفت إليه الأمير بعد ذلك فإنه لم يبد عليه أي تأثر، لقد كان هادئا بشكل بارع، وعاد يطالع التابوت مرة أخرى:

- "لا أعلم أي لعنة وضعها الساحر نجيد على هذه التواييت بغية إبعاد المتطفلين عنها، عليكم الابتعاد إلى الخلف قليلا".

ولم يتحرك أحد من مكانه.

- "لا تجعلوني أكرر كلامي هيا".

وترجل الثلاثة عن أحصنتهم وتراجعوا بضع خطوات معها، كان قلب خولة يخفق بشدة، وجمعت يديها على صدرها، كانت تراه يصعد الجرف بيديه وقدميه دونما عناء يذكر، وجالت كلماته الأخيرة في رأسها، أي لعنة يمكن أن يكون الساحر الأكبر قد تركها هناك يا ترى؟ دعت خولة بجد ألا يكون الأمر كذلك، حتى أنها أغمضت عينها في اللحظة الحاسمة، وحينما فتحتهما بعد ذلك، كان الأمير جابر بالفعل قد أخذ يطل بداخل التابوت بسهولة، ولذلك هز القائد كتفيه وقال هازئا:

- "ما الذي كان ليحدث غير هذا؟ طبعاً لا شيء".

فقالت رشا من خلفه.

- "ليتته كان أمرك بالصعود بداله إذن، كنا رأينا نظرتك حينما تحدث عن إمكانية وجود لعنة".

وتلعثم القائد قليلاً وقال يرد عليها:

- "تعلمين أن الأمير ما كان ليصاحب شخصاً جباناً، ويتخذ منه قائداً لجنده".

- "أجل، ذلك حينما لا يكون لديه خيار آخر".

الآن نزل الأمير جابر على الأرض بقدميه محدثا صوت أسكت شجارهما، فابتلع القائد غيظه من حديث رشا واستعد لأوامر سيده، وجاء الأمير نحوهم وهو ينفض غبار التابوت عن ثوبه:

- "جسد الأمير إيرام لا يزال في مكانه".

- "إذن؟".

- "إذن هذا يعني أن الشبح المتجول ليس بالأمير إيرام كما كنت أحسب".

- "لكن ما الذي جعلك تفكر في ذلك؟".

قال القائد، ورد الأمير بقوله:

- "ورقة تحريك الموتى لا تعمل إلا إذا كان الجسد من سلاسة الأمراء،

ولأنها كانت بحوزة الأمير شهاب فقد فكرت في أنه من الممكن أن يكون

قد استعملها على والده، فهو ليس شخصا قد يتردد في فعل شيء كهذا،

والآن".

- "والآن يا سيدي؟".

ونظر الأمير نحو السماء حيث طار من عمق الغابة جمع من الطيور بما

يشبه أن شيئا ما أفرعها:

- "الآن يمكنني أن أخمن حقيقة ذلك الشبح بسهولة، إنه شقيق الأمير نفسه،... أركان، عم مايا".

ونطقت خولة تقول في ذهول:

- "هذا يعني".

- "هذا يعني أنه قام بقتله، أجل...".

وقال القائد بصوت مرتفع:

- "ذلك الشيطان اللعين الوقح، أيقتل أخاه ثم يجعل من جسده دمية لتحقيق مآربه".

- "إنه شهاب يا ليث، ما الذي نتوقعه من شخص مثله؟".

الآن وبشكل مفاجئ، أخذت الخيول تُحرك قوائمها بشكل غريب وتنطح الهواء برؤوسها مضطربة، وفي اللحظة التي التفتوا فيها نحوها، فإن ليل سهل سهيلا أفرعهم، ووقف على قائمته الخلفيتين ثم نزل وصار يحفر الأرض بحوافره، وقال الأمير حينئذ بينا يتجه نحوه مسرعا :

- "ثمة شيء يحدث جهة الغابة الناعمة، علينا التحرك بسرعة".

قال ذلك ووثب على ظهر ليل وانطلق يسبقهم.

الشبح

ظلت الطيور تفرع هاربة، فتتناثر في السماء وكأن الأرض الناعمة راحت تتنزع من ألمها لتلفظ أنفاسا سوداء لأعلى، وصل الأمير والبقية إلى ذات الموضع حيث تركوا خيولا مقتولة قبل رحيلهم نحو أرض الرياح، لم يكن قد بقي من أجساد الخيول غير عظامها، فلقد نهشتها الوحوش ونظفتها الغريان الجائعة، كانت هذه هي البقعة الوحيدة الفارغة في الأرض الناعمة، وقد ظلت لوقت طويل مكانا تلجأ إليه الخيول البرية للبحث عن الدفء والكلأ، لكنه الآن باتت مقبرة تفوح منها روائح نتنة، كان ثمة بجانب بقايا الخيول رجل يرقد ميتا، تغطيه أسمال من جلود الحيوانات وأوبارها، كان صدره على الأرض يتوسد دمه المفروش على التراب وعيناه تحملقان نحو الشجر بفرع، وسُمع صوت أنين يأتي من إحدى الجهات فجأة، وتقدم الأمير بحصانه إلى طرف البقعة، تماما حيث كان الصوت يزداد ألما وحدة، وحينئذ نزل على الأرض بقدميه وأمعن النظر، وإذ برجلان جريحان من أرض الرماد يظهران من بين الشجيرات يعينان بعضهما على السير بمشقة، كانت تغطيهما خدوش ودماء

في كل موضع، وكان أحدهما يكاد لا يفتح عينيه ليرى موضع قدمه، قال الثاني بصوت جاف خائر:

- "ساعدونا، فليساعدنا أحد، إنه يطاردنا... وحش ضارٍ لا يمكن إيقافه".

وصل ليث ورشا وخولة بدورهم، وأخذوا يتطلعون إلى الجريحان بشفقة، فاستتلى الرجل يقول بصوت واهن:

- "أرجوكم، لقد قتل الفيلق بأكمله، وسوف يعود من أجلنا".

نظر الأمير جابر في من حوله، ثم نقل بصره نحو الجذع الذي كان قد قذف ذلك الخنجر الصديء نحووع في المرة السابقة فلم يكن في مكانه، وحينئذ تأكد من أن صاحبه قد استعاده، ثم فجأة راح يلمح بعينيه الثابتان خيالاً يتحرك خلف الظلال وسط الأشجار الكثيفة، وقال بنبرة جادة بينا يخرج نصليه القاطعين بخفة:

- "إبقوا هنا".

قال ذلك ووثب كالفهد نحو الظلال وانطلق يطارد فريسته.

مثلما توقع الأمير تماما، فقد كان الشبح سريعا جدا، أسرع من أي رجل آخر كان قد قابله، غير أن سرعته هو أيضا لم يكن يستهان بها، خاصة

وأنه عزم على ألا يُفعل منه أبداً، ولذلك راحا في مطاردة عنيفة، يتقابلان فيلتقي نصلاهما فيخلق بينهما جمر وشرر، كان اللذين في بقعة الضوء يسمعون أصوات التقاء النصليين من وقت لآخر، فيلتفتون إلى ذلك الموضع، ثم ما يلبث يعم الصمت حتى ينبعث الصوت مرة أخرى من موضع آخر، وكرهوا جميعاً أن يقفوا كذلك بلا حول ولا قوة، لكن خولة ركبت حصانها وانطلقت في غفلة منهم نحو عمق الغابة، صاح فيها القائد بغضب، لكنها كانت لا تسمع غير ما كانت تود سماعه، صوت النصال الحادة، كانت تشد لجام الحصان نحو الصوت كلما تغير اتجاهه، وحينما عثرت عليهما فأنها رأت بوضوح أن الأمير جابر كان يتوقف على على خصمه، فلقد كان في موضع الهجوم دوماً، فيما ظل خصمه يدافع عن نفسه، لكنها وجدت بعد ذلك صعوبة في مجاراتهما، فكانا يستعملان أفرع الأشجار للإنتقال بخفة، وكأنَّ الريح تحملهما كالأوراق السريعة، كان عليها بعد ذلك أن تجد طريقاً يعبره الحصان للحاق بهما، بعد مسافة، أتى صوت الأمير حاداً يأمرها بالتراجع، لكنها أصرت على اللحاق به وصاحت تقول بصوت مرتفع:

- "يمكنني تقديم المساعدة".

وأرخت لجام الحصان ولكزته على بطنه فراح يسرع العدو حتى لما صار المتجول في مرمى بصرها، أخذت قوسها وشدت السهم نحوه، ولما أفلتت، فإن السهم انتهى على ثوبه فجذبه إلى جذع شجرة كان يستعد للوثوب منها، ولم يمهله الأمير الفرصة لتخليص نفسه حتى انقض عليه بضربة قوية من يده قطعت ثوبه وطرحته من أعلى فهوى جسده على شجيرة فكسر كل أغصانها، ونزل الأمير جابر خلفه وجعل يقف أمامه بحذر، وقالت خولة بينا يضيق خطو حصانها:

- "هل تمكنا منه؟".

وصاح الأمير بحدة حتى أفرعها:

- "تراجعي حالا".

وتحرت الشجيرة في هذه اللحظة، وظهر المتجول يقف على قائمته كأن لم يصبه شيء أبداً، وطلع دخان أسود من تحت قلنسوته، فكأنما قد ثار غضبه أكثر، ورفع خنجره المضرج بالدماء في وجهيهما، وفي خطفة سريعة، طار نحو الأمير واشتبك الإثنان مرة أخرى، كان صوت التقاء النصال حادا يوخز الأذن، انطلق الإثنان خارج المعترك وراحا في قتالهما حتى صارا في وسط البقعة المكشوفة تحت ضوء الشمس تماما، وخرجت خولة خلفهما وانظمت

للآخرين فاكتفوا جميعا بالمشاهدة، وكانوا يرونهما يتبادلان الضربات والمواضع، لكن دون أن يكون لهما صوت صارخ، لقد كان يتقاتلان في صمت رهيب حقا، مع احتدام القتال أكثر، بدأت حركات الأمير جابر تخف قليلا، كان قد مضى ربع ساعة كاملة وهما على تلك الحال فنظقت رشا قائلة:

- "ضربات الأمير تتباطأ، لقد بدأ التعب يتسرب إلى جسده".

وقالت خولة:

- "وكان خصمه ليس بشريا".

وسألها القائد فرعا:

- "ما الذي تقصدينه؟".

فقالت:

- "لقد تذكرت الآن شيئا، أخبرتني العجوز المداوية مرة أن السحرة قديما كانوا يستخدمون طرقا تتيح لهم تحريك أجساد بعض الموتى عبر إهدائها إلى الشياطين ليتلبسوها، وبذلك يبدوا أصحابها وكأنهم قد عادوا إلى الحياة مرة أخرى، غير أنهم يصبحون عبيدا لأسيادهم السحرة، فيعملون لصالحهم ويأتمرون بأمرهم، هذا يعني أن الأمير محق فيما قاله، هذا الرجل هو شقيق الأمير شهاب وهو عم الصغيرة مايا، لقد قتله ثم أهدى جسده إلى شيطان

ليسكنه، لذلك هو لا يتأثر بالضربات التي يتلقاها كما أنه لن يشعر بالتعب حتى لو استمر القتال النهار بطوله.”

وقالت رشا في قلق:

- ”هذا سيء حقا، عليه إذن أن يجد طريقة لقتله بأسرع وقت ممكن... أو سيكون علينا أن نتدخل لمساعدته.”

لم تكذ رشا تنهي كلامها حتى رأت الأمير جابر وهو ينشب نصليه الحادين معا في صدر المتجول.

تبيس جسد المتجول واقفا في مكانه، تماما كما تبيس الناظرون إليه من شدة الفرح، وعلى مهل فتح أصابع يده فسقط خنجره عند قدمه، وحينئذ أخرج الأمير نصليه من جسده بهدوء فهوى على ظهره مثل جذع خشبي وتهادى فوق العشب جثة هامدة، وانحنى الأمير ليأخذ الخنجر، وتهللت أسارير خولة وتدافع الدم في وجهها حتى كادت تغلبها دمعتها، وأتى صوت القائد كغمغمة فرح:

- ”من تجراً على التفكير في نهاية أخرى لهذا القتال غير هذه؟ لست أنا.”

وتحدث أحد الرجلين من أرض الرماد اللذان كانا يراقبان القتال على الأرض جنب بعضهما:

- "أمير أرض الغابة رائع، لم أتصوره بهذه القوة، إن كل ما قيل عن مهارته كان صحيحاً".

قال ذلك وفرح عارم يغطي وجهه المضرج، وهنا قام الأمير جابر ليعود أدراجه، وكان قد ابتعد خطوتين قبل أن يقوم جسد المتجول من خلفه ليقف على قدميه مثل شبح ليس في حركاته صوت يُسمع، لكن وبشكل بالغ الغرابة، لم يدم قيامه لأكثر من ثانيتين حتى تهادى في مكانه مرة أخرى، لكن هذه المرة كان محظ ثياب سوداء فارغة، إن ما وقع خلال تلك الثواني المعدودة كان يدعو للعجب، ولقد انعقدت فرائس القائد والذين معه خلال تلك اللحظة التي قام فيها المتجول، ظنا منهم أنه سوف يشرع في طعن الأمير جابر في ظهره حتى قبل أن يتمكنوا من تحذيره، لكن ذلك ما لم يقع، بل إنه وحالما ارتفع عن الأرض بطريقة تشبه أن خيوطا خفية قامت بتحريكه، حتى اختفى جسده عن الوجود تماما، فوقعت ثيابه الفارغة في ذات الموضع، لم يرى الأمير جابر من الأمر شيئا، غير أنه حينما التفت لصراخهم كان الأمر قد انتهى، فلم يرى غير أسمال الشبح البالية ترقد خلفه.

قالت رشا وقد هالها المشهد:

- "لم يمت؟ حتى مع كل تلك الطعنات القاتلة".

وقال الأمير جابر بينما يقلب خنجر الشبح في يده:

- "لأنّه امتلك صفة الشفاء بعدما قتل وسيط أرض الماء، بإمكانه الآن شفاء نفسه حتى من أخطر الضربات القاتلة".

واستتلت رشا:

- "تقول خولة أن أحد الشياطين قد تلبس ذلك الجسد".

- "ومن أخبرها بهذا؟".

قال ذلك دون أن ينظر إليها، فردت خولة تجيبه:

- "أخبرتني السيدة مريم بذلك".

- "حسنا، يمكن أن يكون هذا مجرد تفسير لمقدرة تلك الورقة".

وقال القائد:

- "أراك غير قلقٍ بشأنه، إنه شيطان ازداد قوة، ولا نعرف طريقة لقتله".

- "لكنني لم أرد قتله يا ليث، إنما كنت أختبر قدراته".

أخذت الحيرة من السامعين مأخذها بعدما سمعوا حديث الأمير جابر،

فنطق القائد معقبا بصوت فيه حدة:

- "لكنه الآن سيسرح في الغابات بحرية، سوف يعود لسفك الدماء مرة أخرى، أليس هذا ما أطلقه الأعداء لأجله؟".

- "أجل، ثم أصبحوا يسعون للإيقافه".

- "لكن...".

- "إسمعوني جميعا... لقد تركت المتجول وشأنه، لأنّه يمكنني التعامل معه في وقت لاحق... سوف يتجول ويقتل من يصادفهم في طريقه، وذلك ما سوف يعجل من فتح البوابة الكبيرة، وهذا أمر لا يريدون وقوعه، ولذلك أرسلوا هؤلاء الرجال للإيقافه... إن ظهور البوابة قبل أوانها يعني أيضا أنّها ستُغلق قبل أن ينتهوا من مخططهم، ثم إن مواجهتنا لذلك التحالف المقام بين أرض الرياح وأرض الرماد وأرض النار ستكون أرحم لنا من مواجهة العالم الخارجي، لقد ذهبت إلى هنالك بنفسي، ولست أرى أن أحدا من الأحياء سيبقى في عالمنا هذا إذا ما وقع اتصال بيننا وبينهم".

قال ذلك ونظر في عيني خولة مباشرة فكانما ينتظر منها أن تؤكد لهم كلامه.

لكن القائد ليث نطق يقول في تلك اللحظة:

- "سيدي... إعدرنا، إنك محق في هذا، لا أعرف كيف غابت عنا الفكرة، فلقد نسينا خطر العالم الخارجي تماما".

- "نحن لا نمثل للعالم الخارجي خطرا يا ليث، إننا سنكون كفراشة صغيرة في مواجهة نسر جارح إذا حدث وخرج ذلك المدعو رماح عبر البوابة بجيشه... إنه غبي لا يدري ما يفعل، حاله حال الأميرين اللذان يقفان معه".

استدار الأمير جابر نحو الجريحين اللذان كانا يرقدان على العشب فلمعت عيناه فيهما بالغضب، غضب تناثر كالنار في وجهيهما مما جعلهما يرتعدان خوفا من صوته حينما صاح فيهما:
- "لماذا كنتم تطاردونه".

وقال أحدهما بصوت مرتجف بينا يخفض بصره:

- "لقد أمرنا سيدي أرون بقتله... ولو كنا نعلم أنه بهذه القوة لما تجرأنا على الإشتباك معه، لقد كان الشبح منذ البداية مرسلا من الأمير شهاب نفسه، وكل ما نعرفه الآن هو أنه قد فقد السيطرة عليه تماما، ويبدو أن ثمة اتفاقا بينه وبين الأمير أرون بشأنه، وقد أوكل سيدي هذا أمر إيقافه إلينا، ونحن فرقة من خيرة رجاله، لكننا رغم هذا لم نقدر حتى على جرحه، كنا اثني عشر

رجلا، والباقون الآن كلهم يرقدون بين الأشجار موتى... إنه... إنه وحش متعطش للدماء، فحتى عندما أدركنا قوته وأردنا التوقف عن ملاحقته لم يسمح لنا بالتراجع، لقد عثرنا عليه بالقرب من دائرة السحرة، في البداية تظاهر بالفرار منا ففكنا بمطاردته، لكن فور وصوله إلى هذه الغابة استدار قبالتنا وأخذ في ذبح رفاقنا واحدا تلوى الآخر، لقد بدى وكأنه قام باقتيادنا إلى هنا "كانت عينا الرجل قد اتسعتى عن آخرهما، كان يجثو على يديه والعرق يتصبب من جبينه، ونقل بصره نحو بقايا الخيول الميتة : "وكانه أراد توسيع هذه المقبرة، ولولا... ولولا أنك أنقذتنا يا سيدي... إنني... إنني بالفعل شاكر لصنيعك".

نظر ليث ورشا وخولة نحو بعضهم في ذات اللحظة، وأدركوا أن تخمين الأمير جابر بشأن ما يحدث كان صحيحا، إن المتجول بات يشكل تهديدا لخطتهم، وانتظروا بعد ذلك من الأمير جابر أن يقول شيئا، القائد ليث كان يحترق شوقا ليأخذ أمرا بقتل الأسيرين، غير أن أمله خاب بعد لحظة، إذا جاء صوت الأمير سيده حادا على غير ما توقع:

- "اجعلهما يقفان على قدميهما ثم اتركهما يغادران بعد ذلك".

قال الأمير ذلك وراح نحو صخرة في طرف البقعة فجلس عليها وجعل يرخي يديه فوق ركبتيه وأنزل رأسه، بعد قليل ذهب خولة بقربه، ولم تجلس، إنما وقفت تراقب ليث ورشا وهما يعالجان جراح الرجلين وقالت ونبضات قلبها تصعد:

- "لم أقدر... لم أقدر على تركك وحيدا هناك في مواجهته".

- "كم مرة علي إخبارك بهذا... في المواجهات الفردية لا أكون بحاجة للمساعدة، يمكنني تدبر أمر أي شخص أواجه، إن لم أتمكن من قتله فعلى الأقل لن أسمح له بقتلي".

- "لقد تذكرت كلام السيدة مريم فجأة و...".

- "هل أخبرتك بأن تلك الورقة تمنح الشياطين القدرة على امتلاك أجساد الموتى؟ كنت تعلمين أنه شيطان إذن!! فماذا لو أنه تخطاني وتوجه صوبك؟".

... -

- "لنتك هذه آخر مرة أراك تهرعين فيها إلى مساعدتي دون أن أطلب منك ذلك، وإلا...".

- "إنني أعتذر".

قالت خولة ذلك بغم مرتعش، وقام الأمير بعدها فوقف بجانبها فقال لها:
 - "يهين علي أن أموت مرتين قبل أن أرى مكروها يصيبك... لم يعد في
 وسعي تحمل شيء كهذا مرة أخرى، إن جرحي من فقد والداي لم يشفى بعد
 با الكامل، ولم يكن ليشفى ولو قليلا لولا وجودك، لكي أن تفهمي من هذا
 ما تريدينه فلن أقول غيره، لكنك لو واصلت المخاطرة بنفسك هكذا فسوف
 أتوقف عن إخراجك معي، تذكرني هذا جيدا".

وإنه قال آخر كلماته وهو يضرب جبينها بطرف سبابته، وإذا لم يكن هذا
 ما توقعته منه أن يقوله أو يفعله، فذلك لأنها انتظرت منه عتابا آخر، ووقفت
 تراقبه بينما يذهب نحو حصانه ليل، بينما يهتز قلبها فرحا لما قاله، إنه في نظرها
 قد صار هكذا، في كل مرة، بكلمة واحدة فقط أو بنظرة، عاد بإمكانه أن يجيل
 كل نبشة حزن أصابت قلبها، مهما بلغ حجمها، فيسيل دفئ السعادة في
 أوصالها كأن لم يُغضبها بالأمس أبدا.

نار

انقضت بضع لحظات فقط على توقف المطر، وكانت الأوراق الخضراء في أشجارها لا تزال تسقط منها قطرات باردة، كان الوقت صباحا، والشمس في خيائها تزحف قادمة من المشرق، وفي عمق الغابة الخضراء وأمام كومة صخور صغيرة جلست العجوز على ركبتيها تنبش التراب بقطعة خشب وقد وضعت طبقا بجانبها وراحت تلقي فيه ما تجمع، كانت شاردة مثل طفل يلعب، حتى استشعرت أقداما تزحف نحوها، ولم تتوقف عما كانت تفعل، ولم ترد خولة مقاطعتها، وانتظرتها حتى انتهت من عملها وقابلتها بعد ذلك بابتسامتها المعتادة، فيما تناول القائد ليث الطبق عنها، أما الأمير جابر فكان يراقب الأمر بعين متصلبة كعادته، حتى حين رآها تنفض التراب عن ثيابها أسرع يعينها على الوقوف وناولها عصاها بعد ذلك، وقالت السيدة مريم بينا تلقف العصى بيد مرتعشة:

- "كنت أتوقع مجيئكم، ولذلك خرجت للصيد كما ترون، لقد عدتم من رحلة طويلة، ولا ينبغي على من عاد من مثلها أن يكتفي بطعام القصور ليستعيد عافيته، ينبغي أن تتناولوا شيئا من الأرض بدل ذلك....".

قادتهم العجوز بعد ذلك إلى كوخها ولما وصلوا جعلت تزيل سلكا من على الباب ثم فتحتها ودعتهم إلى الداخل فمشوا خلفها حتى وضع القائد ليث الطبق على رف من الطين وعاد يجلس على أحد المقاعد التي أخرجتها العجوز من تحت سريرها فيما ذهبت تذكي النار في المدفئة وهي لا تكف عن الحديث عن كل شيء كان يخطر ببالها، حتى وقعت من يدها قطعة خشب كانت تهم برميها في المدفئة فسكنت حركتها للحظة، وقام القائد ليث عندئذ فأكمل عنها عملها، ولاحظ الجميع رعشة في يدها حاولت إخفائها دون جدوى، وقامت خولة بعد ذلك فساعدتها في إعداد الطعام حتى لم يبق من الأمر سوى أن يُترك للنار وحدها، وعادوا بعد ذلك جميعا فاجتمعوا جلوسا متقاربين وعاد الحديث بينهم فكانت العجوز وهي تكاد تسند ذقنها على العصى أول من ابتدر الكلام فقالت:

- "سيحل فصل الشتاء قريبا، وأظنه سيكون شتاء قصيرا هذه المرة".
 - "ولما ذلك؟".

- "أنظرتِ إلى السحب في وقت قريب يا ابنتي، إنها تجد صعوبة في الإلتحام مع بعضها، كنت أقصد أن المطر سيكون شحيحا، على خلاف البرد طبعاً...".

اكتفتِ رشا بالجواب الذي ألقته إليها العجوز وظنته كافيا، وكذلك الحال عند خولة والقائد، لكن الأمير لم يكفه ذلك، بل لقد أدرك ان ثمة شيئا من وراء كلامها، ونظر إلى يدها مجددا فأراها تحكم قبضتها حول العصى حتى تخفي ارتعاشها، بعد ذلك مر وقت طويل لم يتحدث فيه أحد، كان صوت الطعام وهو يطهى على النار وحده يعطي للكوخ طعمه، بدأت الريح تحرك صفحة النافذة، وقام القائد فأغلقها وعاد يجلس مكانه:

- "يجدر بهذا الطعام أن ينضج بعد وقت قصير جدا، أليس كذلك؟".

- "لماذا، هل أنت جائع جدا؟".

- "كنت لأطرح نفس السؤال حتى لو لم أكن كذلك، لقد مر وقت طويل لست

أذكره أهو بالسنوات أم بالأشهر منذ تناولت حساء الحلزون آخر مرة...".

قالت خولة تعقب على حديثه:

- "حتى وإن كان قد مر يوم واحد فقط، ستظل تشتهييه بمثل هذه الرغبة، لا أقصد بحديثي هذا لهفتك عليه فقط، بل لأنه من يدها، فهي أفضل من يطهو الحساء في هذا العالم..." .

حين رفعت بصرها بعد ذلك نحو الأمير جابر فإنّها فوجدته يطالعها بغرابة، فأتى على خديها خجل فنحنحت وعادت تخاطب العجوز التي كانت في تلك اللحظة تبدو نعسة وهي تغوص في صوت الحطب وهو يحترق ويتحطم في المدفئة:

- "إنك تستعملين الكثير من الحطب في نفس الوقت يا عمه، بعضه تحت القدر وبعضه في المدفئة، هكذا ستحتاجين لجمت المزيد منه لتتخطي الشتاء القادم..." .

وأخذت العجوز وجهها من الفراغ وأخذت به نحو خولة وهي تقول في صوت ثقيل نعس:

- "لا... لدي المزيد منه في الخارج أحتفظ به في الزريبة، سيكون أكثر من كافٍ، ولن يكون لدي الوقت لاستعماله كله..." قالت ذلك وراحت تغوص ببصرها في نار المدفئة مرة أخرى: "حطب قليل لشتاء قصير..." .

ظل الأمير في صمته يراقب العجوز بقلب يأكله الشك والقلق، كان متأكدا من أن بها خطبا، فهي لم تقم منذ جلوسها الأول، ولم تكن تلك عاداتها، بقي ساهما يفكر، وأيقظه صوت خولة:
- "ألن تقول شيئا؟".

ونظر إليها للحظة ثم عاد يتفقد العجوز بعد ذلك ثم قال يعتذر:
- "لقد شردت في شيء يقع بعيدا جدا عن هنا...".

وقالت العجوز حينئذ:

- "علك عدت إلى تلك الأرض الجميلة؟".

وسارع القائد يسألها:

- "هل زرتها مرة؟".

وأومأت العجوز تهز رأسها:

- "لا، لم أفعل... لكنني سمعت عنها ما يكفي لأن يجعلني ارسم لها
صورا...".

وقال ليث يقول وهو يرفع قبضته بحماسة:

- "أعدك أن آخذك لرؤيتها قريبا، سيكون ذلك بعد أن ننتهي من الخطر القادم ويحل الأمن مرة أخرى كما أراه الساحر الأكبر، وليس ذلك ببعيد يا عمّة...".

- "عن أي خطر تتحدث أيها الولد، أفتعلمت حربا مع الأمير شهاب أم ماذا؟".
ونظر ليث نحو سيده نصف نظرة، فقد شعر بتسرع، لكن الأمير لم يبدرد فعل يذكر، بل ظل هادئا كأنه لم يسمع شيئا، حتى جاء سؤال العجوز هذه المرة يقصده:

- "أجبني يا ولدي، ما الذي وقع لكم هنالك؟".

وهنا نطق الأمير أخيرا فقال وفي نبرته ثبات وخوف يختلطان ببعضهما:

- "ثمة ما جلبناه من أرض الرياح يا عمّة...".

وقالت العجوز تصطنع جهلها:

- "ترى ما الذي جلبتموه من تلك الأرض الجميلة؟".

وقال القائد ليث بتذمر:

- "لم نجلب شيئا قد يسرنا الحديث فيه يا سيدتي، إنما أخبار تُفرع لها طبول

وتجف لها جباه وتغضب سامعيها، لقد عرفنا بوجود إمارة سادسة...".

- "أأخبرتكم بأمر الساحر؟".

أتى صوت العجوز رتيباً، كخيطة قديم لا تُعرف بدايته، فكأنما ارتج عقلها وتبدلت أمامها الصور وأخذ بها إلى حكاية قديمة تكاد السنون تمحوها من ذاكرتها، قالت ذلك وعيناها تشقان الفراغ شقا، فلم تكن تنظر إلى أي شيء محدد، ووسط دهشتهم لمعرفتها بأمر الإمارة الجديدة فقد عاد القائد ليعقب: - "هل كنت تعلمين بوجود إمارة سادسة طوال هذه المدة ولم تخبري أحداً؟ كم هذا مفاجئ!!"

ونطق الأمير جابر يقول وكان يقابلها في جلوسه:

- "بما أن الأمر هكذا، فلا بد أن ثمة ما يمكنك إطلاعنا عليه يا عمّة، الأمر يكاد يخرج عن السيطرة ولم يعد لدينا وقت كثير لإضاعته..." .
وتنهدت العجوز بهدوء وأنزلت ذقنها ببطء على يد العصي وأرخت جسدها ثم سكنت للحظة وراحت تخبرهم عما تعرفه، قالت بصوت ثقيل فيه حشجة:

- "لم تكن فكرة حسنة أن يخرج سر كهذا إلى العلن، لقد أتمنت عليه من قبل والدك، تماماً مثل كل الأسرار الأخرى، ولم أكن لأطلعكم عليه لولا أن ابتدرتموني به أولاً، أو أنه ساورني شعور بقرب أجلي، في تلك الحالة فقط كنت سأضطر لنقله إلى شخص آخر ليحمله عني، إنه سر ما كان يجوز أن

يبقى بين اثنين قريبان من بعضهما، لأنه حتما كان سيتفجر إلى العلن قبل أوانه، وحينها كانت ستحدث فوضى لا قبل لأحد بها، وكان سيسعي بعضهم الي البحث عن وسيلة للتواصل مع أولئك القوم الخطيرين، ولذلك لم يجعل لها الساحر الأكبر وسيطا خاصا بها ليكون مع أولئك الوسطاء الذين في الجبل...”.

- ”وماذا عن ذلك الوسيط السادس، إننا حتى الآن نجهل سبب وجوده”.

- ”أجل، لا أحد يعرف سبب وجوده، ولكنه بالتأكيد لا يعود لهذه الإمارة الشريرة... والآن دعوني أرجع بكم إلى الوراء قليلا، تعرفون جميعا ما كان قبل تكوين عالمنا، لقد جمع الساحر الأكبر القبائل المتشابهة مع بعضها وجعل لها أراضي خاصة بها وأمراء يقومون على أمرها ووحوش يحمونها، لكن قبيلة من تلك القبائل كانت تختلف عن الأخريات كثيرا، كان أهلها متوحشين جدا، ولم يكونوا ينصاعون لأي قوانين أو أعراف سُنت في تلك الأزمنة، وحين وجد الساحر صعوبة في السيطرة عليهم أو إقناعهم بالإنضمام إلى إحدى الإمارات قرر سجنهم تحت الأرض ومنعهم من التواصل مع الإمارات الأخرى تماما، رغم ذلك، رغم كل ما بناه وحققه، كان يعلم جيدا أن السلام الذي خلقه وإن قُدِّر له أن يزول في يوم ما فإن ذلك سيكون على

أيدي أولئك القوم لا محالة، ولذلك حرص على غلق أي منفذ من الممكن أن يتم من خلاله اكتشاف وجودهم، لكن بطريقة ما خرج ذلك السر من بين يديه إلى بضعة أشخاص وصار يتم تناقله من جيل لآخر، لقد ظلّ هذا السر ثقيلًا في صدور حامليه لفترة طويلة، لكن يبدو الآن أنه لم تعد ثمة حاجة لإخفائه، في الحقيقة لن أستطيع إخباركم بأكثر مما تعرفونه، لكن بمقدوري أن أؤكد الأمر لكم... ثمة شيء رافق هذا السر دوماً، يقال أن الخلاص يكون في رجل سينظر إلى السماء حين تمطر...” وأحنت العجوز رأسها نحو نار الموقد بذهن شارد: ”لم أتخيل أن هذا اليوم سيأتي وأنا على قيد الحياة...” .

مرت دقائق تبادل فيها الجالسون أحاديث سريعة وقصيرة بينا تغلي قدر الطعام أمامهم، حتى لما نضج طبخها طلبت العجوز من خولة أن تعد طبقاً واحداً كبيراً يجمعهم جميعاً بدل طبق صغير لكل واحد، ملأت خولة الطبق بالحساء ونظرت بعدها نحو باب الكوخ حيث كان الأمير يراقب السماء على عتبة الباب بفكر شارد، وعادت بعد ذلك بعينها نحو العجوز تستشيرها في أمره فأومأت لها العجوز بأن تجلس مكانها، وما إن فعلت ورأت الجميع يهمون إلى الطبق حتى جاء الأمير فجلس القرفصاء بجانبها

وصار يأكل معهم، لم تستطع خولة أن تتمالك نفسها حين وقعت عينها على القناع الخشبي وقد تركه الأمير على الأرض بجانبها، رفعت بصرها ببطء نحوه، بعدها نظرت إلى الآخرين فكان كل يخفي ضحكتة ويكتم بهجته، لكن لو سألتهم بعد ذلك عن رأيها في الطعام الذي تناولته لقلت أنه كان بديع الخلقة جميلاً جداً حتى ليصعب التحديق إلى وجهه لأكثر من لحظات قصيرة.

شعت الشمس بعد ذلك المجلس ما قُدر لها أن تشع، فمكثت في كبد السماء ساعة، وفي الأفق ساعة، ثم ارتمت خلف الجبال مثل طير خارت قواه فأسرع يهبط نحو عشه، بعدها أتى الظلام خفيفاً تركيه أشرطة من الهواء البارد كأنها الأيدي تمسح قمم الأشجار وأسقف المنازل، في الشرفة وقف الأمير يطالع الغربان في السماء منذ ساعة، كانت تسبح حول نفسها في دوامة مضطربة، بعد لحظات أتت خولة بجانبه، كان قد أعاد القناع إلى وجهه،

ونظرت إليه لبرهة ثم رفعت بصرها نحو الغربان هي الأخرى وقالت بينما تمسك جدار الشرفة بكفتي يديها:

- "طريقة طيرانها تلك، ألا يعني هذا أن مشكلة ما في الطريق إلينا؟".
- "بلى...".

ومر في تلك اللحظة شهاب أضاء شطرا من السماء تماما حيث كانت تلتقي أعينهما.

- "في عالمي، البعض حينما يرونه يتمنون أشياء جيدة...".
- "ليس لذلك أي معني...".
- "أعلم...".

صراع

صباح اليوم التالي، وليس بعيد عن أسوار المدينة، كان فيلق حربي من أرض الغابة ينطلق بجياد تعدو كأنها الريح في يوم عاصف، بحوافر تقدح شررا على طول المسار المؤدي نحو الأرض الوسطى، كانوا حوالي أربعين فارسا مسلحين بسيوف ونبال ودروع حربية، يتقدمهم كل من خولة ورشا والقائد ليث وقد راح يفترس الطريق بعينيه اللتان كانتا تقتربان من فوق رأس حصانه من شدة الحماسة، ولحظة اقترابهم من الأرض الناعمة أدار وجهه إلى سماء أرض الغابة حيث كانت الغريان قد تجمعت والتحمت مع بعضها وصارت غرابا واحدا ضخما راح يحلق بجناحيه العظيمين في موضع ما فوق القصر تماما، حدق فيه لثانيتين ثم عاد نحو الطريق وصار يُهتت بصدر مضطرم:

- "أرجوك يا سيدي، تعال في الوقت المناسب..."

فرقعت حوافر الخيل عند منعطف حاد فتطايرت الصخور إلى الجنبات وتدافعت منها الحيوانات الصغيرة هاربة وقد كانت تطل بأعينها الصغيرة تستفهم سبب الجلبة العالية، وظهرت بعض الخيول البرية تخرج فزعة من

الأرض الناعمة تتجه صوب الجنود كأنما تهرب من شيء ما لتحتمي بهم، لكنها تجاوزتهم وفرت بعيدا عنهم، وحينها أمر القائد ليث رجاله بالتوقف فجأة، فقد كان ثم غبار وجلبة يأتيان من عمق الغابة، وبدا ذلك الصوت وكأنه صراخ وحش يريد التحرر من قيد يثبته، ثم تلته أصوات سقوط جذوع شجر، وقالت خولة وهي تراقب الغبار المتطاير المختلط بأوراق الشجر:

- "هذا هو الموقع حيث بلغ المراقبون عن وجود وحش أرض الماء فيه، يبدو أن ثمة من سبقونا إليه فعلا...".

وقالت رشا:

- "لكن لا يمكن أن نكون قد تأخرنا، ما دام ثمة قتال يجري، فلا بد أنه يقاوم بشراسة...".

ودنى القائد بخيله إلى مدخل ضيق يختصر الطريق نحو المكان الذي تطلع تلك الجلبة منه وقال يضرب ساقيه على بطن حصانه:

- "لن نعرف شيئا قبل أن نرى بأعيننا، فليتهياً كل منكم بسلاحه، ثمة قتال شديد وضرب سيبدأن اللحظة...".

قال ذلك واختفى في الظلال بخيله، تبعه الجنود وهم يتحسسون سيوفهم ودروعهم، كانت نظرات القلق تعلوا وجوههم، فلم يسبق لهم أن رأوا

كأنا أسطوريا يختلف عن الغراب من قبل أبدا، فلسنوات طويلة تعد بالألف والمائة ظلت الأراضي الخمسة في سلام وتباعد إلا من مناوشات قليلة وصغيرة بين الفيالق التي تخرج للصيد من وقت لآخر حينما تلتقي دروبها، فبات يصعب إيجاد شخص وُفق في رؤية وحش أرض أخرى غير وحش أرضه، ولذلك تملك الجنود توتر وخوف من التواجد بقرب وحش يتقن الاختفاء والصياح بفك تبرز منه أنياب عظيمة حادة في وسعه استعمالها - ودون مشقة - لالتهام حصان في وقت واحد.

خلف معترك من الشجيرات اختبأ القائد وجنوده وراحوا يطلون برؤوس سيوفهم من بين الظلال يراقبون معركة شرسة كانت تقام على مرأى منهم، كان عدد من المحاربين المخمليين في ثياب من الجلود والأوبار يقيمون دائرة ويشهرون فؤوسهم حول وحشين يتقتلان بشراسة، قالت رشا وهي تدرس الوضع بعينيها الثاقبتين:

- "ثمة حوالي ستين رجلا، إنهم يفوقنا عددا، بالإضافة إلى وحش أرضهم، ما العمل أيها القائد؟".

- "حاليا لا شيء في يدنا، سنبقى هنا ونكتفي بالمراقبة ريثما يصل الأمير جابر، فلنأمل فقط أن لا يتأخر في الإتصال مع الغراب ويأتي في الوقت المناسب...".

وهكذا التزم القائد ومن معه أماكنهم يراقبون الوضع وهم على استعداد للتدخل في أي لحظة وإفساد الأمر على جنود أرض الرماد إن تطلب الأمر ذلك، كان التمساح المفقود قد ظهر في تلك اللحظة واقفا وسط الساحة الفارغة بينا يقطر جلد عنقه السميك دما وهو يراقب القنطور بعد أن أنهى هجمته عليه وعاد بضع خطوات إلى الوراء ليسترد قواه ويعاود الكرة، ورفع القنطور قائمته الأماميتين ثم صاح بصوت ثقيل مرعب وانطلق يهاجم التمساح برمحه، لكن التمساح اختفى فجأة من مكانه فأنتهى الأمر بالقنطور وهو يضرب الهواء فاشتعل غيظه وصار يدور حول نفسه ويشير الأتربة بشكل هائج.

- "ما الذي يفعله؟".

سألت خولة، فأجابها القائد ليث وهو يضيّق نظرتة:

- "كما هو متوقع من أذكي الوحوش الخمسة، إنه يثير التراب حتى يتطاير ويلتصق بالدم الذي على جلد التمساح فيقدر على تحديد موقعه...".

- "مذهل.!!"

- "فعلا...".

- "لكن... ذلك.!!"

- "أجل، الأمير أرون، إنه ينتظر الفرصة المناسبة ليتواصل مع التمساح، لكن قبل ذلك ينبغي على القنطور أن يخضعه أولاً، وهذا ما لا نرجوا حصوله...".

- "إذا استمر الوضع هكذا فلن يطول الأمر قبل أن يتمكن منه فعلا...".

- "هذا رغم أنه لا يقوى على الرؤية في وضح النهار جيداً...".

- "لكن حضور الأمير يعد حافزاً أيضاً...".

- "ماذا تقصد؟".

- "انظرا، القنطور يقاتل بجانب سيده، لكن التمساح بعيد جدا عن موطنه، إنه لا يرى أحدا بجانبه، لذلك لن يكون بمقدوره أن يتخذ قرارات مناسبة بنفسه، قوة الوحش تعتمد كثيرا على سيده، ولو كانت (الأميرة هند هنا بجانب وحشها لتغير الوضع كثيرا...".

- "سيدي، ما الذي يفعلونه؟".

كذلك سأل أحد الجنود لما لاحظت عيناه شيئا غريبا.

وأجابه القائد:

- "يُعدون الحبال للإلقاء على التماسح وتقييده، أظن أن القنطور سيشن هجومه الأخير هذه المرة..." .

كان وحش أرض الرماد با الفعل قد بدأ يتتبع خيط تراب ظل يتحرك في الهواء أمام ناظريه ويحوم حوله في دائرة، بينما كان رجال أرض الرماد يحملون حبالاً في أيديهم يعدون أنفسهم للإلقاء، فيما كان الأمير أرون يقف خلف رجاله مغمض العينين وهو يغرس صولجانه في الأرض بيده واحدة بينما يمد ذراعه الأخرى نحوى وسط الدائرة فيما أنه يحاول تحريك شيء ما من مسافة بعيدة، وكان في تأمله ذلك يحاول الوصول إلى عقل التماسح في انتظار أن يخضعه القنطور بشكل كامل.

استعد وحش أرض الرماد لتوجيه ضربته الأخيرة، كان التماسح يتحرك في دائرة ولا يظهر منه إلا مواضع أقدامه على الأرض وخيط الدم الملطخ بالتراب على عنقه، تراجع القنطور بضع خطوات إلى الخلف ثم رفع قائمته الأماميتين لأعلى وهوى بهما على خيط الدم الذي كان قادماً نحوه في تلك اللحظة، شخر بعدها هازاً أطرافه الثقيلة وهوى مرة أخرى برمحه على التماسح فغرسه في جسده، وما هي إلا لحظات حتى بدأ جسد التماسح يظهر من

مؤخرة ذيله ورأسه حتى اجتمعت ألوانه جميعها في نقطة واحدة حيث كان الدم يفيض من الثقب الذي صنعه القنطور في جسده، اندفع رجال أرض الرماد بعدها فتبادلوا حبالهم حول جسد التمساح المطروح وضربوا الحديد في الأرض ليثبتوه ريثما ينتهي الأمير أرون من عمله، وحينها شعر القائد ليث ومن معه بخطورة الوضع فتململوا في أماكنهم وودوا لو يهجمون عليهم هجمة واحدة، لكن وقوف القنطور هناك أمام أنظارهم بث في نفوسهم رعبا وحبس أنفاسهم وحال دون ذلك، ونطقت رشا تقول وقد تبدى في صوتها ذلك القلق:

- "ما العمل الآن أيها القائد؟".

وقال ليث بحيرة:

- "لدينا خياران أولهما سيء وثانيهما أسوأ منه جدا، أما الأول...".

وتحركت رشا من مكانها.

- "إلى أين؟ ما الذي تفعلينه؟".

- "لن أبقى مكتوفة اليدين هكذا، سأذهب لتحرير التمساح، فذلك سوف يكسبنا بعض الوقت ريثما يصل الأمير جابر، يمكنك أن تأمر رجالك با

الذهاب معي ومساعدتي، طالما قررت البقاء مختبئاً هنا والإكتفاء بالمراقبة”.

نظر القائد حوله، ولم يكن ثمة من جنوده من تملكه الضحك، فعدل نظرتة بعدها في رشا وقال يشد قبضته حول سيفه:

- ”دعينا ننتظر لبضع لحظات فقط، وإن لم يظهر الأمير...”.

ولم يكد القائد ينهي كلامه حتى انفجر نعيق كالبرق من فوقهم، ذهل الجميع من هول الصوت وصعدت أبصارهم لأعلى، كان الغراب يحلق فوق البقعة الفارغة وسط الغابة، وكان الأمير جابر يقف على ظهره حامل سيفاً ذا غمد أسود يسطع من نور الشمس الضارب، كان منظره مهيباً جداً، وبينما تطالعه الأعين جميعها من الأسفل ذاهلة، فإنه قفز من على ظهر الغراب وحط في موضع يتوسط البقعة الخالية من الأشجار وسط الغابة الناعمة، وانفجرت أسارير الجنود لما رأوا أميرهم في تلك اللحظة، لكن قائدهم كان من الفرخ بحيث لم يتمالك نفسه فأخرج رأسه من خلف الأوراق وقام واقفاً بعدها:

- ”إنه... إنه... هذا غير ممكن!!”

ونظرت خولة ورشا إليه بحيرة فأردف يقول والذهول باد على وجهه:

- ”لقد أخرج سيف والده...”.

ونظر الجميع إلى السيف في يد الأمير جابر، ولقد وقف متألقا به أمام القنطور الذي راح يطالعه بنظرة ساخطة، راح الإثنان يواجهان بعضهما بنظرات حادة كأنما يدرك الواحد منهما أن الآخر هو بحق كفؤ لمواجهته، في تلك اللحظات القصيرة، كان الآخرون في الخلف يحاولون فهم ما يجري، قالت خولة وقد تدفق شيء ما إلى رأسها:

- "ما قصة ذلك السيف؟".

وقال القائد وفخر عظيم يتردد في صوته:

- "إنه سيف الأمير داغر، السيف الذي لا يخرج من غمده إلا للتسبب في سفك الدماء وإحداث مجزرة...".

وأحدث كلام القائد اضطرابا في نفس خولة فقالت تستنكر الأمر:

- "هل ينوي قتلهم جميعا؟".

- "ذلك مرهون بما سيفعله بعد لحظة، لكن خروج السيف من غمده يعني سيلان الدماء لا محالة...".

بعد لحظات فقط بدأ الغراب يتحرك بشكل غريب في السماء ثم إذ به فجأة ينفجر إلى قطع سوداء صغيرة انتشرت وصارت كغمامة تغطي الشمس من فوق رؤسهم، ثم راحت بعد ذلك تهوي نحو الجنود الذي كانوا يشدون

الرجال حول جسد التماسيح فأخذت تناوشهم وتنقر دروعهم حتى أفلتوا الرجال وصاروا يحاولون ردها بدروعهم وفئوسهم، كذلك تراجع القنطور من أمام الأمير جابر ليساعدهم، وحينها خرج القائد ليث وجنوده إلى الساحة بجانب أميرهم، وقال حينئذ وهو يراقب بدهشة ما يقع أمامه:

- "سيدي، ماذا نفعل؟".

وطال صمت الأمير جابر لبعض الوقت ثم التفت نحو رجاله:

- "ألم تأتي أميرة أرض الماء بعد؟".

- "لا لم تأتي، ربما تأخر الرسول في الوصول إليها...".

- "حسنا، أرسل من يبحث في أمره، فلربما وقع له ما منعه من ذلك، لكن ثمة مشكلة أخرى ينبغي علينا مواجهتها غير هذه، وأنا على ظهر الغراب لمحت عددا من فرسان أرض الرمال يتجون إلى هنا، إن عددهم لا يتجاوز العشرين رجلا، وربما هم الآن على بعد عشرة آلاف قدم".

- "ماذا، كيف عرفوا بأمر...؟" قال القائد بوجه شاحب، لكنه سرعان ما لملم نفسه وعدل هيئته لتلائم حديثه القادم: "حسنا، من الواضح أنهم أتوا لتنظيم إلى الأمير أرون لكن لا مشكلة يا سيدي، يمكننا مواجهة كلي الفيلقين في

وقت واحد، سنكون ندا لهم ولن نسمح لهم بأخذ التمساح من بين أيدينا مهما حدث...” .

-”ليسوا وحدهم يا ليث، فالعقرب أيضا قادم برفقتهم...” .

الآن عاد وجه القائد إلى شحوبه الأول، وتلعثم صوته، وطال صمته وابتلع ريقه، فيما قالت رشا:

-”نحن الآن واقعون في ورطة حقيقية، أظن أن ما ينبغي علينا فعله الآن هو أن نرسل أحدا لمحاولة إقناع الأميرة رها بالتراجع، لا شك أن الأمير أرون قدم لها وعودا وقام بخداعها حتى تخرج بحارس أرضها إلى هنا...” .

وقال الأمير شاكر لرأيها:

-”وذلك عين الصواب تماما، ينبغي أن نمنعها من الوصول إلى هنا، وإلا خسرت التمساح إلى الأبد...” .

وقال القائد:

-”بقي الأمر الآن فيمن نرسل، ووددت لو أذهب لملاقاتهم بنفسي، لكنكم تعلمون جميعا أنني رجل سيف بالمقام الأول وليس لي لسان أحسن توظيفه في مثل هذه الأشياء...” .

وساد صمت بينا يفكر الجميع فيمن يمكنه خوض هذا الأمر فيريح صدورهم ويمنحهم الفرصة للإهتمام بالأمر أرون ورجاله، وفي خضم ذلك القلق الذي اكتسح صدورهم أتى صوت من وسط الجميع يقول فجأة:
 - "أنا سأذهب...".

وتحرت الأَبصار نحو صاحب الصوت بسرعة، غير بصر الأمير جابر فإنه تحرك ثقيلًا كأنما لا يود الوصول أبداً، كانت خولة هي صاحبة ذلك الصوت الذي أراح صدوراً وأقلق أخرى، أردفت تخاطب الأمير بثقة تجلت في نظرتها:
 - "يمكنني تولي هذه المهمة، أرجوك أن تمنحني ثقتك لأدائها".

... -

وتدخلت رشا تقول وقد تملكها خوف على رفيقتها:
 - "أنت يا خولة، ولم يسبق لك أن تعاملت مع ظروف كهذه!! دعي القائد يذهب بنفسه، فهو أقدر منك على أدائها، أو... أو دعوني أنا أذهب...
 يمكنني المحاولة...".

وقال القائد وقد برقت عيناه فأتى صوته منفعلًا:
 - "ما الذي قد تقولينه لتقنعي به الأميرة رها أيتها الفتاة المحاربة؟".

لم تنطق خولة ببنت شفهِ، فعضت رشا على شفتها غيضا، إذ لم تجد لسؤال القائد جوابا، وحينها عادت خولة تقول وفي صوتها إصرار يكبر بعد كل حرف تقوله:

- "أرجوك أيها الأمير، اسمح لي بتولي هذه المهمة، أعدك ألا أخذلك في أدائها".

- "حسنا، لك ذلك... بإمكانك الإِنطلاق فوراً".

ودهش الجميع لسرعة استجابته، واندفع القائد يقول مهتاجا:

- "سيدي، إذا كانت خولة ستذهب فدعني أذهب بدلا منها، أرجوك يا سيدي، قد لا أتفق كثيرا مع رشا، لكنها قالت هذه المرة كلاما جيدا لم تقل مثله من قبل أبدا".

ونظر الأمير جابر إلا القائد نظرة من لا يريد نقاشا وقال حازما أمره:

- "اجعل اثنين من رجالك يرافقانها يا ليث، إنني سأحتاجك إلى جانبي أيها القائد... "قال ذلك ونقل بصره نحو الجنود الذين كانت أعينهم تصطع فخرا:

- "أنت وجميع رجالك البسلاء اللذين سوف يخوضون هذه المعركة، إنه سوف يكون قتال حياة أو موت، فلذلك كونوا يدا واحدة واحموا ظهور بعضكم، حياتكم أولى من أي شيء آخر، هدف كلى الفريقين هو السيطرة

على التمساح، ومن يفعل ذلك أولاً ينقلب ميزان القوة لصالحه وينتهي هذا الصراع تماماً، ولذلك سأبذل جهدي حتى ينتهي الأمر بأسرع وقت ممكن، سأكون اليد التي توقف الأمير أرون فكونوا اليد التي توقف رجاله، وأما القنطور فسوف تتكفل الغريبان بأمره...” ونظر بعدها إلى خولة كأنما يفكر في أمر ما ثم دس يده في ثنايا ثوبه وأخرج ورقة بردي تأملها للحظات ثم ناولها إياها وقال لها:

- ” هذا سيساعدك في مهمتك، إن الأميرة رها سوف تعدل عن رأيها إذا وقع هذا بين يدها...” .

وتناولت خولة الرق باندهاش قائلة:

- ” ما هذا؟” .

- ” شيء ثمين تحمليته معك...” .

وفهمت خولة أنه لا يود البوح بسره في العلن، فتراجعت عن السؤال وأومات برأسها طائفة، ذلك بينا عاد الأمير ببصره نحو المعركة التي كانت تقام بين رجال أرض الرماد وغربانه ثم أحكم قبضته على غمد السيف الللمع وسار يتبعه رجاله وروح القتال تنمو في صدورهم مثل نار تتقد.

تفاوض

انطلقت ثلاثة جياد في ركض حثيث تخترق الظلال الوارفة، بينما تتطاير من خلفها الطيور فزعة مذهولة، تقدمت خولة المسير لسرعة فرسها، وجعلت تضع كلام الأمير جابر نصب عينيها، من ينجح في إخضاع التمساح أولاً تكن له القوة!... بعد مسافة ليست بالبعيدة صارت تلمح جماعات من الطيور تثب من أعشاشها هاربة، وحينئذ قدّرت أنّ المسافة لم تعد كبيرة بينهم، وبعد مسافة جذبت لجام فرسها حتى توقف تماما وأشارت لمرافقيها بالبقاء خلفها.

كذلك تيبست قوائم الجياد في منتصف الطريق الترابية الذي يقع وسط معترك من الأشجار حتى ظهر فرسان أرض الرمال تسبقهم رماحهم من فوق رؤوس خيولهم المكسوة، فجأة وبيننا يخف الفيلق من سرعته، إذ بوحش أرض الرمال يسقط من السماء فجأة خلف الجياد الثلاثة ليقطع عليهم طريق العودة.

وقف العقرب في جبروته المخيف بعد أن ظهر من خلفهم فجأة، يراقبهم بعيونه الستة الصفراء المخيفة، رافعا ذيله المमित استعدادا للهجوم

في أي لحظة، شعر الفارسان اللذان مع خولة بخوف شديد من شكله وصوت أنفاسه، فيما تماكنت خولة نفسها بصعوبة ثم صبت اهتمامها بعد ذلك على الفتاة التي كانت تتقدم جيش أرض الرمال في ثوب من حرير ورداء ذهبي اللون كان يغطي كتفها وذراعها الأيسر فلا يظهر منها إلا عيناها ويدها اللتي تمسك بها لجام فرسها، ولقد عرفتها خولة مباشرة بعد أن تذكرت ملامحها، فهي فتاة كانت قد رأتها في قصر الأمير أكثم يوم أن قاموا بقتله، لا زالت خولة تذكر شكل عينيها جيدا، فهي لم تنسى تلك النظرات أبدا، ولذلك تسائلت إن كانت ستتذكرها بدورها، لقد كان لهذه الفتاة مكانة في القصر الأصفر وكان لها شأن عند الأمير أكثم حينها، والآن قد حلت مكانه كأميرة على أرض الرمال بعد موته، لم يكن لخولة أن تستصغر شأنها، بل إنها أدركت ومن النظرة الأولى أنها امرأة وعكس ما تبرزه تفاصيلها الأنثوية الرقيقة، لا شك تحوز فضلا في الذكاء وقسما من القوة جعلها تعتلى أعلى سلطة في أرض الرمال القوية، تقدمت الفتاة على سهوة جوادها نحو الثلاثة الواقفين حتى صارت تفصل بينهم أمتار قليلة ثم توقفت وأتى صوتها من تحت الخمار رخيما ناعما لا يصدر إلا من فتاة ذكية:

- "أنا الأميرة مها، أميرة أرض الرمال، وأنا في عجلة من أمري، فمن أنتم، ولماذا تعترضون طريقي؟".

في الناحية الأخرى من الغابة كان الصراع محتدما حول التمساح فتطايرت الدروع الخشبية وعلت الأصوات وهوى ريش الغربان فوق الرؤوس وضرب الحديد بعضه بعضا وكان جيش أرض الغابة يتقدم على جيش أرض الرماد بسبب من أن الغربان قلبت موازين القوى، فقد انقسم نصفها لمساندة القائد ليث ورجاله فيما ذهب نصفها الآخر لإشغال القنطور وإلهائه فهي على كل حال لم تكن قادرة على إسقاطه دون اجتماعها في جسد واحد، أما الأمير جابر فقد هاجم الأمير أرون وقطع عليه نومه ومنعه من مخاطبة التمساح فنشب بينهما قتال عنيف امتد في كامل ساحة المعركة، فكانا ينتقلان في سرعة خاطفة من مكان لآخر يتقاتلان حسبما ما تقتضيه الحركة التالية، لكن الآن كانا قد انفصلا عن بعضهما وتركيا بينهما مسافة، ووقف كل منهما يحدق في الآخر، كان الأمير أرون يقف حاملا صولجانه الذي كان يبدو وكأنه سيسقط من يده في أي لحظة من أثر التعب الذي أصابه، فلقد أرهقته محاولة الإتصال بالتمساح كثيرا واستهلكت الكثير من طاقته،

أما الأمير جابر فظل ممسكا بغمد السيف بوقفة ثابتة ونظرة حزم قوية فقال
يخاطبه بحدة:

- "إنني لا أنوي قتلك هنا يا أرون ولن أسمح لك بأخذ التمساح مهما كلفني،
فلهذا من الأفضل لك أن تأخذ رجالك وترحل عن هنا، أنت تفقد طاقتك شيئا
فشيئا، وقريبا لن تكون قادرا على مجاراتي حتى في أصغر حركة أقوم
بها...".

ولمعت عينا الأمير أرون من تحت العظام المجلجة المعلقة على جبينه
بغضب:

- "أيها الخبيث، لقد فهمت ما فعلته، إنما تعمدت القدوم متأخرا لهذا السبب،
لكن كيف عرفت بوجود التمساح هنا، لقد ظل رجالي يتعقبونه لأيام طويلة
حتى تمكنوا من تحديد مكانه، ثم أراك تأتي هكذا فجأة، وحتى أكون صريحا
معك فلقد ظننت أنني سأنهاي الأمر بسرعة حتى قبل أن يصل الخبر إلي
مسامعك، لكنك فاجأتني".

- "ذلك لأنني أرسلت بعض الغربان في الأرجاء منذ أيام وكانت تراقب
رجالك...".

- "هكذا إذن أيها الماكر...".

- "لم تجبني، هل ستستمر بهذا القتال لقوت أطول؟ إنك تستنفذ طاقتك، كما أن الشمس في أوج سطوعها ولن يقدر حارس أرضك على مجاراة الغريبان إذا أنا أمرتها بالتجمع في جسد واحد، تخلى عن عنادك وغادر فوراً قبل أن ينفذ صبري...".

وخرجت أنفاس الأمير أرون تفور غاضبة، وجمع قوته ووثب نحو الأمير جابر وقد تطاير العشب خلف قدمه بينما تخترق صيحاته ضجيج المعركة. بالعودة إلى الأميرة مها والحوار الذي نشأ بينها وبين خولة فقد كانت وهي تمتطي صهوة فرسها بهدود وثقة تحاول أن تقرأ حديث خولة بكل عقلانية ودون تسرع، ذلك أنه كان من الغرابة بحيث لا يجوز سماعه بطريقة أخرى، ووقفت خولة بعدما ترجعت عن فرسها وتقدمت منها مجردة من قوسها وراحت تعيد صياغة كلامها الذي قالته قبل لحظة:

- "كما أخبرتك، فأنا من عالم آخر، عالم أكبر يقع خارج هذا العالم، بل إنه يحتوي هذا العالم كجزء صغير بداخله، وهو أمر لا تجهلينه كما أحسب...".

ضيقت الأميرة مها عينيها وهي تشد لجام فرسها.

- "أعلم سبب قدومك إلى هنا مع جيشك، فلقد أطلعك الأمير شهاب على السر الذي أمدك بقوة الأمير أكثم على أن تتبعني بعض أوامره في مقابل ذلك،

كما أنه وعدك وعودا بشأن العالم الآخر، وأنه سوف تكون لك يد ومكانة في

حكمه بعد أن تتم الخطة العظيمة التي يهيأها للأمير رماح وجيشه...".

وما كادت خولة تذكر اسم أمير أرض النار حتى تبدلت نظرات الأميرة

رها إليها وظهر في وجهها ضمور وقلق فشدت لجام فرسها لتوقفه عن الحركة

وقالت وقد أوقدت في صوتها بعض الغضب:

- "كيف لك أن تعلمي بأمر الحاكم، من تكونين أنت؟".

وردت خولة وقد تنامت الثقة في صدرها لما لاحظت أنها أخذت بحديثها

اهتمام الأميرة:

- "إسمي خولة، ولقد قادني الصدفة إلى عالمكم، وأنا الآن أمكث في قصر

أرض الغابة ريثما أجد وسيلة للعودة إلى عالمي....".

كانت خولة سعيدة لأن الأميرة مها لم تتمكن من تذكرها، وإلا فإن ذلك

ربما كان سيأخذ الأمور إلى منحى آخر حتى قبل أن تجد وقتا لمحاولة

إقناعها.

- "هل أنت هي تلك الفتاة التي يقال أن الأمراء يعجزون عن قراءة أفكارها؟".

- "أجل يا سيدتي...".

- "سمعت أن الأمير جابر خرج معك إلى العالم الآخر.!!"

- "وذلك صحيح أيضا، وسوف تتاح لك الفرصة لسؤاله، وأنت تعرفين أنه لا يعرف طريقا للكذب".

- "ربما لن أكون مضطرة لسؤاله...".

- "فهل تصدقيني إذن؟".

- "لا، رولكن بمقدوري اختبارك أنت هنا وحالا...".

وأحنت خولة رأسها طائعة:

- "أتمنى لو أنك تفعلين هذا يا سيدتي...".

- "حسنا، لكن قبل ذلك أريد أن أعرف لماذا يرغب أميركم في السيطرة على التمساح، هل يرغب في أن يضمه إلى أرضه؟".

- "في الحقيقة لا أعرف، إنما أنا أمتثل لأوامره، لكنني أعلم أنه لا يرغب في شيء أكثر من أن لا تعيقه عن فعل ذلك...".

- "لنقل أنني صدقتك، فماذا سأستفيد أنا من كل هذا، أعني إن أنا تراجعته وجيشي وأخليت الساحة لذانكما الإثنان حتى يضم أحدهما وحش أرض الماء إلى قوته؟".

- "ليس بمقدروي الإجابة على هذا، لكن مساعدتك للأمير أرون لن تقدم لك شيئا، بل إنها ستعجل من هلاك شعبك، بل وكل شعوب هذا العالم، إنني

لا أعرف طبائع الناس هنا بقدرك، لكن لا أشك أننا سنختلف على أنه شخص ذو غدر وطمع، رأيت أنه لم يطلب المعونة ممن يفترض أنه صديقه وصاحب سره!"

وقطبت الأميرة مها حاجبيها:

- "ما قصدك؟"

- "أعني أنه لم يطلع الأمير شهاب على أمر التمساح حتى اللحظة، وهو الذي عينه الأمير رماح القائم الأول على تنفيذ أوامره."

- "الحاكم..."

- "حسنا، إن خطة سلب أميرة أرض الماء وحشها كانت من تدبيره، وهو من بدأها بسرقة الوردة الزرقاء أولا من قصرها ثم هو الآن يوشك أن ينهيها بالسيطرة على التمساح وضمه إلى قوته، أعني يا سيدتي بأن الأمير آرون قد حاد قليلا عن خطة الحاكم، وهو بذلك يشق لنفسه طريقا جانبيا في سبيل السيطرة على هذا العالم ثم العالم الخارجي بعد ذلك... بل حتى لقد وقع خلاف بينهما وصار كل منهما يعمل خفية عن الآخر، وهذا يعني أن الأمير شهاب لم يرسل لك أي رسالة يطلب منك فيها القدوم إلى هنا وتقديم يد العون

إلى الأمير أرون يا سيدتي، بل إن الأمير أرون قام هو من قام بإرسالها، وربما كان يخطط لأذيتك وأنت مع هذا العدد الثليل من رجالك...”.

وحاولت الأميرة مها إخفاء الغضب الذي تملكها مما تسمع، فتنهدت

بسرعة وقالت:

- ”من أين تعرفين كل هذا؟“ .

وقالت خولة:

- ”قبل أيام فقط ذهبنا في مهمة سرية إلى أرض الرياح وهنالك التقينا بأشخاص يوافقوننا الرأي بخصوص ما يحدث، وهم من خاصة الأمير شهاب وأهله، فهم يعارضون ما يفعل، لكن بسرية تامة، فلا يجروءون على معارضته جهرا، وقد أطلعونا على كثير مما يقع في الخفاء من حولنا، أفلم تقولي أن لديك طريقة تتأكدين بها من صدق ما أقوله؟ إنني لأرجوا ذلك حقا...“ .

- ”سأفعل...“ .

- ”سيدتي، إن الحاكم يعتقد أن هذا العالم والعالم الخارجي لا يزالان على حالهما قطعة واحدة مثلما كانا قبل أن يفصل الساحر الأكبر بينهما، فظنه أنه سيخرج لسفك الدماء وجمع الموارد مثلما كان يحدث قبل مئات السنين هنا، لكنه مخطئ، فثمة تغيير عظيم جدا قد حدث في الخارج، فلا يمكن لأحد أن

يتخيله، وإن حصول أي تواصل بين العالمين لن يكون في صالحكم، وخصوصا بالطريقة التي يودونها والنوايا التي يحملونها...” قالت خولة ذلك وأخرجت ورق البردي الذي أخذته من الأمير جابر وعادت تقول بعينين ثابتتين تلمع فيهما ثقة: ”لقد طلب الأمير أن أسلمك هذه...” .

وأسرع واحد من رجال الأميرة مها فتناول الورقة عن خولة وقدمها لسيدته، وما أن اطلعت على محتواها حتى برقت عيناها وعادت تحدج خولة بتحديق لاذع، وساد بينهما صمت رهيب للحظات انقضت ثم إذ بها تترجل عن فرسها هي الأخرى فذنت من خولة ودعت الرجل الذي سلمها الورقة للإقتراب منهما بينما عيناها لا تزيغان عن عيني خولة.

لم يعد ذلك السهل الخصيب الواقع في مركز الغابة الناعمة هادئا كما اعتادته الخيول البرية، بل لقد صار يعج بالقتل وصار نباته يسقى بماء أحمر دافئ، فبعد لحظات من بدأ المعركة أصيب العديد من الجنود بجروح خطيرة فيما لفظ بعضهم أنفاسه وجرى دمه تحت وجهه، طارت الدروع وتلاحمت السيوف وتعالى الصياح والوعيد من الجانب.

كانت تقام ثلاث معارك منفصلة، أولها بين فيلق أرض الغابة وفيلق أرض الرماد وأما الثانية فبين القنطور والغراب الذي كان قد تحول رفاح ينهال

عليه بضربات خاطفة من مخالبه الحادة من السماء بينما يناور بشراسة، وأما الثالثة فبين الأمير جابر والأمير أرون وكانا يستعملان كل ما حولهما في النزال فيحشران نفسيهما وسط الجموع تارة ويثبان على ظهر التمساح المقيد إلى الأرض تارة وينتقلان إلى حدود السهل حيث لا يعيقهما شيء تارة أخرى، الأمير أرون كان يتحكم في أغلب تنقلات النزال ذلك أنه ظل يتملص من المواجهات المباشرة بينما يدفعه الأمير جابر وشرارة برق تلتهب في عينيه، فلقد التقت أسلحتهما مرات كثيرة، وحاولا تبادل بعض اللكمات والضربات القاتلة، غير أنه لم يصب أحدهما الآخر بضربات خطيرة، وظلا يتقاتلان بشراسة، وفي خلال ذلك كان التمساح يحاول رفع الحبال التي تربطه، غير أن عيناه كانتا نصف مفتحتين بسبب من الوهن الذي أصابه من جرحه، في لحظة من لحظات القتال شاهد رجال أرض الرماد أميرهم ساقطاً على الأرض وقد وضع الأمير جابر قدمه على صدره فثبته، وحينئذ أصابهم رعب وغضب في الوقت ذاته، وحاول بعضهم أن يهرعوا لنجدة سيدهم، فيما زاد الآخرون من قوة ضرباتهم حتى بدأت خطوات خصومهم تتهاذى وتراجع، فوقع بذلك عكس ما هو متوقع، ذلك أن لمحاربي أرض الرماد صفة يمتازون بها عن

باقي الجيوش الأخرى وهي أنهم في مواقف الضعف تتعزز همهم وتقوى ضرباتهم فكأنما حافزهم هو شعورهم باقتراب الهزيمة.

ظل الأمير جابر يضغط بقدمه على صدر أرون والأخير يتفرسه بنظرة ساخطة وأنفاسه تخرج ثقيلة وحارة، كانت أسنانه القذرة التي تشبه أسنان ذئب جائع تبرز للخارج، وحرك شفثيه العفنتين بعد ذلك يقول متوعدا:

- ”ستدفع ثمن هذا أيها النذل الحقيير الأحمق، إنك لا تدري ما هي مصلحتك وإلا كنت في صف الحاكم تطيعه ولا تحيد عن أمره، ولكنك تحب التفرد فيما تفعل، وسوف ترى عن قريب أي دمار سيحل بك وبشعبك”.

وقال الأمير جابر غير أبه كلامه:

- ”الحاكم!!... هل تراك تطيعه، أم تحفر من وراء ظهره؟ هل أعلمته بأمر التمساح أم جئت تريده لنفسك؟ في الحقيقة أنت من يجب أن يقلق على نفسه، يكفي أن يعلم سيدك رماح بما فعلته وسوف لن تبقى أطرافك الخمسة قريبة من بعضها...”.

لم يكن الأمير جابر متأكدا كثيرا مما كان يقوله، فهو لم يعرف أمير أرض النار أو حاكمها كما يسمونه ولا أوصافه، ولا ما قد يكون رد فعله في مثل

هذه المواقف، لكنه أراد تخويف الأمير أرون قليلا، وشعر أنه تحقق له ذلك حينما رأى ملامحه تنكمش فزعة، ثم قوله:

- "أنت ما أدراك بأمر الحاكم؟ أيها المخادع، منذ متى تعرف بأمره؟".

- "منذ ما يكفي، ما يهم الآن هو ما سوف تفعله، أتاخذ رجالك وتمضي أم تواصل عنادك فتودي بنفسك وبهم إلى الهلاك جميعا، لقد بدأ صبري ينفد...".

وألقى أورن نظرة نحو منطقة المعركة، وشهاد ما تمنى أن يشاهده، كان رجاله يدفعون بخصومهم دفعا، وهنا عاد الأمير جابر يخاطبه:

- "لا تفرح لذلك، فأنت تعرف أنه يمكنني أن أذبحك الآن وأمضي إليهم فأقلب موازين المعركة لصالحهم...".

وكشّر الأمير أرون عن أنيابه مرة أخرى ومد يده وقبض قبضة من التراب فألقاها على وجه خصمه وحاول التملص منه والوقوف بعدها، لكن الأمير جابر تركه يقوم بسهولة ثم ركله على ظهره حتى كاد يسقطه وقال بسخط:

- "أيها الأحمق، لي فيك أمل وإلا لما أبقيتك حيا حتى هذا اليوم..".

وهرب الأمير أرون مهزوما إلى رجاله واختبأ بينهم حتى يستعيد بعض طاقته، لكن وبعد لحظات وبينما ذهب الأمير جابر لمعاونة القائد ليث ووجانتا

وكان يحيط بهم رجال أشداء يسيل اللعاب من بين أسنانهم المتسخة مثل ذئاب هائجة، إذ بأحد رجاله يصيح نحو طرف السهل بذعر يخنق صوته:
- "انظرو.!!"

والتقت الأعين عند الموضع الذي تاه فيه الصياح فكان فرسان ملثمون على ظهور أفراس قوية قد برزوا من بين الظلال وراحوا يتجمعون في صفوف منظمة، أيديهم على الألجمة وأعينهم تنظر بثبات وحكمة، راحوا يتدققون تباعا حتى برزت أميرتهم إلى الصف الأول، ثم ما هي غير لحظات وخرج العقرب يكسر الأجمات يشق طريقه حتى وقف بجانب فيلق أرض الرمال وصار يحرك ذيله بهدوء فوق ظهره، شعر رجال أرض الغابة بخوف لاذع لحظة رؤيتهم العقرب وكاد بعضهم يلقي سيفه ليفر بجلده، لكن القائد ليث تقدم حينئذ من الأمير جابر وقال له:

- "سيدي، يبدو أنها فشلت في مهمتها... وها قد تأزم الوضع الآن جدا، أظن أنه يستحسن بنا أن...".

وأوقفه الأمير جابر بإشارة من يده:

- "لا، بل سواصل القتال دون تراجع...".

- "لكن...".

- "عد نحو رجالك، وسوف أرى ما يمكنني فعله..." .

وضغط القائد أسنانه ببعضها وعاد نحو القتال بصدر منتفخ غاضب، وما هي غير لحظة، وأعطت أميرة أرض الرمال الإشارة إلى رجالها فاندفعت بهم أحصنتهم كالمد الجارف الذي يوشك أن يأخذ قرية في طريقه، كانوا يتجهون صوب منطقة القتال مباشرة، وبينما يأتي العقرب مسرعا خلفهم مثل شيطان مرعب، وقفت الأميرة مها في مكانها تراقب الوضع من مبعده، وشعر الأمير جابر ورشا وقد جاءت تقف بجانبه بخطورة الموقف، وأعد كلاهما سلاحه لاستقبال الضربة الأولى.

لمعت ذبابة سيف الأمير جابر تحت نور الشمس الساطعة، ثم مال ميلتين خفيفتين عن ميمنة وميسرة، وتباطئ الوقت وثاقل الدم في العروق وحبست الأنفوس، أغمضت بعض الأعين، ثم انفلت صوت القتال كهدير سرب من الطيور الصغيرة الجائعة، والتقت المقاتلون في صدام عنيف هذ كثيرا منهم، كان رجال الأمير أرون يسقطون أمام الضربات واحدا واحدا وتتطاير الدروع من أيديهم، ونظر أميرهم من خلف رجاله يتفجر من عينيه الفزع، وصاح بأعلى صوته المبحوح الغاضب:

- "أيتها الملعونة، مها... ما الذي فعلته؟... سوف تدفعون ثمن هذا، سوف أقتلكم جميعا... لن أبقى على واحد منكم، ليحيا الحاكم، إنني مخلص له من الآن فصاعدا، أيتها الخائنة، ليحيا الحاكم رماح، ليحيا الحاكم...".

وكان يلغظ بكل ذلك الحديث بينما يرى رجاله يتعرضون لهزيمة شنيعة، فبعضهم قتل وبعضهم ضُرب على قفاه وبعضهم جُرد من سلاحه فهرب وترك ساحة المعركة، وظل أرون يقلب عينيه في المعركة بينما يحترق صدره غيضا، وفاض لعابه من فمه حتى سال على ذقنه وصدره ولم يعد قادرا على الصراخ أكثر من ذلك.

أت خولة بعد أن هدأت ثورة الأمير جابر وأنزل سيفه فوقفت بجانبه

وقالت:

- "لقد نجحنا...".

ولم ينظر الأمير إليها، بل ظل يتفرس الأميرة مها باستغراب كأنما لم يصدق ما تراه عينه، لقد أرسل خولة لتقنعها بأن تعدل عن مهمتها وتعود مع رجالها إلى أرض الرمال ولا تتدخل فيما يحدث، لكن ما وقع كان أكثر بكثير مما أراده، فلقد هبت الأميرة بجيشها لنصرته، ذلك ما كان يظهر أمامه، غير أن شكوكه لم تزُل تماما، بل كان يراوده حس غريب بأنها أتت رغبة في السيطرة

على التماسح هي الأخرى، ووقع في حيرة من أمره، وعاد بعد لحظة نحو خولة:

- "ما الذي حدث؟".

وقالت خولة وهي تعيد وضع القوس على ظهرها:

- "لا شيء سوى أنني نجحت في تنفيذ ما أمرتني به...".

قالت ذلك وهي تنظر إلى الوحوش المتقاتلة، وكان العقرب في تلك اللحظات يأخذ زمام الأمور من الغراب فقد انهال على وحش أرض الرماد بضربات لاذعة من ذيله صدها القنطور برمحه الحديدي وراح يرغي بصوت هز الأرجاء لولا أن لفه ظلام الغربان حينما تفجرت أمام وجهه وحجبت عنه الرؤية، وفي لحظة لوح فيها برمحه ليبعد غمامة الغربان إذ به يتلقى ضربة قوية من ذيل التماسح جعلته يفقد توازنه للحظة وسببت له جرحا في بطنه.

نزف جرح القنطور دما أسود لدقائق، لكنه ظل ينازع الوحشين بضراوة، ثم ضرب الأرض بحافريه ولوح برمحه نحو الغربان فطارت إلى السماء ثم عادت نحوه في شكل غراب واحد عظيم الهيئة سرعان ما شل حركته حينما أحكم مخلبيه على رمحه فيما أتى عليه العقرب بضربة خاطفة من ذيله لم يجد سبيلا لاجتنابها، فسقط جاثيا على ركبتيه وخار خوارا عظيما يصعق

الآذان وفهم بعدها الأمير أرون أنه ليس من صالحه إطالة هاذ العناد أكثر، وتصيب العرق من وجهه، نظر في الأرجاء نظرتين ثم تحدث بكلام خفي بينه وبين نفسه وصاح نحو جنوده الباقين بلغة غير مفهومة، وراحت صفوف جنود أرض الرماد بعد ذلك النداء تنهار تواليا وتفرق الفيلق بعد ذلك هاربا نحو الظلال القريبة، وأما القنطور فكان آخر من غادر المكان بعد أن رمق الغراب والعقرب بنظرات ذات معنى، وهي نظرات لا تبتعد كثيرا عن نظرة حيوان جائع سُرق منه فريسته، كذلك انتهى القتال بانسحاب أمير أرض الرماد وجنوده، وختل الساحة تماما للأمير جابر فتقدم نحو التمساح مباشرة وكان لا يزال مثبتا في رباطه لا يقوى على الحركة، وقف أمامه ووجه يده نحوه وأغمض عينيه لدقائق يحاول أن يصل إلى عقله.

خلال ذلك استجمع الفيلقان نفسيهما وعاد كل محارب إلى جانب فيما تلاقى القادة في وسط السهل حيث دار بينهم كلام قليل لم يزد عن شكر طال الأميرة مها كان قد انهال عليها به القائد ليث، لكن دون أن يبدو عليها أن سمعت شيئا ما قاله، فقد كانت مهتمة بمراقبة الأمير جابر، غير أنها عادت بعد لحظات نحوه فقالت:

- "أنت قائد الجيش في أرض الغابة؟".

- "أجل...".

وأمعنت النظر فيه بحدة.

- "سيدتي...".

- "حينما يستيقظ سيدك فأخبره بأنني لا أنوي أن أعاديه بعد الآن أبدا...".

.... -

- "ليبقى ما حدث بينه وبين أمير أرض الرمال سابقا طي الماضي، إنني أنا الأميرة مها أميرة أرض الرمال الجديدة، أعلن ولائي للأمير أرض الغابة... ليكن فراقنا الآن على هذا التعاون، لكن ستكون حروب أخرى، وسنلتقى حتما في ذات الجهة حين يحتدم القتال مجددا...".

وتلكأ القائد بسبب الدهشة التي عقدت لسانه ثم قال بعد لحظة:

- "سيدتي، أتووين المغادرة حقا!! سينتهي الأمير بعد لحظة، ولك أن تخبريه بهذا شخصا...".

ولم ترد عليه المرأة، إنما أجالت بصرها في الحاضرين حتى وقعت عينها على خولة فظلت ترمقها لوقت طويل حتى ظن الجميع أنها سوف تكلمها، لكنها استدارت بشكل مفاجئ وعادت نحو جندها وامتطت فرسها ولوت عنقه وغابت برجالها في ظلال الغابة وتبعهم العقرب مثل عاصفة رملية، بعد

دقائق فتح الأمير جابر عينيه والعرق يتصبب من جبينه، أنزل يده بهدوء وهو ينظر إلى التمساح بثبات نافذ، وبعد لحظات تحرك التمساح أمام ناظريه فمزق الحبال وقام واقفا على أطرافه الأربعة وقد توقف جرحه عن النزيف وبدا وكأنه استعاد قواه بالكامل، وتقدم الجنود بسيوفهم لنجدة الأمير في حال قرر التمساح مهاجمته، لكن الأمير ظل ثابتا في مكانه، وسألت خولة القائد ليث عما حدث، فقال الأخير بصوت زاه تعلوه الثقة:

- "لقد نجح...".

قال ذلك وعيناه تلمعان بفخر وفرح، ونقلت خولة بصرها مجددا نحو الأمير وصدرها يخفق بالسعادة، فلقد تحققت لهم خطوة كبيرة، وكل ذلك دون إهدار روح شخص واحد من جانبهم، فلم تكن ثمة جثث على أرض المعركة غير أربعة كانت تعود لرجال الأمير أرون وقد سقطت مباشرة بعد قدوم فيلق الأميرة مها، ذلك أن القتال في البداية شهد تحفظا كبيرا من كلى الجانبين، حاول فيها كل فريق أن يخرج بأقل ضرر ممكن، إنما فقط دماء تطايرت من الجروح وبقايا دروع تحطمت وشظايا سيوف تكسرت.

عاد ضجيج مفاجئ يعلو في سماء السهل حينما أطلق الجنود صيحات فرح تزامنت مع التفات الأمير جابر نحوهم، وعم جو بهيج بعد قتال متعب، وتقدم الأمير نحو رجاله بعد ذلك وقال يخاطبهم في فخر لم يحاول إخفائه:

- "إنما هي خطوة واحدة، خطوناها في سبيل إنقاذ عالمنا من دمار شامل، لكنني أرى في أعينكم لهفة للقتال لا تخفى، وذلك أمر يدفعني لتنفيذ ما أنوي فعله، إنني أقاتل بكم، وعيون كالتّي أراها الآن لا يمكن أن تُهزم، سوف تصطفون في صفوف كهذه مرة أخرى فاجعلوا لسيوفكم بريقا لا يخبو، وإنها إن تكن لهذا الشر أذرع فقط قطعنا اليوم واحدا منها، والسيف الذي يضرب مرة يجب أن يُصقل، فلذلك لا تنصرفوا عن التدريب والقتال من فراغ بينكم، إن العيون الفارغة تنام عند أول الليل، فلندع أيا من يرغب في أذيتنا يلقى مصيرا كالذي لقيه أرون وجنوده، هزيمة، هزيمة يجنونها ولا شيء آخر...".

وهتف الرجال مرة أخرى رافعين سيوفهم وأيديهم نشوة بالنصر الذي تحقق، وعاد بعدها الأمير جابر نحو خاصته فاجتمعوا قريبا من التمساح وقال حينئذ يخاطب القائد:

- "هل أرسلت من يبحث في أمر الرسول يا ليث".

ورد الأخير قائلاً:

- "لقد فعلت يا سيدي، لحظة طلبت مني ذلك..." .

ولم يكذ ليث يقول ذلك حتى كان حصان يخترق الصفوف قادما في عجلة فتوقف عندهم ونزل عنه صاحبه وترجل واعتدل واقفا أمام الأمير جابر: - "سيدي، لقد عثرت على الرسول مقتولا في طريقه إلى أرض الماء على بعد اثنتي عشر ألف قدم من هنا، لكن..." .

- "تحدث..." .

- "لقد تم ذبحه بطريقة بشعة..." .

قال الفارس ذلك باشمئزاز وأسف خافضا بصره إلى الأرض ومنظر القتييل لا يبارح عينه، وتلقى الأمير جابر ذلك الخبر فاضطربت نار في صدره، وراح تفكيره مباشرة إلى ذلك الشبح المتجول، تململت عيناه من تحت القناع للحظات ثم نظر إلى التمساح وقال بصوت يرتج صده أسفا: - "سيتعين علينا أخذه إليها إذن، لا بأس بهذا..." .

ونطق القائد يقول منفعلا:

- "سيدي، لما لا نحفظ به لأرضنا، ففي كل الأحوال هو سيقا تل في صفنا حينما تحين الحرب القادمة..." .

- "لا، لن نفعل هذا... سنأخذه إلى موطنه، ذلك مكانه المناسب، لكن سيكون بمقدوري مراقبة ما يحدث هنالك من خلال عينيها ليث، فما دمت قد دخلت إلى عقله فقد صار بمقدوري التعامل معه مثل الغراب تماما...".

- "هذا رائع...".

- "بذلك أيضا سننظم عدم انقلاب الأميرة هند علينا...".

- "ولكنها حليفتنا، أفتتوقع منها فعل شيء كهذا؟".

- "إن لين النساء في الحكم مثل لينهن في المشاعر، قد تنقلبن لأمر بسيط...".

- "ثم إنك لم تثق في حكمتها يوما.!!"

- "أجل...".

- "حسنا، لقد فهمت...".

- "جيد، والآن باشربالإعداد للرحيل فورا، خذ معك ما تحتاجه من الرجال في مهمتك، سيكون الوحش متعاوننا معك في حال واجهتكم مشكلة ما في طريقكم، حينها سيكون عليك فقط أن تصدر له أمرا وسيعمد من فوره إلى تنفيذه...".

وضرب القائد صدره بقبضته والتفت نحو رجاله يصدر لهم أوامره، وراح يشرع في ترتيب ما يحتاجه لأداء مهمته، أما الأمير جابر فشعر من نظرات خولة نحوه أن لديها ما تود قوله له، ولذلك انتظر حتى تفرق الجميع وخاطبها وهي لا تزال واقفة بقربه:

- "لا أظنك تنتظرين مني إذنا لتبوحى بما تودين قوله .!"

وسكتت خولة هنيهة ثم دنت منه وأخرجت من تحت كم يدها ورقة البردي التي كان قد ناولها إياها قبل انطلاقتها نحو أميرة أرض الرمال وقالت:

- "لقد طلبت مني الأميرة مها أن أعيدها إليك...".

واستغرب الأمير لذلك، ولم يأخذ ورقة البردي من يد خولة، لكنه ضيق فيها نظرتة وقال يريد منها أن تبوح بما حصل:

- "ماذا وقع بينكما؟".

وقالت خولة وهي تنزل يدها:

- "لم تخبرني بما تحتويه الرسالة، لكنها قالت بأنك أشد حاجة إلى الورقة منها وطلبت مني أن أعيدها...".

- "ليست رسالة، بل ورقة من كتاب السحر تحوتى تعويذة شفاء لا يرفضها عاقل...".

ودهشت خولة لحديث الأمير أيما اندهاش فنظرت إلى ورقة البردي

وقالت:

- "ألم تحرق الكتاب في ذلك اليوم؟".

- "بلى، لكن كان بمقدوري أخذ هذه...".

- "وجعلتني أساومها بها؟".

قالت خولة ذلك وقد اتسعت عيناها دهشة لما أدركت أهمية تلك

الورقة.

- "كنت قد أخذتها لنفسى، لكن بعد وقوع كل تلك الأحداث تباعا فكرت

في أنني قد أحتاجها لأمر أكثر أهمية...".

- "أخاطرت بأخذها ثم تقول أنك تركتها لما قد يكون أكثر أهمية من

استعادتك القدرة على النوم؟ إنك تتعذب كل ليلة، أفلا...".

- "كل الآلام يمكن الإعتياد عليها إذا تكررت بما يكفي...".

وحدثته خولة بنظرة عتاب وغضب، لكن الأمير عاد يقول بسرعة:

- "فكيف أقنعتها إذن؟".

- "سأخبرك لكن بشرط، ستضع هذا القناع عن وجهك".

... -

- "لا، بالطبع لن تفعل... حسنا، هل ستجيبني إن سألتك؟".

- "تفضلني...".

- "هذه البدلة السوداء، هذا السواد القاتم، لماذا اتخذت هذا اللون لتلبسه؟".

- "أيزعجك أن تريني هكذا؟".

- "لا، سأجيب أنا عن نفسي، إنك اتخذت هذا اللون وكنت قد قررت أن تصير

سيفا لوالدك، لا تنزعه عنك حتى تأخذ بثأره، كلا كما مصبوغان بالأسود، حتى

السيف في يدك، ظاهره سواد معتم لكن باطنه بياض ناصع مثل قلبك

تماما...".

لم تشعر خولة بما كانت تقوله، لكنها لحظة أن انتهت أصاب خديها

احمرار وهاجمها خجل شديد كالذي اعتادت أن تحس به كلما التقت عيونهما

معا، وجعلت تسب نفسها ولم تتوقف حتى أيقظها صوت الأمير فجأة:

- "خولة...".

رفعت رأسها نحوه.

- "من أخبرك بكل هذا؟".

وكطفلة صغيرة أجابت:

- "لا أحد، هل أنا على حق؟".

- "صحيح ما قلته...".

قال الأمير أكثر من ذلك، لكن خولة لم تسمع غير تلك الكلمات القليلة، فلقد سيطر على فكرها أن تراه يعترف بأشياء بسيطة كهذه، وهي أشياء كان يجد صعوبة بالغة في الاعتراف بها في السابق، إن لنا أصابه، وجعله يتجاوب معها أحيانا بسهولة ودون تعنت، ظل الأمير يخاطبها بينما يتأمل بسمتها الشاردة، ثم رآها تضع سيماء الجد على وجهها:

- "ألم تعجز أنت والأمير أكثر في السابق عن الولوج إلى ذاكرتي ورؤية فيما أفكر، وظننتما بأني جاسوسة مرسله من الساحر؟ لقد ظهر إن لتلك المعضلة حل سهل جدا".

- "أحقا ما تقولينه؟".

- "أجل، فلم يستغرق الأمر بضعة دقائق من الأميرة مها حتى تتأكد من صدق حكايتي وما رويته لها، فلقد تركتني أبوح بما في جعبتي أولا ثم دنت مني بعد ذلك وأمرت أحد رجالها فوقف بيننا وجعلت تضع إحدى يديها على جبينه والأخرى على جبينني وقامت بالتواصل معي...".

وضع الامير يده على ذقن قناعه يفكر:

- "هل جعلت من الرجل وسيطا بين عقليكما ليسهل عليها الانتقال إلى عقلك! عظيم، يا لها من فكرة..."

وقالت خولة مستغربة:

- "ماذا، كأن الأمر لم يفاجئك كثيرا!"

- "بلى، لكنني شعرت بالغباء قليلا، كيف لأمر كهذا أن يفوتني."

- "لكن احذر من أن تفكر في فعلها، فقد أخذت فرصتك، ولن اسمح لك بمحاولة أخرى..."

- "ولم قد أفعل، فليس من سبب يدفعني لذلك..."

وأطلقت خولة زفرة صغيرة لتظهر ارتياحها لحديثه، لكن الأمير رفع يده نحوها فضرب جبينها بأصبعه وقال بنبرة بثت شعورا بالدفع في صدرها:

- "لست بحاجة إلى ذلك، ولن أكون أبدا، ثقتي بك الآن مطلقة، أيتها الآنسة..."

- "أيتها الآنسة؟"

- "لا، بل قصدت يا حبيبتي!!"

ظنت خولة أنها تسمع ذلك الحديث من فم الأمير نفسه، وودت لو تصدقه، لكنها سرعان ما تراجعته، فلم يكن ذلك غير صوت في رأسها، تردد

صدى الأنسة في ذهنها مرة أخرى، ثم حين فتحت عينيها بطريقة أعمق رآته
يبتعد عنها وكان بالفعل قد سار مسافة نحو رجاله، وفي تلك اللحظة طلعت
أمامها رشا تقول فجأة:

- "ما الذي حل بك أيتها العاشقة؟".

وقالت خولة تسترجع بصرها الممتد بعيدا:

- "لماذا تقولين هذا؟".

- "لأنك عاشقة، ووقت الحروب أيضا".

- "لست كذلك، إنني أفكر في أشياء أخرى".

- "كان يتحدث إليك وكنت تبتسمين له دون أن تقولي شيئا، كأنك لم تكوني
تسمعيه!!".

- "حقا أنا فعلت ذلك؟".

- "أجل، فقط قبل لحظة...".

...

- "ماذا، ما بال هذه النظرة؟".

كان فرح عظيم قد ارتسم على ملامح خولة، وكانت تأخذ أنفاسا بطيئة

وهي تسرع بعيدا بخيالها، وعادت تقول بعد لحظة:

- "أتدريين ماذا حدث؟ لقد رأيته، رأيت وجهه مرة أخرى...".
- "وكيف وأين حدث هذا، فلم أراه يغادر ساحة القتال منذ غادرت"!!.
- "إنها أميرة أرض الرمال، لقد جعلتني أعيد بعض المشاهد التي عشتها...".
- "أتقولين أنها استطاعت أن تفعل ما عجز عنه كلّ الأمراء قبلها؟".
- "أجل".
- "لا أصدقك...".
- "ينبغي عليك أن تصدقيني...".
- ...
- "كان قريبا جدا هذه المرة...".
- "فلذلك إذن"!.
- "ماذا؟".
- "لا شيء، في ماذا كنتما تتحدثان إذن؟".
- "هذا...".
- وأخذت رشا الورقة من يد خولة.

- "إنها تعويذة من الكتاب الذي احترق في برج السحرة، طلب مني أن أفاوض الأميرة مها من خلاله، لكنها رفضت أخذه وقدمت لمساعدتنا دون مقابل لما رأَت صدق أمري...".

- "هذا يعني أنها رأَت كثيرا مما عشته في هذا العالم...".

- "أجل، لكن أخبرني الأمير جابر ذات مرة أنه لا يكون بمقدوره التنقل في ذاكرة أحد كما يشاء ويرغب، بل يمكنه فقط رؤية والإطلاع على ما يفكر فيه الشخص في تلك اللحظة، وإذا كان شخص يتعرض للتعذيب والتحقيق فحتمًا سيتذكر أفعاله في تلك اللحظات العصبية، إلا إذا تم تدريبه على تفادي ذلك بشكل جيد...".

قالت رشا:

- "حسنا، لقت أريتها عالمك حتى تتأكد من صدق كلامك، لكن صور الأمير فرضت نفسها ولم تقدرى على إبعادها من مخيلتك!!".

- "إنني لا أقدر علي إبعادها في أي وقت حتى لو حاولت ذلك".

وغالبت شا ضحكتها فطفقت تفرص خد خولة وتقبلها، وجاء بعد ذلك ريح يهب من الغرب حرك خصلات شعرهما وطوح العشب من تحت أقدامهما حتى شعرتا ببرد قارص، وكان الجنود في تلك اللحظات يجهزون

خيولهم للمغادرة حين انفجر وعلى حين غرة صوت كالرعد هز الأرض من
تحت أقدامهم وشق السماء من فوق رؤوسهم، فكأنما الجبل العظيم قد فتح
فمه وتثائب نحوهم بصوت غاشم.

ظلام

في حيرة وقلق شديدين انطلق الأمير جابر على صهوة جواده يسبق الجميع متوجها نحو مصدر الصوت الذي امتد لأطراف الأرض الوسطى، كان صوتا مربعا تدفق صداه من عمق الجبل، كرعذ شق الأرض المخضرة، ومرت الخيول بعده بجانب الصخرة التي تحمل توابع الأمراء تسابق بعضها بينا تحمل جنودا يحملون تساؤلات مرعبة، إنه لم يسبق أن صدر صوت مثل هذا من هذه البقعة من هذا العالم، فلطالما عُرفت الأرض الوسطى بهدوئها المخيف الذي يبدو أنه بدأ يتكشف لتوه.

وصل الجنود تباعا واحدا تلوى الآخر إلى النهر الذي يجري في أرض الصرح فلم يكديسترجع أولهم أنفاسه حتى غاب نفس آخرهم من الدهشة لتي ركبته حال وقوفه بجانب رفاقه أمام مشهد مهيب أسال دما باردا في أوصالهم وبث في قلوبهم هلعاً بالقدر الذي كانوا يخشونه، إن الأرض التي كانت خلف النهر تحمل ركام الصرح لم تعد موجودة، بل هوت في باطن الأرض وظهرت مكانها هوة عظيمة، بقطر خمسين مترا، يصاعد من بعض جوانبها بخار أبيض ساخن راح يتدفق نحو الأعلى، بعد تمحيص حذر، تقدم الأمير جابر نحو حافة

الهوة وجعل يطل بداخلها، لكن لم يكن ثمة غير ظلاً معتم يملأ بطنها، أتت خولة ورشا من خلفه، وقالت رشا وهي تحاول إلقاء نظرة:
- "سيدي.!!"

وقال الأمير والدهشة تملأ نظره:

- "ليس لدي أي فكرة عما وقع هنا، هل استطعت رؤية شيء ما بالداخل؟".
وقالت رشا:

- "لا، يستحيل أن أرى شيئاً... يبدو أن عمقها يزيد عن ألف قدم".

وقالت خولة من خلفهما دون أن تقترب مثلهما من الحافة:

- "يبدو أن الزلزال الذي وقع قد تسبب في انهيار الأرض هنا...".

والتفت كلاهما نحوها بتسائل، فقال الأمير جابر بحيرة:

- "وما هو الزلزال يا خولة؟".

وارتبكت خولة لوهلة وقالت:

- "إنه ما شعرنا به في الأرض الناعمة من تحرك الأرض تحت أقدامنا، يحدث

ذلك بسبب الحمم التي في باطن الأرض، إنها تجعل الجبال تتحرك من

أماكنها...".

وتوقفت خولة عند هذا لما رأت من أمارات عدم الفهم في ناظريهما،
واستتلت قائلة:

-”ربما تمكث إجابة هذا السؤال هنا في الأسفل.“!!

مر من الوقت ساعة، ولم يظهر من الهوة شيء غير الدخان الأسود المتصاعد، ولم يدري الأمير جابر ما يجب فعله، ولذلك طلب من خولة ورشا أن تعودا إلى القصر ريثما يحدث أمر يستدعي قدومهما، على أن تطلبا من القائد ليث أن يتوجه إلى الأرض الوسطى فور عودته من أرض الماء، ذلك أنه سيكون حتما على جهل تام بما وقع في الأرض الوسطى بعد مغادرته، فإذن انطلقت خولة ورشا على صهوتي فرسيهما تعودان نحو القصر على مضض، فلم ترغب أي منها في ترك المكان من أول الأمر إلا لما رأتى شدة في لهجة الأمير حين راح يكرر عليهما طلبه، وقالت رشا لخولة في طريق عودتهما:

- "أعلم فيما تفكرين يا خولة، وأنا مثلك، لكن لا بأس، فسوف نعرف حتما إذا وقع أمر ما، فمعظم الجيش لا يزال في المدينة، وإذا استدعى أمر ما لخروجه فحتما سنكون في الصفوف الأولى...".

اكتفت خولة بما قالته صديقتها، ذلك أنها كانت بدورها تفكر مثلها، أي في أن ظهور تلك الحفرة ومهما كان سببه، لا بد هو مرتبط بوقوع الكارثة المنتظرة.

من شرفة القصر أطلت خولة نحو الجبل العظيم الذي كانت تغيب ملامحه الصلبة وتشحب في المساء البارد الذي راح يجر عباءة الظلام خلفه في سرعة رهيبية، كانت قد وقفت هنالك منذ ساعة تفكر وتتأمل الغيوم المتراكمة فوق الجبل وكانت تبدو وكأن قمامة غريبة وطأتها، أو أنها تستعد للإنفجار على الجبل في أي لحظة وغمره بوابل من قطرات المطر، تلاعبت نسائم الريح بشعرها لوقت طويل جدا، لم يغب الأمير لحظة عن ذهنها، ما الذي يفعله الآن يا ترى؟، أتت رشا من خلفها وقالت فجأة:

- "هل نمت منذ عودتنا؟".

- "لا...".

- "ربما يأتي في أي لحظة، فلست أرى من داع لبقائه هنالك مع كل أولئك الرجال من حوله، كان يكفي أن يترك بعضا منهم للمراقبة ويعود لأخذ قسط من الراحة، لقد خاض قتالا متعبا، وها هو الآن يقف على حافة حفرة لا يعرف عمقها، ولا ما تخفيه من مفاجئات بداخلها...".

- "لا، لن يأتي... لن يأتي ورجاله هنالك لوحدهم، ما عرفته عنه حتى الآن هو أن حدسه لا يخطئ، وإذا كان يشك في أمر الحفرة فلا بد أنه على حق في ذلك، سيظهر أمرها قريبا، وحتى ذلك الحين أظن أنه لن يتحرك من هنالك قيد أنملة...".

نظرت رشا نحو الغيوم فوق رأس الجبل بدورها:

- "الغيوم تسود على غير عاداتها...".

- "ربما ستمطر...".

- "لا أظن ذلك، إنها لا تمطر في هذا الوقت من السنة، صحيح أنها تبقى هنالك دوما، لكنها تمطر فقط في فصل الشتاء ولفترات قصيرة، أما إن حدث وأمطرت في هذا الوقت فسيكون أمرا رائعا".

- "أظن أن القائد قد عاد...".

والقت رشا ببصرها نحو بوابة القصر فكان ثمة فرسان يعبرونها في تتابع
 فعرفتهم في الظلام فقالت:
 - "فعلا، سأنزل الآن لإخباره..." .

وراقبتها خولة من فوق الشرفة وهي تنزل الأدراج نحو الفرسان حيث
 وقفت أمامهم وتحديث إليهم للحظات فقط وإذ بهم يلتفون من فورهم
 ويهرعون نحو مخرج المدينة دون إبطاء يذكر، ذلك وحينما عادت رشا لتقف
 بجانب خولة فقد قالت وعلى شفيتها ابتسامة:

- "محظوظ هو الأمير بصديق مثل هذا، لو رأيت كيف لمعت عيناه خوفا على
 سيده، إنه لم يسأل سؤالا واحدا، ولا أراد التأكيد، ورغم كل التعب الذي يحيط
 جسده بعد القتال والمسير الذي خاضه إلا أنه عاد أدراجه كأنما ليس به ضنك
 يذكر..." .

- "لم أعتدك تذكيرينه بخير قبل هذا..." .

قالت خولة ذلك بشيء من الخبث اللطيف لكي تمازح صديقتها، لكنها
 تفاجأت بأن رشا لم تشأ إخفاء شعورها، بل زادت من تبسمها فكأنما مرت من
 أمامها صور جميلة.
 - "هل بدأت تحبينه؟" .

- "لا أدري...".

- "أظن أنه لا بأس أن نعيش أشياء جميلة في وقت كهذا...".

- "فلماذا ترفضين الأمر أنت".

- "لا أرفضه...".

- "تبقينه في صدرك، مثلما يبقيه هو الآخر".

- "لم يحن الوقت لذلك، إن كان سيحين أصلاً...".

- "ولم تقولين هذا؟".

والتفتت إليها خولة بعين تترقق:

- "ألن أعود إلى وطني؟".

...

- "على كل، أظن أن الأميرة مها...".

- "ما بها؟".

- "بما أنها رفضت تلك الهدية الثمينة التي أرسلها الأمير لها وقدمت

لمساعدته بلا مقابل بعد أن كانت تنوي الوقوف ضده فلا شك أنها وقعت

في حبه هي الأخرى فور أن رآته من خلال ذاكرتي...".

...

- "ألن تقولي شيئاً؟".

ولم تستطع رشا النظر في وجه صديقتها حين قالت:

- "في الواقع ذلك ما حدث فعلاً...".

صمت رهيب ساد بينهما لدقائق، وحينما انفلتت الغصة من حلق خولة

فإنها قالت بمرارة:

- "لا بأس، أو من بشكل ما أن أشياء جميلة ستحدث في النهاية...".

- "وأنا أيضاً...".

لحظة أن غادرت الفتاتان الشرفة نعق غراب صغير نعقتين حادثين

ورفرف بجناحيه ليحط على سقف القصر للحظات ظل خلالها ينقل عينيه

الثاقتين في أرجاء المدينة، ثم إذ به يطير فجأة نحو السماء ليكمل مراقبته.

مع شروق شمس اليوم التالي توجهت خولة صوب كوخ العجوز المداوية

لتتفقد حالها، وحين اقتربها من الكوخ شاهدت دخانا ينبعث من مدخنته

الصغيرة ثم رأت العجوز تخرج من الباب تتركز على عصاها بينما تحمل في

يدها طست ماء ومشطا وتوجهت بهما ناحية الزريبة، نادى خولة بصوت

مرتفع لكن العجوز لم تسمعها، وتبعتها بهدوء حتى وقفت خلفها، لكن

العجوز فاجأتها إذ بادرتها بالحديث قائلة بعد ذلك:

- "هل أعدتم ذلك الكائن إلى مالكته؟".

قالت خولة:

- "لقد فعلنا...".

- "جيد... قرار صائب، لكن أين هو ذلك الغراب العنيد الغاضب، لماذا لم يأتي معك...".

- "في الواقع...".

- "وجد لنفسه مغامرة أخرى، أجل... وهذا ما ظننته أيضا، لن يأتي اليوم أو غدا، أو بعد غد...".

- "هنالك أمر علي إخبارك به، لقد ظهرت حفرة عميقة في الارض الوسطى، في مكان الصرح تماما".

وتبيست يدا العجوز على ظهر عنزتها، للحظات ثم عادت تجر المشط

يمنة ويسرة:

- "حقا!!"

- "عمقها السحيق لا يظهر، هو الآن يراقبها رفقة رجاله، يعتقد أنها من فعل أولئك القوم اللذين يسكنون باطن الأرض".

- "فقد حان الوقت إذن!!"

واستغربت خولة من رد العجوز والذي بدا خاليا تماما من أي استغراب من الخبر على كبر غرابته.
 - "أليس هذا أمر يدعو للقلق؟"
 - "بلى...".

قالت العجوز ذلك وأسالت حفنة ماء على عنق العنزة:
 - "وأنت كيف حالك يا ابنتي، أمن خبر عن والدك؟"
 - "كان يفترض بي أن أسألك عن هذا أولا، لكنك بادرتني بسؤالك، وأنت التي تبقين وحيدة طوال الوقت هنا.!!"
 - "لست أبقى لوحدي، فلا زال مرضاي يترددون علي من وقت لآخر...".
 بعد بعض الوقت أجهشت العجوز بالسعال حتى كادت تنطح ظهر العنزة برأسها، وحينما استردت نفسها قالت وهي تناول خولة يدها المرتجفة:
 - "هات يدك يا ابنتي...".

ولما انتصبت واقفة على قدميها راحت تُبدل بين أقدامها الثلاثة على الممر الترابي بصعوبة.
 - "سوف تتغدين معي قبل أن تذهبي...".
 - "في الواقع ما كنت أرضى بالذهاب قبل أن أتغدا معك...".

- "أتريدين إعداد الطعام بنفسك؟".

وقالت خولة بضحكة جميلة:

- "أنا لن أتردد لحظة واحدة في تناول ما أطبخه، لكنني أخاف عليك، لا أريد تركك جائعة وأنا الضيفة هنا...".

وردت العجوز وهي تلهث مع كل خطوة:

- "وأنا لن أتردد لحظة واحدة...".

- "حسنا، لنرى مقدار ما تعلمته منك...".

- "سيكون كافيا، سيكون كافيا...".

بعد ساعة عادت العجوز من حقلها الصغير وكانت قد خرجت إليه لأحضار نوع من الأعشاب يوضع فوق الطعام بعد تجهيزه فوجدت خولة قد نامت على سريرها فتمثلت أمام عينيها صورتها لما أوتي بها إليها أول مرة وكانت فتاة جريحة وضعيفة قد جففت رطوبة السجن جلدها ونهشت جمالها وكانت عيناها لا تغادرهما الدموع سواءً كانت نائمة أو مستيقظة، لقد كانت أوقاتا عصبية على كليهما، والآن مر كل ذلك كالحلم الكئيب أمام بصرها

الضعيف فترقرقت عيناها حتى دمعتا فمسحتهما بكف مرتش وذهبت تتفقد
الغداء بعد ذلك.

نزول

في المساء عادت خولة من زيارتها للعجوز وكان الملل والقلق يخنقانها فعادت للنوم مرة أخرى ولم تفتح عينيها إلا لما حلّ الظلام بالكامل، وحينها خرجت إلى الشرفة كعادتها وبملاصح متعبة نعسة، فإنّها ألقت بصرها صوب الأرض الوسطى فكانت تغرق في بحر لحي من الظلام لا يرى آخره، وهاجت في رأسها أفكار بشأن ما يمكن أن يحصل، وتذكرت والدها فجأة فاغرورقت عيناها بالدمع شوقاً لرؤيته، تنهدت كما لم يسبق لها ثم عادت فارتمت على السرير وحاولت أن تنام للمرة الثالثة لعلّ الليل يسرع فينجلي سريعاً.

صباح اليوم التالي، راحت خولة تنزل الأدراج مسرعة وهي تحمل القوس في يدها فالتقت عيناها بعيني رشا التي كانت تقف أسفل السلم فغلبتهما الابتسامة، قالت خولة:

- "لقد بحثت عنك في غرفتك فلم أجذك.!"

- "استيقظت باكراً، ولم أكن لأغادر من دونك...".

واتضح أن كلاهما باتت تفكر في الأمر ذاته، ألا وهو العودة إلى الأرض الوسطى مهما كانت عواقب عصيان الأوامر، انطلقت الاثنتان على فرسيهما

في سرعة تقطعان أزقة المدينة حتى انتهتا إلى الأسوار الخارجية وكان يتعقبهما غراب من أعلى لم تنتبها لوجوده، ومضى الوقت بطيئاً رغماً سرعتهما حتى شعرتا أنهما تتأخران عن أمر ما لا يجوز تفويته.

بمجرد وصولهما لاحظتا أنّ الفيلق قد قام واقفاً وتجهز، فتركتا حصانيهما وراحتا تخترقان الصفوف حتى وقفتا أمام الحفرة فكان الأمير جابر واقفاً عندها ينظر بداخلها في شرود بالغ، وخرج القائد من مكان ما من بين الصفوف واقترب منهم قائلاً بدهشة:

- "ما الذي أتى بكما، ألم يأمركما الأمير بالبقاء في المدينة؟".

لكن صوت الأمير وهو يطالع ظلام الحفرة قد أتى ليسكته بقوله:

- "هل انتهيت من إعداد نفسك يا ليث".

وقال القائد ناظراً إلى رشا نظرت ذات معنى:

- "با الفعل يا سيدي... لقد جهزت حبالاً قوية جداً".

والتفت الأمير نحوه:

- "الحبال!! ولم الحبال يا ليث".

وارتبك القائد ونظر إلى يديه المثقلتين بحزمة حبال ملتفة:

- "سيدي... ألم نكن سننزل بداخل الحفرة.!!"

قال ونظر في عيني سيده فرآه يطالعه بحدة دون أن يقول شيئاً.
 - "حسناً، لقد فهمت... فإذن سوف أستعمل الحبال لمعاقبة هاتين الفتاتين
 بعدما خالفتا أوامرك" ثم إنّه التفت بكامل جسده نحو رشا: هات يديك أولاً،
 سوف أقوم بتقييدك الآن يا آنسة...".

وهم القائد بتنفيذ فكرته لكن الأمير قال له:

- "لا أذكر انني طلبت منك أن تحضر الحبال يا ليث".

- "ألن ننزل؟".

- "بلى...".

- "بدون الحبال إذن، ليكن... والفتاتان، ألا نربطهما إلى الشجرة؟".

- "لا يا ليث، لن نربطهما إلى الشجرة، بل ستنزلان معنا...".

وتبيس القائد واقفاً وقد شعر بالخجل يقرص أطرافه، وبينما عاد الأمير
 ببصره نحو الحفرة، إذ ب رشا قد أخذها الضحك فلم تعمد إلى إيقافه بل
 أسرفت فيه حتى سُمع صوتها، وتبسمت خولة للأمر وهي تراقب الأمير وقد
 أعجبها ما سمته منه قبل لحظة.

بعد لحظات أتت سحابة من الغربان وحلقت فوق الحفرة، لم تكن جلها، بلى أتى نصفها فقط فيما بقي النصف الآخر فوق أسورا المدينة لحراستها، وبيننا وقف الأربعة على خط واحد عند الحافة، فإنّ الغربان نزلت نحوهم مثل بساط سحري أسود حتى صارت تحت أقدامهم، ونزلوا واحدا تلو الآخر على أظهرها، فراحت تغرق بهم في عمق الحفرة، وراقب الجنود المرابطون قادتهم وهم يختفون تحت الأرض رويدا حتى ابتلعتهم الظلمة بالكامل.

قال القائد ليث بصوت يحفه القلق بينا يتحسس غمد سيفه:

- "هل متنا؟".

وبعدما نزلوا بضعة أمتار ولم يكن أحد قد تفوه بشيء بعده فإنه عاد يقول محدثا نفسه:

- "لا أظن... لا، ليس بعد، إنني أشم رائحة دخان تأتي من الأسفل، لا يزال قعر الجحيم بعيدا...".

وقالت رشا في هذه اللحظة:

- "هل أخبرك بطريقة أفضل تتأكد من خلالها بأنك لم تمت؟".

- "لا، شكرا...".

- "حسنا، لأنه لا توجد، ربما تكون هذه هي المرة التي أوافقك فيها في أمر تقوله...".

في موضع آخر كانت خولة لتنفلت ضاحكة من جدالهما، لكن الآن وهم يغرقون بهدوء في بطن حفرة مجهولة العمق فإن كل فكرها كان منصبا في الوضع الصعب الذي هم فيه، إذ أن درجة الحرارة بدأت ترتفع أكثر وأكثر تزامنا مع نزولهم، وزادت حدتها وصار تنفسهم ثقيلًا لحظة أن تبدى لهم قبس من نور يلمع من مبعدة وسط الظلام الدامس.

بعد ما يقارب الدقيقتين على نزولهم بدأ الظلام بالتشتت أخيرا وانبجست أضواء كثيرة في الأسفل وأبانت أخيرا عن صرح حلزوني يمتد صاعدا نحوهم ومنبتقا من أرض صخرية مشتعلة، وقالت رشا حينئذ تشير بيدها إلى موضع في الأرض بدا مناسبا لنزولهم:

- "هنالك... حيث سقط الركاب، يمكننا أن نزل هناك يا سيدي...".

ومال بهم البساط الأسود نحو قاعدة الصرح أين كان يسقط بجانبه ركام عظيم من صخور وأتربة وأعشاب هوت من أعلى، ونزلوا من على أجساد الغريبان فراحت تعود من حيث أتت، نظروا بعدها إلى الصرح فكان شامخا

مبنيًا من الصخور المذابة تتخلله مجموعات من السلالم بنيت بشكل عشوائي وغير مرتب، ونطقت رشا تقول مرة أخرى:

- "هل بني من الحمم؟".

ورد الأمير جابر:

- "هذا ما يبدو... وبهذه الطريقة ظلوا يحفرون الأرض حتى ضعفت قشرتها وهوت من تلقاء نفسها".

- "هل تعني أنهم لا يعرفون بما وقع هنا يا سيدي؟".

- "هذا ما يبدو، وإلا لم نكن لنجد المكان خاليا هكذا، من المؤكد أنهم لم يأتوا إلى هنا منذ فترة طويلة...".

- "فإذن حالفنا الحظ كثيرا...".

- "ربما...".

قال القائد ليث:

- "كنت قد فكرت في أن أخلق جدالا بشأن الكيفية التي ارتفع بها هذا الشيء العظيم الملتوي والذي تم بنائه بطريقة غير مهذبة، لكنني بت الآن أشم شيئا... شيئا يدعوني للقلق، أظنها رائحة حرق منفرة...".

وقالت خولة تجيبه وهي تداري ضحكتها:

- "سيتوقف الحريق عن التهام قدمك لو أبعدتها نحو اليمين قليلا أيها القائد، إنك تدوس على جمرات صغيرة..." .

وحينها نظر ليث إلى الأرض فرأى دخانا يخرج من تحت حذائه، فأبعد قدمه وشد قبضتيه حتى يخنق الألم الذي سعد نحو رأسه، وتمتم ببضع كلمات وراح يسير في خطوات سريعة، ونظرت خولة ورشا نحو بعضهما فضحكتا بصمت حتى لا تحرجاه أكثر، ومشتا بعد ذلك تتبعانه هو والأمير جابر.

بعد مسافة قطعوها وكلما ابتعدوا أكثر عن مكان الركاب كلما أظلم المكان من حولهم وصار تنفسهم أصعب بسبب ثقل الهواء واحتوائه على روائح الدخان الخانقة، كما أن أنهار الحمم من حولهم كانت تبعث حرارة تلفح وجوههم، كانت كل الجهات مظلمة، ولا يظهر لهم من تضاريس المكان سوى ما يلمع تحت أضواء النار البعيدة وما تنيره الحمم، ساروا في تتابع مضني لقراءة الساعة، وحين اقتربوا من الضوء الذي رأوه من أعلى فإنه بدا كموجة صفراء واسعة، وكان أمامهم مرتفع شاق يمتد صعودا، ذكر القائد ليث بضع كلمات بشأن ذلك، ثم مسح العرق المتصبب من جبينه بكم ذراعه وسار في الخلف وهو يلهث مع كل خطوة.

في أعلى المرتفع، وبعد قرابة العشرين دقيقة، وقف الأمير ليث مندهشا
وفزعا كما لم يفزع منذ مدة طويلة، وقف وعيناه تنظران باتساع إلى مدينة
عظيمة تظهر أسوارها مشتعلة.

لم تكن تبدو منها تفاصيل كثيرة بسبب النار المشتعلة فوق أسوارها،
إنها تفوق مدينة أرض الغابة بمرتين ونصف المرة، ولها هيبة بمائة ضعف أو
أكثر، سمائها من دخان ويحدها جدار من الظلام لا يرى أعلاه أو يمينه أو
يساره، إنها بدت فقط كجزيرة تحترق وسط بحر من الظلام الدامس، فإذن
وصل الثلاثة الآخرون بشق الأنفس فوقفوا تباعا على يمين الأمير وقد شُدت
أبصارهم وخفت قلوبهم رعبا لما يرونه.

- "نكون أول أناس يسيرون بأقدامهم إلى الجحيم إن نحن خطونا من هنا
خطوة أخرى." !!

كذلك تحدث القائد ليث وقد بقي فمه مشدوها.

وقال الأمير حينئذ:

- "أيا ما كان هذا، فنحن إنما أتينا لأجله...".

وقالت رشا:

- "أيعقل حقا أن هنالك بشرا يعيشون هنا؟".

لم تعلق خولة على المشهد بل كانت وهي تسرق أنفاسها من الهواء المسموم بصعوبة لا تفكر سوى في صورة والدها المكلم وكيف قد يكون حاله الآن لو تحققت فكرة وجوده في ذلك الجحيم القابع أمام ناظريها، مرة أخرى وبغير شعور منها، اغرورقت عيناها بالدمع ولما حاولت مسحه رأت الأمير يطالعها بنظرة جانبية، شعرت بحرج شديد وتمنت لو أنه لم يرها، فلقد فهمت من نظرتة إليها إنه إنما قد تذكر وعده لها في تلك اللحظة، والواقع ولو أنها كانت تدري بالحقيقة فإذن لما لامت نفسها، لأن فكرة إنقاذ والدها لم تبرح عقله لحظة واحدة منذ أخذها على عاتقه، تحرك الأمير هابطا المنحدر وتبعه الآخرون بعد ذلك، وساروا في خط واحد حيث كان الطريق محاطا بعدد قليل من تلك الخيوط النارية، بعد عشرين دقيقة لمحت رشا شيئاً أمامهم فصاحت قائلة:

- "يوجد شيء ما في الأمام مباشرة، أعتقد أنها جثة معلقة..." .

وقال الأمير جابر:

- "تفقدني المكان من حولنا أيضاً، لقد اقتربنا من المدينة بما يكفي لتلمحنا

الآعين، قد تكون هنالك دوريات تتجول في أماكن قريبة..." .

وعلى ذلك واصلوا سيرهم بحذر، خولة بشروود عظيم وحزن خانق، والقائد
 بخوف يحاول إخفائه، والأمير بلا مبالاة واثقا من نفسه ومعتمدا على نظرات
 رشا الثاقبة، قادتهم الطرق المتعرجة إلى نهر من الحمم كان يقطع الأرض
 الصخرية عرضا ويخفيه الظلام البعيد بحيث لا يرى أوله أو آخره.
 مجددا شد أبصارهم هول المشهد، وكانوا قد توقفوا هذه المرة عند جثة
 رجل تقف معلقة على وتد أمام جسر مبني بصخور سوداء يقطع نهر الحمم
 إلى الجهة الأخرى.

القرين

كان الجسد المعلق ملفوفا في أسمال طويلة رثة، ذراعاها تتدليان للأسفل ورأسه مغطى بقلنسوة، رغم ذلك فإن ثيابه بدت مألوفة لهم جميعا، استغروا وقتا قصيرا في تأمله، ثم التفتوا إلى ما وراء النهر الأحمر فكانت صخور كالجبال الصغيرة تحتظن واديا بينها فيغور فيها كالطريق فقال القائد حينئذ: -” يبدو أن كل شيء مصنوع من الصخور هنا، حتى هذا الود تم صنعه من الحمم، يبدو أنهم يلعبون بها ويشكلونها مثلما يشكل أطفالنا بالطين بيوتا صغيرة.“!!

وصمت الجميع حائرين أمام حديثه، فلقد بدت ملاحظته حقيقية ومخيفة بشكل بالغ، فإن كان هذا ليدل على شيء فإنما يدل على قوة هاؤلاء القوم وجبروتهم، أضاف القائد يقول عد ذلك:

-” يبدو أن المدينة تقبع خلف هذه الصخور تماما، علينا فقط أن نقطع هذا الجسر ونسير بين تلك الجبال المخيفة...“.

-” هل رأى أحدهم ذلك؟“.

والتفت الجميع نحو خولة في تلك اللحظة وكان في صوتها مثل الذي في جهها من هلع وقد نصبت عينها وهي تشير بيدها إلى موضع ما خلفهم، وتلفتوا نحو الجسد المصلوب الميت، لم تخلق فيه روح أليس كذلك؟، سأل القائد نفسه، لكنّه وما كاد ينهي كلامه حتى تحركت تلك الذراع الميتة فجأة، ثم هوى الجسد بكامله على الأرض حتى أحدث صوت ارتطامه بها قرعا مخيفا، اقترب الأمير جابر من الجسد فيما لم يحرك الآخرون ساكنا لفرط الخوف الذي تملكهم.

تأمل الأمير الجسد من مقربة، ولما حاول تقلبيه تحرك من تلقاء نفسه وقام واقفا بحركات مخيفة تشبه حركات دميمة مصنوعة من أعواد القصب، لقد وقف الجسد أمام الأمير منتصبا فلمح الأمير وجهه بوضوح أكثر فتأكدت شكوكه في تلك اللحظة، وابتعد عنه بضع خطوات إلى الخلف لأنه رأى في عينيه شيئا غريبا، فلقد كانت مغلقتين بالكامل، وكان فمه التنتن يصدر فحيحا يثير القشعريرة، بعد لحظة نزل الجسد بيده نحو الأرض فحمل قطعة حجر صغيرة حادة وتوجه بها نحو صخرة قريبة فانحنى نحوها وجعل يجرحها بذلك الحجر.

وعندما اقترب منه الأمير ليتفقد أمره وجده وقد نقش كلاما على الصخرة:

“... أنا ساخوت قرين الساحر ساري مهمتي هي الإجابة على أسئلة الأمير القادم من الغابة الخضراء... سمح لي الساحر باستخدام جسده لوقت محدد فقط، عندما تنتهي مهمتي سيعود هذا الجسد إلى الموت مرة أخرى...”

اقترب الثلاثة بعد أن تغلب فضولهم على خوفهم فوقفوا بجانب الأمير يتأملون الكتابة غير أنها استعصت عليهم لأنها كانت بلغة غير مفهومة تشبه تلك التي رأتها خولة في كهف التعميد مكتوبة باللون الأبيض، ولذلك أعاد الأمير جابر قرائتها عليهم حتى يفهموا ما يحدث، وقال القائد بعد ذلك والدهشة تملأ فمه:

- ”ظننا أنه قد رحل بغير رجعة لكنه جاء حتى هنا، ألا يموت هذا الشيء أبدا؟” .

وقالت رشا تعقب على كلامه:

- ”أين كانت أذناك قبل لحظة؟ لقد قال بأنه مات فعلا...” .

- ”حقا!!..” أضاف القائد ذلك وتنهد ليزيح نصف الخوف الذي كان في حلقه

ثم أردف: ”حسنا، الآن كيف سنخاطبه، هل سنكتب له ونبادله الرسائل؟” .

في تلك اللحظة نطق الأمير جابر يخاطب جسد الساحر ساري:

- "هل ستجيب عن كل سؤال أطرحه عليك بغض النظر عن طبيعته؟".
وبقي جسد الساحر ساكنا، حتى إذا مرت لحظات عاد الأمير يقول بعدها:
- "كيف مات الساحر، وما الذي أتى به إلى هنا؟".
وهنا تحركت تلك الذراع مجددا فراحت تدون على الحجر ما نصه:
- "للساحر ساري علاقة قديمة مع الملك، كان خادما له ثم ارتد عن طاعته،
جاء الساحر إلى هنا ليسرق شيئا لكن أمره اكتُشف وتم قتله بواسطة سحر
أقوى...".

قالت رشا بقلق:

- "إن كان ما قاله صحيحا فهذا أمر خطير يا سيدي، أيمن حقا أن يكون
هنالك شخص آخر لا زال يستخدم السحر غير الساحر ساري؟ ألا يفترض أن
السحرة قد تم قتلهم جميعا قبل زمن بعيد جدا؟".

وقال الأمير جابر:

- "لحظة...".

وراح يترجم أسطرا أخرى كان القرين قد أخذ ينقشها على الحجر فجأة من

تلقاء نفسه:

- "ربما يرغب الأمير الطيب في معرفة سر تكوين هذا العالم، لقد سمح الساحر ساري بإخباره بذلك... ساري كان يعرف بأن الأمير القادم من أرض الشجر سينزل إلى هنا، لظالما عرف أسراراً كثيرة، كان يعرف أنه سيموت على يد الحاكم، لقد أراد لقاءك... الآن يمكن للأمير أن يعرف أسرار هذا العالم...".

ولبث الأمير جابر صامتا لوضع لحظات في حيرة شديدة ثم قال بعد ذلك:

- "ما الذي تعرفه عن تكوين هذا العالم؟ وهل هنالك ساحر آخر كان يعيش بيننا غير سيدك؟ أم أن الحاكم هو ذلك الساحر؟".

ونظر إليه الثلاثة بعجب وانتظروا بكثير من الذهول إجابة القرين على الصخرة، والذي بدوره كان قد راح يكتب:

- "أصاب الأمير في ما قاله، إن الحاكم هو ساحر آخر، بالعودة إلى بداية تكوين هذا العالم فقد كان صديق الساحر نجيد الذي صنع هذا العالم، أو كما تسمونه بالساحر الأول... عاشا معا لفترة طويلة، لقد تعلموا السحر سويا وبرعا فيه حتى فاقتا الآخرين بمراحل... حينما كان السحر يغطي هذه الأراضي بالكامل، كان الموت يهيم في الهواء كالنحيب الذي لا يتوقف، لا يمر يوم إلا ومات بعض الناس من تعاويذ السحرة، فالصراعات بينهم تقام كل وقت ويصل مداها إلى الناس في القرى القريبة... لكن رغما صداقتهما إلا أن

أحدهما كان يحمل ضوءاً في صدره فيما كان الآخر يحمل دخاناً أسود، لكن لم يكن أحدهما عالماً بنوايا الآخر، فأحدهما تعلم السحر حالماً بإنهاءه، لكن الآخر ظل يخطط لرفع قوته من أجل حُكم الأراضي بقبضة من حديد لا ينازعه فيها أحد... ساري كان الشخص الطيب في هذه القصة...".

- "بالنسبة للساحر نجيد، هل تعرف سبب موته؟".

- "لقد قتله تلميذه...".

تعجب الأمير جابر مما كتبه القرين فلم يقرأه بصوت مرتفع، ولما سأله القائد عن ذلك أجابه قائلاً بينا يلعب ويمض غضب في عينه:

- "لا شيء أمقته مثل الكذب، وهذا الميت الملعون كان يكذب، لطالما كان كاذباً، من الجيد أنه فقد روحه...".

وكتب القرين في تلك اللحظة:

- "لم يمت حاملاً معه أشياء سيئة فقط، لقد كان تابعا للحاكم لسنوات طويلة، أغراه الحاكم رماح بمشاركته في حكم العالم الآخر، لم يكن يعلم، كان يجدر به معرفة ذلك... الملك لا يشارك أشياءه، بمقدوره خداع الآخرين بسهولة، أو إرهابهم، في كلتي الحالتين يصبحون خدماً عنده... من يصبحون خدماً عند الملك لا يمكنهم التراجع بعد ذلك، يمكنهم أن يموتوا فقط... بعد

سنوات من الخدمة قرر ساري أن يتراجع عن طاعة الحاكم... ولم يحب الحاكم ذلك، كان اتفاهما أن يساعده في فتح البوابة العظمى، لكن ساري رأى شيئاً ما، وقرر أنه لن يمطي في ذلك العمل... الأمير شهاب أيضاً كان خادما مخلصا بدوره، ولا يزال كذلك، كلاهما كان خادما، لكن لم يعرف أحدهما بأمر الآخر، كلاهما تلقى الوعود نفسها، كان من السهل على ساري أن يكتشف أمر شهاب بعد فترة قصيرة، وحينها شعر بالخطر على مكانته، كما أنه كان قد رأى شيئاً أفرعه خلال زيارته لذلك العالم...".

وقالت خولة باندهاش بالغ:

- "هل زار عالمي؟".

وواصل الأمير جابر القراءة بصوت مرتفع:

- "لقد عرف الحقيقة، لكن حينها كان الوقت قد تأخر... كان الموت قد انتشر في الأراضي وعم القرى والقبائل الضعيفة، كل قبيلة ضعيفة كانت مستهدفة، لقد أطلق أمير أرض الرياح سلاحه ليجوب الأراضي ويعيث فيها، خلال تلك الفترة لم يتمكن أحد من إيقافه، ذلك ما يحدث إن قتلت رجلا قويا من سلالة الأمراء وعدت تبعث فيه الحركة من خلال قرينه...".

- "نفس الأمر الذي فعله الساحر ساري معك؟".

- "ذلك صحيح أيها الأمير الطيب، لقد قتل أمير أرض الرياح شقيقه ثم بعث في جسده الحركة ليجعل منه سلاحا يحقق به غاية سيده الحاكم، لم تكن البوابة العظمى لتُفتح في مثل هذا الوقت القريب أبدا، لكن ذلك المتجول سرق الكثير من وقتها...".

- "هل كان ساري صادقا في أمر إيقاف المتجول؟".

- "كان صادقا بالقدر الذي يكفي، لقد سعى لتدمير كتاب السحري لا يتركه خلفه فيقع في الأيدي الخاطئة، لأن ذلك ربما كان من شأنه أن يقلب الموازين في العالم الخارجي".

قال الأمير جابر بعد صمت فكره من خلاله:

- "أوليس قويا كفاية لينقذ نفسه، لم قد يأتي بنفسه ليركع أمام الحاكم؟".

- "لطاما كان الحاكم هو ثاني أقوى ساحر سار بقدميه على هذه الأرض يوما، رغم أنني لست متأكدا من مدى قوته الآن لأن ذلك كان قبل زمن طويل جدا، ربما يُعرف السحرة الكبار بطول عمرهم، لكن ذلك لا يجعلهم خالدين أبدا، فيأتي عليهم وقت ويشيخون مثل جميع البشر، لكن إذا أردت إجابة لسؤالك ف ساري لم تكن لديه فرصة، يكفي للخادم أن يردد كلاما للحاكم يظنه تعمييدا حتى يقع في الفخ الذي لا يكون له بعد ذلك مخرج منه أبدا... إن الأمير

شهاب والساحر ساري قد قرآى تعويذة أسمعهما إياها الحاكم فوقعا تحت تأثيرها، أي أنه في تلك اللحظة صار بمقدوره استدعائهما في أي وقت يشاءه، ولا يكون في مقدورهما حينئذ رفض أمره...".

- "فإذن كان ساري محقا في شعوره بأن الملك كان يفضل الأمير شهاب عليه ولذلك شرع في محاولته لإنقاذ ما يمكن إنقاذه.!!"

- "فعلا، وما سعيه لتحطيم الصرح وتدمير الكتاب إلا دليل على ذلك...".
 - "ألم يكن بمقدوره فعل ذلك بنفسه، فلم قرر تنظيم تلك المنافسة، ماذا كان ليحدث لو نجح الأمير شهاب في الوصول إلى الكتاب بدلا مني، ألم يكن سيهديه إلى سيده فتعظم المشكلة؟".

- "إنك بالفعل حكيم أيها الأمير الطيب، وربما كان هذا هو السبب من وراء تنظيمه لتلك المنافسة، فهو لم يكن على دراية بأي الأمراء أصلح، وأيهم أخبت، إن الساحر الأكبر نجيد لطالما كان يفكر وهو ينظر إلى أبعد جبل، ولذلك ترك ختما قويا على الصرح لا يمكن المساس به إلى من قبل رجل مثلك، لا يكون في صدره شر دفين يتوق للظهور في أول فرصة، حتى تلميذه لم يأت منه على الكتاب العظيم الذي تركه، كان الختم شاملا مانعا له أيضا، لكنه ترك له طريقة فتحه، رغما أنها لم تكن لتناسبه لو كان شخصا شريرا،

وربما ذلك أحد الأسباب التي دفعت ساري ليغضب من معلمه ويقوم بقتله، لقد شعر بأنه لم يكن يثق به ثقة مطلقة، وقد كان كلاهما محقا في أمره..” .
 -”لكن إذا كان الكتاب يحمل كل هذا الخطر بداخله، لم جمعه الساحر الأكبر وقام بالاحتفاظ به؟” .

-”تعرف أن بعض التعاويذ عندما تُقرأ من أوراقها الأصلية فإن تأثيرها يكون أقوى مما دون ذلك، لقد جمع الساحر نجيد أقوى التعاويذ في ذلك الكتاب لأنه كان يتوقع ظهور صديقه مرة أخرى، كان يعرف أن بطن الأرض لن تحتمله إلى الأبد، فجهز لنفسه ذلك السلاح ترقبا لمواجهة، غير أن خنجر الخيانة طعنه في ظهره... ولحظة موته عرف تلميذه كيف يكون بمقدوره التسلل إلى العالم الآخر عبر تلك اللؤلؤة، لقد عثر عليها بعد زمن طويل وقام باستعمالها لمرة واحدة، لأنه عندما عاد من ذلك العالم شعر بحجم الخطأ الذي ارتكبه، لكن حينها كان الوقت قد تأخر، فا الكثير من البوابات الصغيرة كان يتم فتحها بين يوم وآخر، وحينما حاول تدارك الأمر أتاه النداء من الحاكم، أي أنه قد كذب عليكم بشأن مرضه، لكنه شعر بالنداء وبدنو أجله، كل ذلك التمثيل كان بغية إخفاء الحقيقة قبل أن يحين موعد ظهورها، كما أنه كان يخطط للعب ورقته الأخيرة، فأتثناء لقائه الأخير مع الحاكم حاول قتله، ولم يأتي

بنتيجة غير أنه عرف الطريقة لفعل ذلك... الآن بالعودة إلى الوراء، إلى ما قبل صنع هذا العالم، حينما كانت الفوضى تعم الأراضي، وكان الساحران العظيمان قد ثارا على بعضهما وأعلن كل منهما الحرب على الآخر، انقسمت الشعوب إلى ثلاثة أقسام، منهم من ساند الساحر ساري ومنهم من أراد سفك الدماء فاختار جانب الساحر رماح وأما الضعفاء من القوم فمكثوا ينتظرون مصيرهم بين أحجار الرحي، ورغم أن الجيوش التقت بسيفها غير أن معركة أخرى كانت تقام في الوسط، كانت معركة سحر تطايرت فيها أوراق التعاويذ من كل جهة، كل ساحر يضم اتباعه من السحرة إلى جانبه، كانوا يتقاذفون شُهبا وبرقا بينهم، استمر القتال لأيام طويلة، كلٌ يرمي أوراقه ويدفع بجنده، لكن ولأن نجيد كان أذكى وأكثر دهاء ولم يكن الشريعمي عينيه فقد توصل إلى صنع تعويذة قوية جدا كاد ينهي بها حياة غريمه... كان ذلك في آخر أيام المعركة، بعد طلوع الشمس مباشرة أرسل نجيد غرابا إلى خيمة عدوه ليقتلع شعرة من رأسه، ولما نجح الغراب في مهمته ضحك حتى سمعته كل حيوانات الغابة، ربما لذلك كان وحش أرض الغابة هو المفضل لديه من بين كل الوحوش الأخرى... لا أعرف ما وقع تحديدا بعد ذلك، لكن ما أعرفه أنه استعمل السحر الأسود لصنع دمية كان بمقدورها قتل الساحر رماح بمجرد أن

يكون قريباً منها... ولحظة أن أدرك رماح الأمر قرر الهروب إلى باطن الأرض ليختبأ بشكل مؤقت، لكن نجيد لم يمهله الوقت ليسترجع قوته بل لحقه وأطبق عليه الأرض بختم قوي جدا هو وجنوده، ولم يتحطم ذلك الختم إلا بموته، وما إن شعر نجيد بتحطم الختم حتى شرع في حفر الأرض مباشرة... وثمة أمر مهم هنا، وصل إلى الساحر ساري خبر مفاده أن سبب قتل الأمير شهاب لشقيقه متعلق بتلك الدمية، قيل أنه نزل إلى مدينة النار، إلى هنا، وسرقها من قصر الحاكم”.

اتسعت عيون السامعين لفرط الدهشة، فلقد تذكرنا جميعاً أمر تلك الدمية التي كانت تحملها الصغيرة مايا بين يديها، وسأل الأمير القرين حينئذ: -”وكيف وصل شقيق الأمير شهاب إلى مدينة النار وما كانت غايته من ذلك، ثم ألم تكن الدمية بحوزة الساحر الأكبر، فكيف انتقلت إلى مدينة النار وكيف علم ذلك الرجل بأمرها؟”.

وانتقل القرين ليكتب على الأرض بعدما امتلأت الصخرة بكاملها: -”من الجيد أن الأمير الطيب يطرح أسئلة جيدة... لعلكم تعرفون بأنه كان لأمير أرض الرياح زوجة يقال أنها آية في الجمال لا تقارن بأي امرأة أخرى،

لكن انتهى بها الأمر كهدية للحاكم رماح، ربما كان لشقيق لذلك الرجل علاقه بها، فلقد أكتشف أمره وهو يفر من غرفتها، غضب الحاكم كثيرا حينها وطلب تقريرا من شقيقه أمير أرض الرياح لكنه لم يجد إجابة لما حصل بسبب أن شقيقه لم يعد إلى أرض الرياح بعد ذلك، حينما اكتشف الحاكم بأن دميته قد اختفت، غضب من الأمير شهاب وأمهله وقتا قصيرا لاستعادة الدمية قبل أن يتخلص منه، وإظهار للطاعة أرسل أمير أرض الرياح رجاله في كل الأقطار حتى تمكنوا من إحضار شقيقه، وحينما قام باستجوبه فإنه أنكر علاقته بزوجته السابقة ومعرفته بأمر الدمية فغضب الأمير شهاب حينئذ غضبا شديدا وقام بقتل شقيقه مباشرة والقى بجسده عند قدمي الحاكم، ثم أتت أحدهما فكرة بشأن توظيف تلك الجثة، وانتهى بها الحال إلى أن صارت ذلك القاتل المتجول... أما عن كيفية وصول الدمية إلى الحاكم في بداية الأمر فلأن ذلك كان أول طلب وأهم شرط من شروط قبوله لخدمات الساحر ساري وقبول طاعته، فلقد سرق الدمية من معلمه نجيد بعدما أخذ منه روحه وقدمها إلى الحاكم إظهارا إخلاصه...” .

سأل الأمير جابر:

-”فمتى يكون خروجهم إذا؟” .

- "لا أحد يعرف، لكنهم ظلوا يرفعون ذلك الصرح ويحفرون الأرض كل بضعة أيام ولعلمهم الآن لا يدرون بما وقع هنا، لكنهم سيعرفون قريباً، وحتى ذلك الوقت ينبغي عليكم تجهيز أنفسكم، سوف يخرجون في جيش لم تروا مثله، ثم هنالك صخر... إنه وحش مدينة النار، وهو ليس كالوحوش الأخرى، وحش مصنوع من الصخر الأسود، عليكم...".

وترنحت يد القرين في مكانها وتلوي جسده وبدا وكأنه سيخر على الأرضي أي لحظة لكنه ثبت فجأة وعاد يكتب.

- "عليكم العودة وانتظار خروجهم، لا تقربوا مدينة النار أبداً، عودوا الآن من حيث جئتم، يجب علي أن أغادر هذا الجسد، حالا...".

كتب القرين ذلك ثم توقف تماماً عن الحركة مثل آلة معدنية، وبعد ثانيتان فقط سقط جسد الساحر على الأرض جثة هامدة ثم تبخرت عظامه وبقيت الثياب لوحدها، وقالت رشا بعد ذلك:

- "سيدي، ما الذي علينا الآن فعله؟".

ورد الأمير بصوت جاد أمر:

- "سوف تعودون إلى السطح، ثلاثكم...".

فقالته خولة بصوت مندفع:

- "وأنت؟".

ونظر إليها ككل مرة حينما تغزوه مشاعر الجدية والقلق:

- "ستأتي الغريبان بعد لحظة لتعيدكم...".

- "لن نغادر بدونك...".

رددت خولة بإصرار بينا راحت رشا ترفض تلك الفكرة عبر تحريك رأسها

يمنة ويسرة، لكن القائد نطق قائلاً في تلك اللحظة:

- "سيدي، اعذرنى، لكن... هل عصيتك من قبل؟ لا، لم أفعل، لكنهم يقولون

أن لكل شيء مرة أولى، ولذلك...".

- "من الذين يقولون هذا يا ليث".

- "إنهم... لا أدري، ربما اختلقتها لتوي لأنها بدت مناسبة، لكننا لن نخرج

من هنا بدونك، ويمكنك أن تفصل جلدي عن لحمي حالما نعود إلى السطح،

ولسوف أساعدك في ذلك، إذا أمرتني، وما كنت لأعصيك لأكثر من مرة

واحدة، فدعني أستعمل تلك المرة هنا الآن مهما كلفني ذلك...".

كتم الأمير ضحكته من حديث القائد بصعوبة، ولما تعثر لسانه عن الرد

التفت إلى الجهة الأخرى والتزم الصمت وهو يفكر.

بعد بضعة دقائق أتى نعيق خافت من خلفهم فنظروا فإذا هي غربان أربعة لا أكثر، وحطت قريبا منهم، وبدا أن الأمير راح يخاطبها، ثم لم تلبث أن طارت مرة أخرى وراحت تسبقهم جهة الضوء فسارعوا الخطى خلفها.

بعد نصف ساعة من المشي بين جبال من الصخور البركانية ترائت لهم بوابة عظيمة تحدها أسوار عملاقة مبنية من حجارة سوداء هي كالجبال في علوها وتطلع من أعلاها نيران مشتعلة، لقد بدى مدخل المدينة عظيما بحيث لن تكون هنالك أبدا طريقة لتجاوزه، وكانوا قد احتجوا خلف صخور قريبة يطالعون المكان في توجس، وفي تلك اللحظات أتى ضجيج يزحف جهة اليسار فإذا هم مجموعة من الرجال غربيي المظهر راحوا يظهرن من الظلام تباعا يمشون حفاة الاقدام على أرض تحترق حتى وقفوا أمام البوابة ينتظرون فتحها، كانت ملابسهم إلا قطعا قليلة من أسمال بالية تغطي جزءا يسيرا من أجسادهم بينا يقفون بصدور عارية أمام البوابة، لم يكن ثمة شعر على رأس أي واحد منهم، وكان لون جلودهم أقرب إلى الصخور البركانية منه إلى لون جلد البشر، وكانت ضحكاتهم ذات صدى مخيف بحيث لا تبدو آدمية، وكانوا يحملون رماحا ذات رؤوس حادة مصنوعة من الصخر بينا تظهر أصابع أيديهم صلبة وبارزة كالمخالب.

فُتحت البوابة بعد وقت قصير فتدافع الرجال نحوها تباعا واختفوا خلفها بسرعة، وخرج الاربعة من مكنهم حينئذ وذهبوا عند ركن ضيق قرب الجدار تخفيه صخور كبيرة، وقالت رشا بصوت مستسلم:

- "لا سبيل لنا لتجاوز هذه الأسوار، إنها كالجبال الشاهقة...".

وقال القائد:

- "دعيها لا تكن أول عقبة نفشل في تجاوزها، سوف نجد لها حلا، أنا واثق...".

- "بل قل لندعها لا تكن أول مشكلة يفشل الأمير في تجاوزها، فسوف يجد لها حلا، وأنا واثقة من ذلك، مثل وثوقي من أننا لو تركنا أمر حلها لك كانت أول عقبة وآخرة عقبة نفشل في تجاوزها، لأنه حينئذ سيتم وضعنا بداخل بئر من الحمم".

- "لا حاجة بكم لتسلقها..." قال الأمير وعيناه تحدقان في أعلى السور بثبات مخيف وثقة، وطارت الغريبان بعد ذلك من أمامهم صاعدة لأعلى وما إن وصلت هناك حتى وثب الأمير إلى الجدار فنشب يديه وقدميه في تجاويفه الضيقة وانطلق صاعدا عبرها.

بعد ربع ساعة قالت خولة بغضب وكان الأمير قد اختفى تماما عن
أنظارهم:

- "ما الذي يفعله ذلك المتهور؟"

وقال القائد:

- "ما يفعله كل مرة، يتصرف..."

لكن في الأعلى كان الأمير بالفعل قد جثم على صدر واحد من حراس
السور بعد أن نحر عنقه وجره إلى الزاوية، ونظر بعدها يمنا ويسرة فكان عدد
من الحراس ينتشرون على طول السور منهم من يقف للمراقبة ومنهم من
يتمشى، واختبأ الأمير بسرعة بعد ذلك خلف ضرس من الأضراس الصخرية
التي تعتلي السور وجعل ينظر عبر عيون الغربان التي أرسلها في المدينة.

نار

كانت مدينة أرض النار مدينة عظيمة لم يرى الأمير مثلها، يتوسطها قصر بالغ الضخامة مدجج بأسوار وأبراج حادة توشك أن تخترق سطح الأرض لطولها، يطلع اللهب من جنباتها، ويغطيها سديم من دخان أسود خانق، ويتمشى في طرقاتها جنود لا يؤذيهم لسع النار من حولهم، إذ كانت تسيل بين البيوت الحجرية أنهار من حمم فكأنها ينابيع الماء التي تجري في الغابات الباردة، ظلت الغريان تطوف سماء المدينة في تخفٍ حتى أتت بحيرة من نار عظيمة قرب الجانب الغربي من الأسوار فتحسست شيئاً غريباً يقبع بداخلها، وما لبثت أن هربت مبتعدة، وتفرقت بعد ذلك فذهب اثنان منها إلى باحة القصر فكان جيش من المحاربين يقفون في صفوف منظمة أمام رجل كان يعتلي مكاناً عالياً يخاطبهم، وحط الغرابان على قمة برج قريب فلمحت أعينها ذلك الرجل بوضوح أكثر، ورأى الأمير جابر من خلال عيونهما رجلاً في زي غريب يرتدي قناعاً حديدياً يشبه رأس الماعز وينزل على الجزء الأيسر من جسده رداء أسود ويغطي كتفيه وخصره بدروع معدنية صلبة، بينا يضع يديه على يد سيف عظيم وقد غرس ذبابته في الأرض الصخرية بين قدميه

وراح يخاطب الرجال أسفل منه بصوت يشبه الزئير وهم يطالعونه بانتباه وصمت دون أن ترمش عين أحد منهم، كان واضحا من هيئته بأنه قائدهم، وكان يقف بجانبه رجل قصير ملفع في رداء رمادي ظل يقف بصمت مخفيا وجهه، وفكر الأمير جابر في أنه الساحر رماح نفسه وذلك الرجل الذي بجانبه إنما هو مساعده الأول، لكن فجأة شد انتباهه منظر آخر كانت عيننا أحد الغربان قد وقعت عليه في تلك اللحظة حينما وقف على نافذة صغيرة تطل على رجل عجوز شبه عارٍ كان يقبع بداخل سجن صغير في أعلى أحد الأبراج مكبلا بسلاسل معدنية ثقيلة وهو جالس في ركن قصي تضيئه نيران الأبراج القريبة.

تأمل الغراب العجوز فإذا هو في جوع شديد ومرض، وقد نمت شعر رأسه وغطت لحيته البيضاء وجهه، وتشققت شفتاه لفرط العطش الذي أصابه، وبانت في ساقيه وقدميه قروح كثيرة ودماء متخثرة، طار الغراب بعد ذلك وانظم إلى رفيقه على نافذة غرفة من غرف القصر الكثيرة، وكان فيها امرأة تجلس عند مرآة تصفف شعرها، لكن كانت تخفي نصف وجهها الأيسر الجميل بقطعة من حرير أسود، بينما تقف خلفها فتيات هن في زينة أقل منها، فتيات بدون كخادمت لها، مما يظهر أنها السيدة، ولكنها بدت في حزن

دفين فشلت المرأة في إخفائه أمام عين الأمير جابر، في لحظة ما انتبهت المرأة لوجود الغرابان فالتفتت نحوهما، لكنها رأت ظلًا لا تطير مبتعدة، وأمرت بعد ذلك الفتيات ألا تذكرن ذلك أمام أحد، وانحنين أمامهما إظهارًا للطاعة.

استثقل الثلاثة الوقت الذي قضاه الأمير جابر في الأعلى، ورأوا أنه قد أطال مكوثه هنالك كثيرًا، وفي لحظة قرر فيها القائد أن يضع يديه في الجدار ليتبعه إذ بصوت مرعب يأتي لينهره.
- "توقف مكانك...".

ونظر القائد فإذا هم مجموعة من الجنود قد برزوا من الظلام من خلف جبل صخري صغير وهم يشهرون رماحهم، تراجع الثلاثة محاصرين نحو الجدار بينما طوقهم الجنود بنظرات شرسة من كل جانب، فقالت رشا بصوت غاضب:

- "تري أكان علينا أن نبقي هكذا ظاهرين أمام الأعين؟".

وقال القائد:

- "لن تلقي علي اللوم هذه المرة فتلك لم تكن فكرتي، لكن دعينا الآن نفكر كيف ينبغي أن نتعامل معهم...".

- "لا حاجة للتفكير أبدا، سنضربهم...".

- "عدددهم كبير جدا، وسوف يقتلوننا بسهولة...".

- "وأين هي شجاعتك، هل اختفت لمجرد أن الأمير قد ابتعد عنك قليلا؟".

كان هذا الحوار قدا دار بين القائد ليث ورشا بينا استمر رجل من من جنود أرض النار في سؤالهم وتهديددهم بكلمات صاخبة، وإذ لم يلقي إليه أحد من الثلاثة بالا فإنه زمجر بعد ذلك غاضبا ولوح برمحه في وجوههم فانطلق وأصحابه يهجمون وصراخ عظيم ينفلت من أفواههم، وتقدم القائد الفتاتين وجهز سلاحه للقائهم، ولم يكد يرمش بعينه ليبعد العرق المتصعب من جبينه حتى سقط أمامه جسم أسود في سرعة رهيبة، ووقف الأمير جابر معتدلا ورمق الجنود المهاجمين بنظرات مرعبة، فأوقفوا هجومهم وجعلوا يقفون في أماكنهم بحذر، وتحديث أحدهم قائلا:

- "من هؤلاء، ومن يكون هذا، إنه يبدو مختلفا عنهم...".

وقال آخر:

- "أجل، إنه يبد قويا جدا...".

وقال قائدهم الذي كان قد أمرهم بالهجوم أول مرة:

- "أيها الحمقى، منذ متى تخشون القتال، أذهب تدريبكم سدى؟ عددنا أكبر منهم بأربع مرات، وسوف نطيح بهم بسهولة، نحن أقوى، ثم إنهم دخلاء وعلينا الإمساك بهم وإلا فسوف يقضي علينا الحاكم...".

قال الرجل ذلك وابتلع ريقه، ثم فتح فمه بمكر فبانت أسنانه صفراء نتنة، كان ورجاله بلون أسود قاتم مثل الجبال التي حولهم، واحكموا قبضاتهم حول رماحهم وما هي إلا لحظات وعاودوا هجومهم.

ركض ليث ورشا وخولة في تخف لاهئين بين الجبال المنخفضة، كانت الدماء تقطر من أسلحتهم، وكانوا يسمعون صوت بوق يُرفع خلف أسوار المدينة، فلقد أُكتشف أمرهم وأذيع ذلك للعلن، وفتحت البوابة العظيمة فارتفع منها أزيز صارخ، تلته أبواق كثيرة وهيجان ظهر معه جيش من الجنود المسلحين يخرجون كالنمل من فوهة القلعة، وكان الثلاثة قد تركوا الأمير جابر يصارع أربعة من الجنود بعدما أمرهم بالمغادرة، والآن وقفوا على مرتفع وتوجهوا بأبصارهم نحو البوابة، وكان الجنود لا يزالون يخرجون منها مثل السيل فقالت رشا في قلق ينهش صوتها:

- "ترى ماذا فعل الأمير وكيف حاله؟".

ولم يجبها أحد، كان كل من القائد ليث وخوله حائران يفكران مثلها، لكن في تلك اللحظة أتى نعيق كثير من خلفهم، واتلفتوا فإذا هي الغربان قد أتت مثل غمامة مُبهجة.

بعد نصف ساعة خرجت سحابة الغربان من فوهة الحفرة حاملة كل من القائد ليث ورشا وخولة، وهلل فيلق أرض الغابة لحظة رؤيته لهم، وحطت سحابة الغربان وأنزلتهم على الأرض وغادرت، لكن الأمير جابر لم يكن معهم، وظنوا أن شرا قد وقع له، وقام رجل من الفيلق يسأل عما وقع، وأجابه القائد ليث بشكل مختصر، ومرّ الوقت ثقيلًا بعد ذلك وهم ينتظرون ظهور الأمير جابر من الهوة، لكن حين قاربت الشمس على الغروب أتى أحد الجنود يهرول صارخًا:

- "لقد عاد سيدي، لقد عاد سيدي الأمير جابر...".

وقام الثلاثة لحظة سماعهم ذلك من عند شجرة كانوا يجلسون حولها وأسرعوا خلف الرجل يخترقون الصفوف حتى وصلوا إلى الأمير جابر، وما كادت الغربان تبتعد عنه حتى اندفعت خولة نحوه تسأله:

- "ما الذي أخرجك هكذا؟".

وكان بريق خوف في عينيها يتلألأ، وهدق فيها الأمير جابر بصمت دون أن يقول شيئا، ثم أمسك يدها فجأة وراح يجرها إلى مكان قصي وأمر ليث ورشا بأن يتبعاه أيضا.

وقف الأمير واضعا يده على جبين خولة، ومرت لحظات حتى فتحت عينيها وقد امتلأتا دمعاً، وسألها الأمير حينئذ:
- "أهو والدك؟".

وهزت خولة رأسها باكية.

ونظر القائد ليث ورشا باندهاش نحو الأمير جابر فنطق قائلاً:
- "هو لا يزال على قيد الحياة كما رأيت، لكنه يقبع في سجنه في أحد أبراج القصر...".

وقالت رشا لحظة أن فهمت ما يجري:

- "وأخيراً حصلنا على خبر رائع، وهل هنالك طريقة لإخراجه؟".

وقال الأمير يجيبها:

- "لا، ليس في الوقت الراهن... قال ذلك ثم طلب منها ومن القائد أن يقتربا منه فوضع يدا على جبين كل واحد منهما وجعل يعيد عليهما مشاهد مدينة

النار كما رآها عبر عيون غربانه تماما مثلما فعل مع خولة، وكان رد فعل القائد أن قال بعد ذلك مجفلا:

- "هل ذلك حاكم أرض النار يا سيدي؟ يبدو قويا جدا..." .

وقال الأمير جابر:

- "لست متأكدا... ما يهمنا الآن هو أننا بتنا نعرف ما الذي سوف نواجهه، وسيكون علينا تجهيز أنفسنا وفقا لذلك، وفي خلال أسبوع واحد على الأكثر، وبما أنهم اكتشفوا وجود دخلاء في أرضهم فحتما سيفهمون أن الهوة قد ظهرت... علينا تجميع جيش كبير لمواجهةهم، وإني آمرك أن تنطلق الآن وبعض رجالك في الأراضي فتدعو كل من لديه القدرة على حمل السلاح للإضمام إلينا، المسألة لم تعد تتعلق بمدينة أو قرية، بل بهذا العالم أجمع، انطلق يا ليث ولا تدخر جهدا... أما أنا فسأرسل إلى أرض الماء وأرض الرمال أدعوهم للمشاركة في هذه المعركة، فلا شك أن أرض الدخان وأرض الرياح ستقفان وتقاتلان في صف الحاكم... ثلاثة ضد ثلاثة".

انطلق القائد رفقة عشرة من رجاله بعيدا عن الأرض الوسطى، وغادر الأمير المكان على صهوة جواده، وبقيت خولة رفقة رشا لوحدهما في ركن

قصي خلف الفيلق، وقالت رشا وقد اشفت على خولة وهي تراها لا تكف عن البكاء لحظة واحدة:

- "ظننتك ستفرحين لعثورك عليه أخيرا.!!"

- "أفرح! هل أفرح وهو على تلك الحال قابع في سجنه، لم أكد أعرفه إلا بصعوبة، لقد تغير شكله بسبب التعذيب الذي طاله، تماما مثلما حدث معي حينما دخلت هذا العالم، لكن عذابي كان لا شيء مقارنة بما رأيت عليه، ثم إن... إن... أيمن أن يكون تعذيبه قد استمر طوال هذه المدة؟ لقد مرّ على مكوثنا هنا أشهر طويلة. "...!

ولم تقدر خولة على الحديث أكثر فعادت تجهش باكية، وعانقتها رشا وظمتها إلى صدرها:

- "المهم الآن هو أننا قد عرفنا مكانه، وقد باتت عودته إليك مسألة وقت لا أكثر...".

- "كيف؟... كيف وهو محاط بكل تلك الأسوار والأبراج والجنود التي لا قبل لنا بها...".

- "أعدك بأننا سننقذه، سننقذه بطريقة ما وسوف تجتمعين به مرة أخرى...".

... -

- "توقفي عن البكاء رجاءا...".

- "والآن إلى أين ذهب؟".

- "الأمير جابر؟ لا أدري، ربما عاد إلى مدينة أرض الغابة".

وأغمضت خولة عيناها بعمق وهي تشهق باكية، ولم تنتبه رشا إلا وقد ثقل رأس خولة على صدرها، في تلك اللحظات كان الليل يوغل في تقدمه، وأفرش القمر الأرض بنوره، وسطعت نجوم السماء وساد الهدوء في الغابة، وراح الجنود يتداولون في مراقبة الهوة، كذلك حتى سطع نور الشمس صباحا وجاء صوت سهيل خيول كثيرة، وكان أن ظهر الأمير جابر يتبعه ما كان قد تبقى من الجيش في المدينة، وحط الفرسان القادمون رحالهم فاكتمل جيش أرض الغابة واجتمع في ساحة القتال المرتقبة كأول الجيوش وصولا.

ترجل الأمير جابر عن حصانه وتوجه صوب شجرة قريبة كانت خولة لا تزال نائمة عندها فتأملها مليا ثم عاد نحو رشا التي كانت تقف عند حافة الحفرة.

- "هل حدث أي شيء؟".

- "لا، لكن أظنني سمعت أصواتا تأتي من أسفل...".

... -

- "لو أنك طلبت مني تولي أمر إحصار باقي الجيش بدلا من أن تذهب بنفسك!".

- "لا بأس، أردت أن أرى العجوز أيضا...".

- "هل هي بخير؟".

- "لم تخبرني خولة بأنها مريضة، أكنت تعلمين أنت أيضا؟".

- "ظننت أنها أخبرتك".

- "لماذا لا تزال نائمة؟".

- "لقد غلبها النعاس وهي تبكي...".

ساد صمت بعد ذلك، وحينئذ عادت رشا لتلقى ببصرها بداخل

الحفرة، فرأت شيئا جعلها تجفل للحظة:

- "سيدي، انني ألمح شيئا في الأسفل...".

- "ما الذي ترينه؟".

- "على رأس ذلك الصرح تماما، انني أرى خيالات تتحرك... سيدي، لو أنك ترسل غرابا ليتفقد الأمر عن مقربة؟".

- "لقد تركت بالفعل بعضا منها هناك قبل خروجنا، لكنهم اكتشفوا أمرها وقاموا بقتلها، ولا يمكنني المخاطرة بالمزيد منها... على أية حال لقد كان تقديري لموعد خروجهم خاطئا، يبدو أن ظهورهم سيكون أسرع بكثير مما ظننت، ربما سيظهرون على السطح خلال يومين فقط...".

- "فماذا نفعل إذن؟".

- "نتنظر، ولنأمل أن ينجح القائد ليث في إقناع الناس بالإنضمام إلينا، وأن تلبى هند ورها الدعوة في الوقت المناسب...".

وهكذا سلم الأمير جابر الأمر للوقت وذهب يتفقد السحرة الوسطاء فكانوا مثلما تركهم آخر مرة، وسيط أرض الماء ميت على الأرض والستنة الآخرون يحلقون فوقه بصمت مطبق، تقدم الأمير من وسيط أرض الشجر وجعل يجلس القرفصاء أمامه يحاول التواصل معه، وبعد دقيقتين رأى في ذهنه الوسيط في هيئة رجل عجوز أشيب تسيل من وجهه لحية بيضاء ينظر إليه بعينان دافتتان وهو يضع يديه خلف ظهره في وقفة وقار وحكمة، فتحدث إليه الأمير جابر:

- "هل تعلمون أن الساحر ساري قد رحل؟".

ورد الوسيط في صوت ثقيل كأن فكه عند الحديث يؤلمه:

- "أجل، فلم نعد نقدر على التواصل معه بأي طريقة، لكنك أتيت باحثا عن إجابة معينة، فلا تتحدث عن الموتى...".

- "إننا نرى ستة وسطاء هنا، وكنا حتى وقت قريب نجهل السادس منكم، والآن عرفنا بوجود إمارة سادسة تقبع تحت الأرض".

- "لطالما كنتم تبحثون عن جواب لما ترونه، وكنتم تسألون ساري عن ذلك فلم يجب أحدا منكم، وكنا نحن الوسطاء قد مُنِع عنا الحديث في أمر أبعد من إيصال مواعيد الاجتماعات إليكم، لكن الساحر لم يعد موجودا، والعالم بات على شفير الإنهيار، لذلك أظن أنه بمقدوري الحديث بحرية أكبر، لكن دعني أخبرك أولا بسر صغير هنا... إني وأولئك الوسطاء اللذين تراهم في الخارج لا نحادث بعضنا ولا نرى بعضنا ولا يعلم أحدا بما يقع مع الآخر...".

- "فلا تعلمون بأن واحدا منكم قد تم قتله إذن؟".

وصمت الوسيط بشكل بدى أنه أرعبه، لكنه بعد لحظات قال وكأن الأمر

لم يكن بتلك الأهمية:

- "حقا؟".

- "كان وسيط أرض الماء...".

- "متى كان ذلك؟".

- "منذ أيام خلت...".

...

- "هل تعرف أماكن الإمارات جميعها؟".

- "من السهل معرفة أن وجود ستة وسطاء لا بد سيوافقه أيضا وجود ست

إمارات لا خمسة، أليس كذلك؟".

- "لم تصلنا أي معلومة من الأقدمين بشأن ذلك!".

- "دعني إذن أخبرك بأننا حتى نحن الوسطاء لا نعرف أماكنها، كل وسيط

يعرف إمارته فقط، وذلك لمنع حدوث تحالفات شريرة مثلما بات يقع معكم

أنتم الأمراء، لكن أجل... توجد إمارة سادسة، ولكن هذا الوسيط ليس تابعا

لها، بل هو تابع لشيء أخريقع في مكان ما من هذا العالم، والساحر المؤسس

لهذا العالم وحده من كان يعرف مكانه".

- "لقد أخبرني الساحر ساري مرة بأن نار الأرض لو خرجت يوما فبنبغي عليّ

حينئذ أن أبحث عن ماء السماء، ولكنني لم أفهم ما كان يقصده، فهل تملك

تفسيرا لما قاله؟".

- "أقال ذلك حقا؟".

- "أجل... كان ذلك قبيل سقوط الصرح وتدمير كتاب السحر".

وسكت الوسيط يفكر للحظات وقال بعدها:

- "هكذا الأمر إذن...!"

- "هل أدركت الأمر؟".

- "أجل، لكنني لن أخبرك... ولو كان جائزا لي أن أخبرك بالأمر لكان قد

أطلعك عليه حينها...".

- "هل لماء السماء الذي ذكره علاقة بما يحدث؟ هل سيكون لها حقا دور

مهم في إيقاف إمارة النار ومنع شرّها...".

وهز الوسيط وجهه بإيماءة:

- "أجل، أعتقد ذلك... والآن عليك أن تعود إلى أصحابك، فثمة ما ينبغي

عليك رؤيته".

أجنحة

عاد الأمير جابر مسرعا على صهوة جواده نحو الهوة، ووجد جزءا من الجيش قد التف حول شيء ما قريبا من حافتها، وتقدم يخترق الصفوق واستقبلته كل من خولة ورشا بعيون فزعة وهما تقفان أمام جثة غريبة الخلقة كانت ترقد ميتة على الأرض بين أقدام الجنود المتزاحمة.

انحنى الأمير يتحسس تلك الجثة بحذر، كان لها وجه يشبه وجوه البشر غير أن لها جناحان كجناحي خفاش تفترشان الأرض من تحتها، وكانت أصابع يديها وقدميها حادة وطويلة كأنها مخالب وحش مفترس، ولم تكن عليها ثياب غير ما يغطي تحت بطنها، وعلى جسدها جراح دامية كثيرة، وقالت رشا حينئذ بأنفاس لاهثة بسبب من قتالها لذلك المخلوق الذي ظهر أمامها فجأة: - "سيدي، هنالك اثنان غيره... وقد هرب أربعة آخرون وعادوا إلى أسفل...".

وقام الأمير فتنفقد الجثتان الأخريتان فوجد أن إحداهما لا زالت تنبض بالحياة فجعل يضع يده على جبينها وقال بعد لحظة:

- "إنهم بالفعل على وشك الخروج إلى السطح، لقد اقتربوا كثيرا...".

وترك الجثة تموت بهدوء بعد ذلك وقام واقفا:

- "هل نظرت مرة أخرى للأسفل؟".

وقال رشا وهي تبتلع ريقها:

- "إنهم يكملون بناء الصرح بطريقة... لا أدري كيف أقول هذا، لكن أجسادهم تتحول إلى حجارة".!

- "وكيف ذلك؟".

- "لم يبقى الكثير على وصولهم إلى السطح، وقد استطعت أن ألمح رجالاً مجنحين مثل هاؤلاء يلتصقون بأعلى الصرح فتتحول أجسادهم إلى حجارة وتصبح جزءاً من الصرح فيعلوا ارتفاعه أكثر...".

وبدا أن الأمير قد راح في تفكير عميق حينها.

- "سيدي"...!!.

- "نار الأرض... وماء السماء... ماء السماء...".

قال الأمير ذلك بفكر شارد ثم جعل يلتفت فجأة ناظراً فيما حوله وعاد يقول بلهجة قوية:

- "إلى جميع الجنود، حالا... توجهوا إلى النهر وقوموا بتغيير وجهته إلى داخل الحفرة...".

وحدثت همهمة كبيرة وسط الجيش ولم يحرك أحد منهم ساكنا، إذ بدا لهم كلام الأمير غريبا وانتظروا أن يعيد صياغته بطريقة أخرى، لكنه صاح فيهم بذات الأمر وبصوت أقوى جعلهم يركضون فوق بعضهم نحو النهر وجعلوا يحفرون الأرض بسيوفهم ورماحهم يحاولون تغيير مساره.

بعد ساعتين وحينما انتهى الجنود من حفر الأرض وتحويل مسار النهر نحو الهوة فإن خولة أتت قرب الأمير جابر وسألته بصوت قلق:
- "هل أنت متأكد مما تفعله؟".

وقال بينا لا يزال يصب تركيزه نحو الماء الذي راح يتدفق بداخل الهوة:
- "لا، لكن لم يخطر ببالي شيء آخر لأفعله... وليس عليك أن تقلقي بشأن هذا، فهو لن يكون كافيا لدفنهم".

وأنت رشا من عند حافة الحفرة نحوهما وقالت بشيء من التفاؤل:
- "في الحقيقة ربما تكون قد أحسنت التفكير حقا يا سيدي، ماء النهر لن يكون مانعا لخروجهم، لكنه بدأ يؤتي ثماره، لقد أمكنني قبل لحظة أن أرى اضطرابا بينهم، يبدو أن تدفق الماء سبب لهم إزعاجا شديدا وبات يمنعهم من الإنصهار بسهولة...".

قال الأمير وقد تهللت أساريره:

- "رائع، ربما يعيقهم هذا قليلا ويمنحنا مزيدا من الوقت لتهيئة أنفسنا" والتفت بعدها إلى خولة: "بالمناسبة، إذا أردت أن تعرفي كيف وصل والدك إلى أيدي أولئك القوم فيامكاني إخبارك...".

وقالت خولة بصوت مختنق:

- "لا، لم يعد يهمني... ما يهمني هو كيف سنقوم بإخراجه".!

ولما لم يكن هنالك من جواب جاهز لهذا السؤال فقد هرب الجميع بعيونهم وشردوا بعدها يتأملون ماء النهر وهو يفيض في ظلام الهوة. مع حلول المساء كان الأمير جابر واقفا عند حافة الحفرة يتأمل ظلامها، حين أتت خولة على غفلة منه ووقفت بجانبه.

- "قلت أنك تعرف كيف وقع والدي في أيدي هؤلاء"!.

ولم يعاندها الأمير فأجابها مباشرة:

- "لقد التقطه أحد أولئك المخلوقات المجنحة عندما ظهر يهوي من السماء فجأة...".

- "كيف؟".

- "لا أدري، لكن انظري أين وقعت أنت وأين وقع أصحابك الآخرون، وأين يتواجد والدك الآن... لقد فرقتكم البوابة والقت بكم بعيدا عن بعضكم، لقد

سقطت في أرض الغابة، وكان يمكن ببساطة أن تسقطي على رأس جبل، أو في بحيرة، أو في أي مكان آخر...” .

طاطأت خولة رأسها تفكر، ومر المساء لزجا ومزعجا وكأنه يتمدد ولا يريد أن ينتهي، لكن قبيل انقلاب الشمس مباشرة داهم الأرض الوسطى صوت فضيع أتى من الشمال وراح ينحدر نحو الغابة، ولما كان الصوت منذرا بالعدوان فإن الأمير جابر أمر الجيش فاستعد وتأهب، ولم يمضي وقت طويل حتى ظهرت مقدمة جيش أرض الرماد فراحت تتدفق إلى الساحة كالسيل العفن، وظهر بعد ذلك القنطور من خلف الجيش فتقدم يدق الأرض بحوافره حتى وقف بجانب سيده الأمير أرون وجعل يطالع الفراغ بعينيه الغاضبتان فكأنما ظل يتذكر ما حلّ به آخر مرة، ونظر الأمير أرون حينها إلى الأمير جابر وهو يعض على أسنانه، لكن وقبل أن يغير أحدهما موضع نظره عن غريمه إذ بصوت أخريهز أركان الغابة، وكان الصوت هذه المرة آتيا من السماء، وظهر نسر أرض الرياح يسد الأفق بجناحيه العظيمين يرفرف بهما في تعالٍ وكبر، وأتى من ظلال الغابات الشمالية رجال في ملابس بيضاء يحملون رماحا بين أيديهم وراحوا يتجمعون بجانب جيش أرض الرماد على الضفة المقابلة من النهر، ونزل حينها الأمير شهاب من على ظهر النسر وحط كالريشة بهدوء

أمام جيشه وقواده، ونظر الجيشان إلى بعضهما في زهو وتفاجر، وقالت رشا حينئذ وهي لا تصدق ما تراه عيناها:

- "فإذن هكذا سينتهي الأمر حتى قبل أن يبدأ؟".

وقال الأمير جابر وهو يمعن النظر في أعدائه:

- "لا، لن يهجموا علينا... لا يبدو أنهم قد تلقوا هذا الأمر حتى اللحظة، أظن أن الحاكم لا يريد تفويت متعة تدميرنا بنفسه، أنا متأكد من أنه سيضعنا موضع التحمية قبل خروجه نحو العالم الآخر".

وقالت خولة وهي تنظر إليه شزرا:

- "أتمرح؟".

- "لا...".

- "فهل لديك خطة لإيقافه؟".

- "الوقت، يلزمنا المزيد من الوقت فقط...".

- "حتى وصول الدعم؟".

- "حتى وصول الدعم...".

- "لكن غالبية الغريبان لا تزال في المدينة، ألا تنوي استدعائها؟".

- "سوف تأتي حينما نكون في حاجتها...".

- "وماذا عن القائد ليث، ألا ترى بأنه قد تأخر..."!

- "سيأتي...".

... -

نطق الأمير يقول بعد فترة:

- "أعتقد بأنهم سيخرجون والدك معهم إلى السطح...".

- "حقاً؟".

- "لأنه ليس من المنطقي أبداً أنو يُبقوا أحدا خلفهم إذا كانوا ينوون غزو العالم الخارجي، وهم بالتأكيد لن يقوموا بقتله...".

- "ولماذا يبقون على حياته إذن، في ماذا سوف يفيدهم؟".

- "ألم تسمعي من قبل بشيء يدعى بسجناء الحرب؟".

وبرقت عينا خولة فنظرت إلى الأمير باهتمام أكبر:

- "ما الذي تقصده؟".

- "أعني أنهم يعرفون بأننا كنا نبحث عن ذلك الرجل منذ مدة طويلة، وبأنه

أهميته عندنا بالغة، ولا شك سيأتون به ويجعلون منه ورقة ضغط إذا وجدوا

لذلك حاجة...".

- "فما العمل إذن، هل سنقدر على إنقاذه من أيديهم حينها؟".

- "أخبرتكَ بأنني سأعيده، ولن أخلف وعدي... وسأجعل منه أولوية".

وتنهدت خولة بحب لما لامس حديث الأمير قلبها وحط كماء المطر على حرقة صدرها، وشعرت بإطمأنان مفاجئ تغلغل وسيطر على مشاعرها، فكأنها ترى والدها حرا يأتي نحوها ساحبا قدميه الثقيلتين وابتسامة شوق على فمه المتعب، كذلك اندست في غمامة من الخيال الجميل وغابت في شروذ بعيد حتى أيقظها فجأة صوت كالرعد القاسم دخل يشق الغابة طولاً حتى صمّ آذان الجيوش وأذهلهم، وكان ذلك صوت وحش أرض الماء قد ظهر يهشم الأشجار ويحطمها في طريقه نحو الساحة، وكان لحظة ولوجه إليها قد بدا سليماً معافاً من جروحه كأن لم يمسه شيء أبداً، ووقف بجانب جيش أرض الشجر وعاد فأخرج من جوفه صوتاً حرك العشب على الأرض ودوى في عمق الجبل، وما هي إلا لحظات وظهر من خلفه جيش تتقدمه فتيات جميلات في ثياب حرب زرق وهن على أظهر أفراس موشحة صدورها بالحريز والفضة، ووقف الجيش الذي بلغ تعداده قرابة الخمسة آلاف مقاتل ومقاتلة إلى جانب جيش أرض الغابة، وأتت من أمامه فرس قوية تمشي في غنج الخيول عليها ثياب من حريز تجسد شكل امرأة، وقفت الفرس ونزلت الأميرة

هند من عليها وراحت نحو الأمير جابر وحينئذ مشت خولة تبتعد عن المكان لتنظم إلى رشا في مراقبة الهوة، فتحدثا قليلا بشأن الوضع السائد، وقالت الأميرة هند وهي تمسح المكان بعينيها الخفيتان بقلق:

- "هل لدينا فرصة أمامهم؟".

فقال الأمير جابر:

- "سوف يكون جيش أرض الرمال إلى جانبنا".
 وشعرت الأميرة باندهاش كبير لهذا الخبر:

- "حقا!! كيف ذلك؟".

- "لقد ساعدتنا الأميرة مها في استعادة وحش أرضك، ولولا ظهورها في ذلك الوقت ربما كنا سنفقدده إلى الأبد...".

- "لكن كيف استطعت اقناعها بالإلزام إلينا، كيف فعلت ذلك؟".

- "لم أفعل، لقد اختارت ذلك بنفسها، أو ربما كان لخولة دور فعال في ذلك".

- "تلك الفتاة مجددا!".

- "أجل، تلك الفتاة مجددا...".

قالها الأمير باحرف ثقيلة، مما أزعج الأميرة هند فلاذت إلى الصمت ولم تتحدث بعد ذلك حتى ظهر القائد ليث من الطريق الكبير الذي يقود إلى الساحة رفقة عدد كبير من المحاربين اللذين كان يبدو من أشكالهم بأنهم يحملون سيوفا لأول مرة، ونظّم القائد جيشه الصغير بسرعة بجانب جيش أرض الغابة وراح نحو الأميرة هند فقدم لها التحية ثم عاد نحو الأمير جابر: -”سيدي، هذا كل ما استطعت جمعه، رفض الناس الإنضمام إلى المعركة، لأن معظمهم قضاوا حياتهم في نبش الأرض بحثا عن الماء والطعام، ولم يسبق لهم حمل الأسلحة، ولا الذهاب إلى أماكن من مزارعهم”.

-”لا بأس يا ليث، يكفي ما جمعته، إننا في الاصل لن نشركهم في القتال حتى يضطرونا الأمر، ولهذا دعهم يبقوا في الصفوف الاخيرة دائما، فلنبتقهم سالمين ما دام في وسعنا ذلك...”.

سمعت الأميرة هند كلام الأمير جابر فزاد إعجابها به وتعلقها، تماما مثل كل مرة تسمعه يتحدث فيها، أما خولة فلبثت من بعيد ترمقها بنظرات ساحقة، وأما رشا فراقبت عيني خولة وهي تقول في نفسها، أيتها الحمقاء، إنه لن يحب غيرك، فلا داعي لكل تلك الغيرة، وعم بعد ذلك صمت بين العيون وهي

تحقق في بعضها بنظرات شك قلقة، كل من جهته، بينما يزحف ظلام الليل بهدوء بينهم، إلى أن خرج من بين الأجمات خلف جيش أرض الغابة رجل مسن هزيل الجسم ظهر يحمل شيئاً ثقيلاً على رأسه راح يخترق الصفوف في تمايل غريب يكاد يبحث على الضحك.

ووصل العجوز أمام الصفوف ووقف كاشفاً نفسه تحت نور القمر، ونظرت إليه خولة باندهاش غير مصدقة:
- "العم حيدر.!"

وأتى العجوز نحو الأمير جابر فانحنى نحو الأرض ليضع عنزته البيضاء عن رأسه فلم يستطع، فلقد تمسكت برأسه بقوائمها الأربع، وصار يسبها ويلعنها بينما يتطاير اللعاب من فمه، وضحك كل من وقعت عيناه على المشهد، حتى الأمير جابر نفسه غلبته ابتسامته، وحينئذ تدخل القائد ليث لينقذ الموقف فأمسك العنزة وأنزلها من على رأس العجوز ووضع على الأرض أمامه، كانت لحظة مرح قصيرة، قال القائد بعد ذلك يستنكر فعلة العجوز بنبرة قاسية:

- "ما الذي تفعله هنا أيها العابث؟".

ولم يجبه العجوز فأخذ بوجهه الشاحب الضعيف نحو الأمير جابر وقدم له التحية وقال بعد أن غلبه اللهاث لفترة:
 -”سيدي الأمير، أنا طوع أمرك، أعرف أنني فشلت في المرة السابقة، لكنني سأنجح هذه المرة، أنا واثق...” .

ولم يجبه الأمير في البداية، بل ظل يرمقه بنظرات صارمة، ثم قال بعد ذلك:

-”حسنا، يمكنك أن تنظم إلى الجيش الذي يقف في الصفوف الخلفية، اذهب وكن واحدا منهم...” .

وفرح العجوز بكلام الأمير وعاد نحو عنزته البيضاء فحملها على عنقه ومشى بأسرع ما استطاع نحو مؤخرة الجيش واختفى عن الأنظار هنالك، ومضى من الوقت ساعة وعادت العيون تتقاطر بالتوعد نحو بعضها من كلى الجانبين، ثم بدا لللأمراء فجأة أن يتحدثوا مع بعضهم.

سهم

اقترب الأمراء الأربعة والقادة نحو حافة الهوة، وحدقوا في بعضهم مليا، إلى أن فض الصمت القابع بينهم صوت الأمير أرون حين قال يخاطب الأمير جابر بازدرأء لم يحاول اخفاءه:

- "أرى أنك جمعت الكثير من الفتيات حولك، حتى الأميرات لم يسلمن من الوقوع في حب وجهك الجميل أيها المتصنع."!

ولم يجبه أمير أرض الغابة، واستفز ذلك الأمير أرون فعاد يقول بصوت أكثر جدية:

- "لم يبقى لديكم وقت في هذا العالم، وسوف نسلب أرواحكم غدا بعد شروق الشمس مباشرة..." .

وهنا نطق الأمير جابر:

- "أتمنى حينئذ أن تحرص على لِقائِي، ولا تهرب من مواجهتي، فأريد أن أمنحك ذلك الشرف..." .

وهنا زادت حدة غضب الأمير أرون أكثر:

- "لا أدري من تحسب نفسك، لكنك ستندم قريبا، قريبا جدا، و..." .

وتدخل الأمير شهاب قائلا بصوت الحكيم الهادئ:

- "اهدأ يا أرون، اهدأ قليلا، هنالك ما هو أهم ما مبارزاتك اللسانية، ألا تعي ما الذي فعلوه لتوهم؟ انظر تحت قدميك فقط...".

ونظر أمير أرض الرماد إلى الحفرة:

- "الماء..".

- "أجل، إنه يعيق صعودهم...".

في الجهة المقابلة تحدث القائد ليث يقول بحرارة:

- "سيدي، ماذا إن لم تأتي مها وجيشها؟".

- "سوف تأتي...".

وقالت رشا:

- "ترى هل يفكرون في مواجهتنا؟".

وعاد الأمير جابر يقول بعد ذلك:

- "لا ليس قبل ظهور الحاكم، لا أظن ذلك...".

وما إن قال الأمير ذلك حتى صاح أحد الرجال من خلفه ثم شخر شجرة موت وخر صريعا على الأرض بين أقدام رفاقه، وسواء كان ذلك السهم الذي انطلق من صفوف الأعداء متعمدا أم أنه انفلت من يد أحدهم فجأة من غير قصد فإن ذلك لم يكن مهما، لأن نتيجته كانت أن فتيل المعركة قد أشعل

بانطلاقه، وفي تلك اللحظات صرخ أمير ارض الرياح نحو رجاله بأعلى صوته:

- "من أطلق ذلك اللهم اللعين نحوهم، اللعنة عليكم جميعا..."

لكن الوقت كان قد فات فعلا، لأن غيمة من السهام كانت تتجه نحو جيشه في تلك اللحظة بأمر من الأميرة مها، وتبادل الفريقان بعد ذلك رشقات السهام حتى سقط عدد من الجنود صرعى من كلى الجانبين ثم أتت بعدها أوامر الأمراء فانطلق الجيشان نحو بعضهما وفاضت الخيول براكبيها والمشاة بدروعهم إلى الساحة فحدث الإلتحام على الجانب الشرقي من الحفرة حيث أن الجانب الغربي كان يقطعه ماء النهر الذي راح يصب بداخلها.

علت أصوات السيوف عند التقائها وتطايرت الدروع وسالت دماء الجنود على العشب الفضي الذي تحول لونه وسطع تحت ضوء القمر، كانت معركة شرسة تقاتل فيها الطرفان بلا هوادة، وكانت أكثر الأرواح تتساقط حيث كان أحد الأمراء موجودا، ذلك أنه بقدراتهم الخارقة كانوا لا يجدون صعوبة كبيرة في إسقاط أعدائهم من الجنود العاديين، أو حيث تواجد وحش من وحوش

الأراضي، فكان يكفي أن يلوح القنطور برمحه حتى تتطاير الأجساد عالياً من حوله، أو يفتح التمساح فمه حتى يمتلئ بالرؤوس الصارخة، أو أن يرفرف النسربجناحيه حتى يتطاير الرجال من أمامه كأوراق تقاذفتها رياح الشتاء، أو أن تسقط غمامة الغربان في مكان يكتظ بالجنود الوافقين ثم لا تكاد تبعد عنه إلا وتكون الأرض بعد ذلك مفروشة بالجثث الدامية التي لا أنفاس فيها، وهكذا مر بعض وقت المعركة، لكن في مرحلة ما كان على الأمراء والوحوش أن يلتقوا، وحدث أن كان الأمير جابر يفسح مجالاً أمامه ويمسح أرض المعركة بعيناه الثابقتان باحثاً عن الأمير أرون، وكان الأخير بدوره يبحث عنه أيضاً، وما إن التقت أعينهما حتى ركض الإثنان نحو بعضهما في سرعة وشراسة، كذلك التقى سلاحهما فخلق جمر وسط الظلام وانفجرت منهما شرارات صغيرة، وأما في موضع قريب فكان الأمير شهاب يحلق في السماء فوق رؤوس المقاتلين في ثبات واضعاً إحدى يديه خلف ظهره في تعالٍ وكبر بينا يوجه من النشاب خاصته طلقات قاتلة أسقط بها الكثير من أعدائه، وأطلقت خولة نحوه عدة سهام غير أنها لم تفلح في إصابته، إذ كان يسقطها بسهم معاكس قبل حتى أن تقترب منه أو تسبب له خطراً، لكن فجأة شعر بتهديد قوي يوشك أن يصيبه، لكنه تفاداه بمهارة بالغة، ولم تحصل

الأميرة هند من ضربتها إلا أنها تمكنت من تمزيق ثوبه الحريري الفاخر، وركز الأمير شهاب سمعه الخارق نحوها مباشرة لحظة أن حطت قدميها على الأرض:

- "لم أتوقع من امرأة أن تفكرة بمثل هذه الطريقة الذكية، لقد استخدمت الغربان للوصول إلي هنا!! إنها بالفعل حركة ذكية منك أيتها الأميرة...".

وردت الأميرة هند تتحسر على فشلها في بلوغه بالطريقة التي أرادتها:

- "ربما ذلك لأن رأسك الأعمى عبارة عن صخرة مأخوذة من تلك الجبال العالية التي برّدتها السحب، إنك لا ترى النساء ولا ترى الأشياء الجميلة، وإلا لما قدمت زوجتك إلي سيدك كما تقدم الفاكهة، إن عمالك لم يقتصر على عينيك فقط، بل بلغ بصيرتك، لكن ما رأيك أن تنزل إلي هنا لأريك ما قد تفعله بك امرأة."!!

وصمت الأمير شهاب بغيظ للحظات وقال بعدها:

- "كيف علمت بأمر زوجتي؟".

وقالت هند بخبث:

- "إنزل إلي هنا وسوف أخبرك...".

- "حسنًا... لا يهم".

قال الأمير شهاب ذلك وهوى نحوها مثل الطير الجارح، استمر القتال بعد ذلك لوقت متأخر من الليل، وتساقطت خلاله جثث من كلى الجانبين حتى صار الدم يجري مثل ماء النهر وينتهي في الحفرة، وفي خضم القتال وكان الليل في أوجه ظهرت شرارة من نار في وسط المعركة فجأة وانفجرت مثل الشهب على مجموعة من جنود الجيش التابع للأمير جابر والأميرة هند فأحرقتهم حتى ركضوا صارخين فسقط بعضهم تحت الأقدام وبعضهم انتهى به الأمر بداخل الحفرة، ولم تمر لحظات حتى انفجرت نار أخرى في موضع آخر، نظر الأمير جابر يحاول أن يفهم ما يحدث، لكن لم يكن ثمة تفسير لذلك، فقد كانت النار تظهر فجأة في أماكن متفرقة، ثم زادت وتيرتها وصارت تتفجر بصورة أكبر، وخاف جنود الجيش الجنوبي وتزعزت صفوفهم واضطربوا، لكن القائد ليث ظل يصيح فيهم بأعلى صوته بأن يبقوا في أماكنهم، وحاول مرارا أن يرى مكمّن تلك النار فلم يقدر، فقد كان الظلام شديدا ولم يكن ثمة وقت ليرفع الواحد عينيه عن الأرض لأكثر من ثانيتين أو ثلاثة دون أن ينغرز سيف في صدره، لكن في تلك اللحظات كانت رشا قد تراجعت إلى الصفوف الخلفية المكونة من الرماة بجانب خولة وجعلت تتفرس ساحة المعركة بعينيها تحاول تحديد سبب تلك النار الغريبة.

وقالت خولة وهي تسدد قوسها نحو الأمير شهاب الذي كان يحلق فوق رؤوس الجنود دون أن يتمكن احد من إصابته:

- "ما الذي يقع يا رشا، هل استطعت رؤية شيء ما؟".

وقالت رشا بتركيز شديد وهي تصوب عينيها في ساحة المعركة تنتظر ظهور نار أخرى:

- "ليس بعد، لقد راقبت جنود الأعداء ولم يكن يبدو أنهم كانوا يحملون معهم أسلحة غريبة، إنما سيوف ورماح مثل التي نعرف... أما تلك النار!! لا بأس، سأكتشف أمرها حالما تظهر بضع مرات أخرى".

خبث

الآن في وسط القتال كان الأمير جابر والأمير أرون قد التقيا لتوهما مرة أخرى بعد ان افترقا قبل ذلك بسبب هروب الأخير حينما كان يوشك أن يفقد رأسه قبل أن يلوذ بالفرار إلى صفوف جيشه، لكن الآن وجده الأمير جابر وعزم على ألا يتركه يفلت منه مرة أخرى، وسار نحوه خفية بنية قتله، لكن سهما مر من أمامه فجأة، ولم يكن موجها إليه، بل تم إطلاقه نحو أمير أرض الرماد ولذلك فقد استقر في صدره تماما، ونزع الأمير أرون السهم من صدره ورماه على الأرض وقال والغضب يلف صوته بينا يبحث عن مطلق السهم وسط كل ذلك الهرج:

- "تلك اللعينة مجددا!! حسنا، الآن صار لي شأن معها..." .

قال ذلك وتراجع إلى الخلف وضاع بين دروع رجاله، وعاد الأمير جابر أدراجه حينئذ فبحث عن الأمير شهاب فوجده قد عاد يحلق عاليا بينا راح يأخذ أرواح الرجال بطلقات سريعة من نشابه القاتل، وحينئذ أمر الغريبان فتجمعت وأتت في هيئة الغراب الكبير فقفز على ظهره وراح يرتفع إلى مستوى تحليق الأمير شهاب وخلال ذلك قام بصد عدد من السهام التي كانت تتوجه صوب

رجاله بمهارة عالية، لكن أمير أرض الرياح وما إن رأى الأمير جابر يقترب منه حتى شعر بالخطر فاستدعى النسر فركب ظهره هو الآخر وحلق الوحشان حول بعضهما، وكان لابد قبل الخوض في هذا القتال أن يتبادل الأميران حديثاً ظل عالقا في رأسيهما لوقت طويل جدا، وحينها ابتدر الأمير شهاب الكلام فقال بصوت العجوز الذي يدعي الحكمة:

- "مرحبا بنجل الأمير العظيم داغر، لقد سمعت الكثير عن شجاعتك، حتى أنك جئت بنفسك وتسللت إلى أرضي قبل أيام قليلة... ترى ما الذي كنت تبحث عنه حينها؟".

وقال الأمير جابر وهو يراقبه بنظرات هادئة رغم الغضب الذي كان يرتج في صدره:

- "هل كنت تعرف والدي؟".

- "قليلا، أجل...".

- "تقول قليلا، فلماذا ساعدت في قتله؟".

- "للسبب ذاته الذي يجعل الأمراء يتقاتلون في العادة".

- "أعرف بأنني سأقطع عنقك هذه الليلة؟".

...

- "لقد قتلتم أميرا دون أن تكون له فرصة للدفاع عن نفسه، ما هكذا عهدنا قتال الأمارء يكون أبدا...".

ونطق الأمير شهاب بنبرة بدت أكثر جدية:

- "لقد كان المفضل لدى الحاكم...".

وشعر الأمير جابر بشيء يوخز قلبه وقبل أن يفكر في أي شيء فإنّ

الأمير شهاب كان قد راح يفيض في الكلام قائلا:

- "هل تظن أن والدك كان ملاكا بريئا مثلك؟ ثم أن يكون الأب قد ربى ابنه تربية صحيحة فذلك لا يعني أنه هو نفسه كان صالحا!!... كلانا كان على تواصل مع الحاكم، وكان عليه أن يختار واحدا منا ليكون بجانبه، ولم تكن لدي نفس حظوظ والدك، لأنه كان يفوقني قوة، أذكر أنه في تلك الرحلة التي ذهب فيها رفقة زوجته إلى أرض الماء كان قد كافئ تلك المرأة الخفية على قتلها حبيبتك، ألم تخبرك بذلك؟".

وحاول الأمير جابر أن يكتم عيظه ولم يقل شيئا، فيما ضحك الأمير

شهاب باستهتار وأردف:

- "لا، لا أظنها فعلت، لكن سأجيبك على الأسئلة التي تدور في رأسك بما أنك سوف تموت بعد وقت قصير جدا، فهذا ما يفعله الأقوياء في العادة،

إنهم يخبرون أعدائهم بكل الأسرار حتى يجعلوا من موتهم أكثر مأساوية...
والآن أخبرتك أنه كان على الحاكم أن يختار واحدا منا، وكلانا حاول تقوية
صفوفه بغية ذلك، ولأنّ والدك كان على عكس ما يظهره لشعبه وكان في
الأصل طاغية يضع كلمته على أرض الماء منذ البداية باعتبارها الأرض
الأضعف بيننا، فقد كان علي أن أتحرّك بدوري، وأطلعت صديقك الأحمق
الذي كان أميرا على أرض الرمال على أمر الحاكم، وطلبت منه أن يكون في
صفي، لكنه اتخذ القرار الخاطئ وقرر أن يتصرف بنفسه، فأرسل شقيقته
للبحث عن أوراق السحر في قصر والدك ظنا منه أنّ لها علاقة بالقوة التي
يتمتع بها والدك، لكن والدك اكتشف أمرها ولم يقدر أن يخبرك عن ذلك فقرر
التخلص منها، ولكي يفعل ذلك دون أن يفسد علاقته بك أو يجرح مشاعرك
فقد ذهب إلى أميرة أرض الماء وأمرها بأن تنهي أمرها، وحدث بعدها ما حدث
في تلك البحيرة، ففي النهاية طلبات والدك كانت مثل الأوامر بالنسبة إليها
ولم يكن بالإمكان مناقشتها أبدا، لم يكن من صالحها رفض أوامره، وإذا
حدث الآن واستطعت النجاة مني، فاسألها كيف انتهى الأمر بوالدها حينما
قرر التمرد على والدك ورفض أوامره!.. في النهاية وبإخباري أمير أرض
الرمال عن أمر الحاكم فإنني كنت قد فتحت جبهة جديدة دون أن أدري ذلك،

ولم يكن ذلك من صالحى أبداً، وحينما رأيتة يفكر في طريقة للإنتقام منك بعدما وصله خبر موت شقيقته بين يدك ذهبت ووضعت أمامه فكرة ناسبته كثيراً، ولم يدخر جهداً في تنفيذها، وكان منها أن تخلصت من عدوي الأول دون أن أبذل جهداً، لظالما كان والدك هاجسي الأكبر، وإني أعترف لك بذلك، إنه كان أقوى مني كثيراً، في النهاية لم أتوقع أن تزول من أمامي العراقيل هكذا بسهولة، إن الذكاء يصنع أفكاراً، والأفكار تحفر صخوراً لا تحفرها السواعد القوية، بقي أمامي أن أتخلص منك أيضاً، ولست بالشيء الذي يقلق راحتي، وإلا فلم تظنني لم أقترب منك طوال هذه المدة؟” .

- ”فإذن أنت تعترف بأنك كنت الشخص الذي خطط لكل شيء منذ البداية، لذلك سأعطيك خياران للطريقة التي سوف أنهى بها حياتك... أن أفصل رأسك عن جسدك فتموت من فورك، أو أن أقطع أطرافك الأربعة فتحضى بموت بطيئ بحيث يكون في مقدورك التفكير في جميع الذنوب التي ارتكبتها طوال حياتك.“!!

وصمت الأمير شهاب طويلاً ثم انفجر ضاحكاً وصاح بأعلى صوته:

- ”تعال إلي أيها الغر، سوف ألحقك بالذك من فوري...“ .

وأمر الأميران وحشيتهما فانطلقا نحو بعضهما في سرعة خارقة وتصادم الإثنان وحدث بينهما قتال بديع تجلت مظاهره في شكل جمرات تطايرت من تلاقي الاسلحة، وبيننا ظل الإثنان يتبادلان المواقع ويتقافزان في الهواء فوق الرؤوس كان ريش الطائران يساقط بهدوء على خطوط الدماء المنطلقة في الأرض بين أقدام الجنود المرتعشة.

بعد لحظات وبيننا كان الأمير جابر منشغلا بقتال الأمير شهاب في السماء إذ به يسمع صوتا من بين كل تلك الصرخات التي كانت تتعالى من وسط المعركة، وحاول أن يسرق لحظة لينظر جهة الصوت لكن الأمير شهاب باغته بسهم كاد يصيبه في مقتل، لكن رغم ذلك لم يحر الأمير جابر لذلك الرأس المعدني الحاد الذي كان يخترق كتفه الأيسر، بل إن كل تركيزه كان منصبا على المكان الذي ارتفعت منه تلك الصرخة، ثم إن عينيه اتسعتا بالقدر الذي جعلهما تتسعان كثيرا، أما عن المكان الذي صدر منه الصوت فكان في نقطة من الظلام في مؤخرة الجيش الجنوبي حيث يتمركز القرويون بجانب وحدات الرماية، وكان حينها الرماة قد تركوا ساحة المعركة وتوجهوا بأقواسهم جميعا نحو الأمير أرون والذي كان قد تمكن بالفعل من إحكام ذراعه حول عنق خولة بعدما تسلل وسط الظلام والتفت خلف الجيش مختفيا

بين أغصان الشجر حتى وصل إلي فريسته دون أن يشعر به أحد، وهكذا صارت خولة رهينة في قبضة أشع رجل عُرف في هذا العالم، وهو الذي كان تحت نظرات الأمير جابر الذي راح يطالعه بعينين فرعتين من أعلى.

تابع الرماة الرهينة بحذر، دون أن يتجرأ أي واحد منهم إلى إفلات قوسه، فالأمير أرون كان حريصا على استعمال كل الخبث الذي يملكه للاختباء خلف خولة والاحتماء بجسدها في حال قرر أحدهم مهاجمته، حتى أنه جعل يغرز ذبابة عصاه في عنق خولة فسال منها خيط دم حارق، الآن وبيننا يتراجع الأمير أرون بخطوات ثابتة وحذرة نحو الغابة ليختلي برهينته، إذ بشيء غريب يهبط عليه كالطير الجارح من السماء فجأة، وقبل أن يدرك أمير أرض الرماد ما وقع له فإنه وجد نفسه يتدحرج بعيدا عن رهينته ويتقلب في التربة، وأسرعت جانتا في تلك اللحظة نحو خولة فأوقفت نزيف الجرح الذي أصاب عنقها فيما رفع الأمير جابر نفسه عن الأرض بصعوبة ونظر في الظلام يبحث عن غريمه بعدما تمكن من إنقاذ خولة من بين برائنه، وحالما لمح حائل مهاجمته، لكنه شعر بألم عنيف في كتفه بسبب السهم الذي أصابه قبل ذلك، لكن الأمير أرون وما إن رأى الرماة قد حوطوه من كل جانب حتى ابتسم

في وجه الأمير جابر ابتسامة خبيثة ولم تمضي غير لحظة وكان القنطور قد انتشله من على الأرض بعدما جاء يخترق الصفوف فجأة في هيجان شديد لينقذ سيده وغاب به بعد ذلك في الغابة.

بينما كان الرماة يعيدون تجميع صفوفهم في الخط الخلفي مرة أخرى فإن رشا وضعت رأس خولة في حجرها وجعلت تصيح نحو الأمير جابر بصوت مختنق:

- "سيدي، خولة ليست بخير أبدا، أظن أنه قد تم تسميمها...".

وأتى الأمير جابر نحوها يمشي بصعوبة وهو يمسك كتفه المصاب:

- "يبدو أن ذلك الخبيث لم يكن ليدعها بسهولة هكذا، فتلك العصي التي بيده تحوي سما كما قلت..".

ووصل القائد ليث إليهم هو الآخر:

- "سيدي، رأيتك تقفز من السماء فجأة، هل أنت بخير؟".

قالت رشا بصوت قلق:

- "أظن أنه ينبغي علينا التراجع، الأمير مصاب وكذلك خولة... وتلك

الكائنات الغريبة تجعل الأمر أكثر تعقيدا..!!"

وسألها الأمير جابر قائلاً:

- "أي كائنات تقصدين بقولك؟".

- "النار يا سيدي، إنها من فعل تلك الكائنات المجنحة، هنالك مجموعة منها تحلق في الظلام وتقوم برمي جنودنا بقبضات من طين لا تلبث أن تنفجر بمجرد أن تلمس أهدافها...".

- "قلت أنها... وأين هي الآن؟".

وأشارت رشا بيدها نحو موضع عال في الطرف الشمالي من أرض المعركة، حيث تتمركز مؤخرة جيش التحالف الآخر وأردفت:

- "يبدو أنها خرجت في غفلة منا، ثم إن بعضها يعود إلى الحفرة ليأتي بالمزيد من تلك الطين الحارقة...".

قال الأمير جابر وهو يضغط كتفه متألماً:

- "تلك حمم من باطن الأرض قد أتقنوا صنعها بتلك الطريقة فجعلوا منها سلاحاً فتاكاً، حسناً... سوف نتراجع في الوقت الراهن...".

قال القائد ليث مندفعاً:

- "سيدي!!"

ولمح الأمير جابر بعد ذلك العجوز حيدر وهو يجمع أحجارا في حجره
فيروح يقذف بها الأعداء من مبعدة فلا يصل إليهم منها إلا نيته الصادقة،
وأغمض عينيه بعدها وقال بحسرة:

- "مُر الجيش فليترجع يا ليث، إلى الأرض الناعمة، إنهم لن يلحقوا بنا ما
دام الحاكم لم يظهر...".

والتفت القائد نحو أرض المعركة ينظر بحسرة وهو يعرض على أسنانه
غيضا.

الدمية

بعد ساعة، كان الجانب الجنوبي من ساحة القتال قد فرغ تماما من الجنود ولم يبقى فيه غير آثار القتال من خوذات ساقطة ودرع مضروبة وسيوف محطمة ودماء متخثرة على العشب المتكسر، فيما راحت الجيوش المتحالفة مع الحاكم في جمع شتاتها وإعادة تنظيم صفوفها، وأمر الأمير شهاب حينئذ بعض رجاله فأخذوا في سد طريق النهر وإعادة توجيهه بعيدا عن الحفرة، أما في الأرض الناعمة فعمد الأمير جابر إلى إراحة الجيش فجعلهم يشعلون نارا لطهي الطعام وفرقوا الماء بينهم ليرووا أفواههم العطشى فيما أخذ بعضهم جذوع الأشجار للإلتكاء عليها واسترجاع أنفاسهم، أما رشا فجلست على العشب في تلك اللحظات تسند رأس خولة إلى حجرها مرة أخرى وكانت تهذي من الحمى وكأنها تحاول قول شيء ما، ورأت رشا الأمير جابر وهو يقترب منهما فقالت وهي ترى دما قد تسرب خارج درعه:

- "سيدي، إن جرحك ينزف".

- "لا بأس، سوف يندمل بعد لحظة، كيف حالها؟".

- "ليست بخير أبدا".

- "هذا لأنّ السم ينتشر في بدنها، حسنا، سوف أرسل الغربان لإحضار السيدة مريم".

وهنا انتبهت رشا لأمر كانت قد نسيتته تماما:

- "لحظة، ربما...".

وراحت تبحث في ثياب خولة فوجدت جرابا صغيرا مخبئا عند خصرها ففتحتة وجعلت تبحث بداخله، وبعد لحظة أخرجت منه عشبة برية فحملتها بحذر وهي تقول بأسارير مبتهجة:

- "لقد علمتني بعض الأشياء عن هذه الأعشاب، وإذا كنت أتذكر جيدا فهذه تستعمل لحالات التسمم".!

- "هل أنت واثقة؟".

- "أجل، إنني واثقة من هذا".

- "حسنا، قومي بما عليك حالا".

تراجع الأمير جابر بعد ذلك بعيدا عن رشا ليدعها تحضر الدواء بتلك العشبة وذهب نحو مكان مظلم في الغابة لا يصله نور القمر فجلس على الأرض ونزع درعه ليتفقد الجرح في كتفه فوجده وقد شفي تماما، ثم إنه نزع

قناعه الخشبي واتكأ على جذع شجرة وأغمض عينيه وراح في تفكير عميق يحاول البحث في قرارة عقله عن أنسب شيء يمكن عمله لإدارة هذه المعركة.

في الصباح وبيننا تشرق الشمس ساطعة على جنبات الغابة الناعمة، وفيما تناول رشا قربة ماء إلى خولة لتبلل ريقها بعدما أفاقت من غيبوبتها، فإن فتاة صغيرة ظهرت من الظلال فجأة وجاءت نحوهما وهي تحمل دميتها الخشبية بين يديها بينما يتبعها خمسة رجال من خلفها يحرسونها وما إن رأتها رشا حتى قامت واقفة من فورها:

- "الأميرة مايا! ما الذي تفعلينه هنا، إن المكان ليس آمناً، ونحن في خضم معركة خطيرة".

ولكن الأميرة الصغيرة نظرت مباشرة إلى خولة وقد أحزنها سوء حالها:

- "هل أنت بخير يا آنسة خولة؟".

وأجابتها رشا:

- "لقد أصيبت بنصل حاد كان يحتوي سما في آخره، ولكنني صنعت لها دواء مناسباً، وهي الآن تستعيد عافيتها بسرعة".

- "هذا جيد، أتمنى أن تشفي بسرعة... لكنني لا أرى أمير أرض الغابة، فأين هو يا ترى؟".

- "أنا هنا، أيتها الأميرة...".

ونظرت الأميرة الصغيرة خلفها وهي تبسّم:

- "لقد وصلتني رسالة".

وهنا دنى حارسها مٌثاب نحوهما وأخرج من ثنايا درعه ورقة صغيرة ملفوفة بعناية وقدمها إلى الأمير جابر ثم عاد إلى مكانه.

قرأ الأمير جابر الرسالة دون أن يُظهر أي رد فعل يذكر، لكنه وما إن انتهى من قرائتها حتى أعادها إلى مايا وقال بعد ذلك:

- "هل عرفت من المرسل؟".

- "لا، لقد جاء بها طائر صغير يحملها بين قدميه فألقاها على الأرض قريبا مناثم غادر مسرعا".

- "هذا يبدو ضربا من العبث، كيف يمكن لدمية خشبية أن تقضي على ساحر قوي، هذا لا يعقل".

- "أجل، إنه أمر غريب حقا".

- "ألا يمكن أن تكون والدتك هي من قامت بإرسالها من باطن الأرض؟".

- "هذا يعني أنها ما زالت على قيد الحياة أليس كذلك؟".

هنا رفع الأمير جابر رأسه نحو السماء إذ شعر باضطراب الغراب فرآه يحرك جناحية في مكان واحد بينما يحدق بعينه نحو مكان واحد جهة الجبل، ثم إذ به ينعق نعيقا مرتفعا بث القشعريرة في بدنه، وما هي إلا لحظة وجاءت ريح حارة فمرت على الغابة الناعمة أحست بها حتى الحيوانات المختبئة فخرجت من مخابئها وفرت هاربة نحو المشرق.

نظر الأمير جابر بعد ذلك في عمق الظلال بين الشجر بعينين ضيقتين حيث شعر بشيء غريب يأتي من تلك الناحية، وفي تلك اللحظة أتت الأميرة هند فوقفت بجانبه وقالت بصوت قلق:

- "إنهم سوف يصلون إلى هنا بعد دقائق، علينا أن نعد صفوفنا بسرعة".

والتفت الأمير جابر حينئذ نحو رشا:

- "تراجعا إلى الخلف حالا، إن هذا المكان سوف يتحول إلى أرض معركة" ثم إنه صاح بعد ذلك في الجميع بأعلى صوته: "لينتظم الجميع حالا، فالعدو قادم نحونا بسرعة.... ليث، أعد الصفوف حالا وتأهب لقيادة المعركة".

وما هي إلا لحظة ووقف القائد ليث في وسط الساحة وراح يصيح في

الرجال بأعلى صوته:

-”الفرسان أولاً، ثم الجنود ثم الرماة، وليبقى القرويين في المؤخرة، مثلما كان الأمر عند الهوة، لنعد تشكيل صفوفنا على ذلك النظام تماماً”.
وراح يتنقل بحصانه بين الصفوف ليتفقد ترتيبها.

الحاكم

بعد ساعة واحدة، انفجرت جنبات الغابة الناعمة بأصوات الطيور التي غادرت أعشاشها في جماعات وحلقت في اضطراب مبتعدة، وبينما توجهت أبصار الجيش الجنوبي نحو الجانب الشمالي من حافة الساحة الواسعة، إذ بعلم أسود ممزق يظهر من بين الظلال مرفرفا يحمله رجل من أرض الرماد وتلته طبول وقرعات حرب تبث الرهبة، وبدأت أسنة جيش العدو تندفق إلى الساحة من بين الظلال وتتوافد، وكل ذلك تحت نظرات عيون ذاهلة، راح أصحابها من جيش التحالف الجنوبي يتلقفون المشهد بقلوب ترتعد، حتى إذ انتهى السيل وترتب كان النصف الشمالي من الساحة قد امتلأ بجيش عظيم له ألوان ثلاثة، يحد يمينه جيش أرض الرياح بألوانه البيضاء وأميره شهاب ذي الأناقة البارعة والنظرات التي لا تعرف إلى الهزل سبيلا، ويتقدمه النسر العظيم ذي الوقار والهيبة، واقفا على ساقيه بينا تتنقل حدقتي عينيه في سرعة خاطفة في الفراغ أمامه، وأما عن اليسار فانتظم محاربوا الأمير أرون في شتات ظاهر وهم اللذين لم يسبق لهم أن عرفوا للإنتظام سبيلا، ووقف أمامهم أميرهم بصولجانه يحدق بعيدا بعينيه الخبيثتان في تأمل،

وبجانبه كان القنطور يقف لا يحرك ساكنا غير منخاريه اللذان كان ينتخفان ويتقلصان بسرعة كأنه متعطش للقتال مرة أخرى، هذا بينا امتلأ الوسط برجال أرض النار الذين جاءوا حفاة الأقدام ليس بينهم خيل أو مركبة، لكن في ثياب قليلة متسخة، حاملين سيوف قصيرة بينا تغطي رؤوسهم خوذات عشوائية كأنها من جذوع الشجر المحترق، ومضت لحظات من القلق والترقب وكل ما يمكن لجندي خائف على صهوة جواده كان أو واقفا على قدميه في مؤخرة الجيش أن يشعر به من مغص وخوف ورهبة، ولم يطل انتظارهم كثيرا، إذ حدث فجأة شرخ في صفوف جيش أرض النار فجعلوا يخلقون بينهم طريقا وهم يهتفون بهمهمات غريبة ويضربون أسلحتهم على صدورهم، وفي خضم كل ذلك الترقب إذ برجل قصير الهيئة يخرج من بينهم ملفعا في عباءة رمادية كأنما يشتم الطريق ثم ظهر من خلفه رجل عظيم الهيئة في درع حمراء حربية وجاء من بين الجمع الكثير في خطى بطيئة حاملا بيده سيفا ثقيلًا يجره خلفه وتغطي رأسه خوذة صلدة تخفي وجهه تشبه رأس الماعز، هدأت الأصوات بعد ظهوره مباشرة، حتى أصوات الرياح حول الغابة، فكأن الزمن قد تجمد، وكان هذا الرجل هو ذلك الشخص الملقب بالحاكم وقد وقف أمام الجميع يطالع الجيش الجنوبي ببصر شبه مغلق، ثم وفي حركة مفاجئة إذ به يلوح

بسيفه فيلقي به بعيدا إلى وسط الساحة فينغرس فيها في حركة بديعة تنبئ
عن استفزاز وتعالٍ واضح.

إن الحاكم رماح قد خرج أخيرا إلى السطح بعد مئات من السنين قضاها
مسجوناً في باطن الأرض رفقة أتباعه، وها هو الآن يضع قدميه على أرض
الغابة الناعمة ليستنشق هواء نقيا ليس فيه رائحة الصخور المحترقة، يوم
مشؤوم على هذا العالم، يوم لطالما خاف الناس من ذكره وعزفوا جميعاً على
تخيله حتى بينهم وبين أنفسهم فتحول إلى مجرد حكايات وأساطير يتناقلها
الكبار فيما ندر، لكن كل منتظر لآبد آت، والآن وبظهور هذا الرجل على
السطح مرة أخرى وبغياب السحرة الأقوياء اللذين من المفترض أنهم
الوحيدون من يملكون القدرة على مواجهته، فقد صار هذا الحمل الثقيل
بكله ملقياً على الأمراء الثلاثة وحدهم، وبالأخص أمير أرض الغابة، كذلك
ترجل الأمير جابر عن سهوة جواده تحت اعتراض أتباعه وتحذيراتهم، لكنه
راح يتوجه نحو عدوه في خطوات وثيقة، كان السيف الذي ألقاه الحاكم في

وسط الساحة نداء له لا أكثر، والتقيا قريبا منه بعد ذلك، وكان الملك يتفوق في الضخامة بشكل واضح، وكان أول من ابتدأ الكلام وهو يرمق الأمير جابر بنظرة احتقار يتأمله، راح صوته ينبعث من تحت قناعه البشع مثل الصدى البعيد الخشن:

- "أهلا بك يا أمير الغابة، قد سمعت عنك بعض الأخبار الجيدة، لا أخفيك قولاً أنني لطالما كنت خائفاً من شيء واحد قبل خروجي إليكم، وهو ألا أجد ما أمتع به نفسي، فكما تعلم... منقذكم قد لفظ روحه منذ زمن، ولم أحسب أنه بقي على السطیحة من يفكر في الوقوف في طريقي".

تحركت ریح غربية وأتت على كل ورقة في الغابة فحركتها وأمالت عشب الأرض شرقاً لكن الأمير الملقب بالسواد لم يحرك ساكناً، حتى لم يرمش بعينه مرة واحدة، وشعر الملك بهالة من الثقة تغلف ذلك الرجل الواقف أمامه، وهو أمر لم يعتده منذ واجه الساحر نجيد قبل مئات السنين وعاد يقول بعد ذلك بذات النبرة القاسية:

- "حسناً اسمعني أيها المأفون المغفل، إنني أدعوك لأن تنظم إلي الآن وتكون ساعدي الأيمن، أنا راغب في استبدال ذلك الأحقق شهاب بك الآن وحالاً، ما رأيك؟".

وهنا نطق الأمير شهاب قائلاً وهو يضع يده على غمد سيفه:

- "وهل تأمنني على نفسك؟".

- "لا، لأصدقك القول... حتى لم يسبق لي أن وثقت في أي مخلوق قبلك".

- "يبدو أنك والساحر نجيد كنتما تشبهان بعضكما في شيء واحد، أنا متأكد من أنك حاولت أن تغدر به في يوم ما...".

- "ذلك المغفل؟... أجل، معك حق... كان قويا وهائجا جدا، ومع ذلك لم يكن يثق في أي أحد يقترب منه، حتى صديقه المقرب...".

- "لكنه نجى من مكرك بفضل ذلك...".

- "لم تكن لدي فرصة أمامه، لذلك كان على أن أعمد إلى طريقتي الخاصة لإزاحته عن طريقي، لكنه كان حذرا أكثر بكثير مما كنت أعتقد...".

- "دعني أسألك سؤالا، هل تعرف حقا ما الذي أنت مقبل على مواجهته إن أنت استطعت تجاوزي؟".

- "ليس مهما من سيأتي ليقف في طريقي، جميعكم ستسحقون تحت سيفي هذا... والآن أخبرني أيها الفتى، هل ستعطيني الغراب أم آخذه منك بالقوة؟".

وشعر الأمير بالإندهاش إذ لم يفهم ما رمى إليه الحاكم رماح بقوله،

وضيق بصره تعبيرا عن دهشته، ولما رأى الحاكم منه ذلك أردف:

- "يبدو أنك لم تفهم ما قلت، أو أنك لا تعرف ما يعنيه امتلاكك لوحش كهذا... حسنا، لازلت لم تتحدث، أنت لا تعلم ما هي مقدرته الحقيقية أليس كذلك؟".

“عن أي شيء تتحدث تحديدا؟” .

- "هأ، هذا ما ظننته... أنت لا تدري أن هذا الغراب كان ملكا للساحر نجيدا!!... حسنا أنت الآن تعلم، وإذا كان الأمر كذلك هل تظن أنه كان سيكتفي لحماية نفسه بمجموعة من الغربان الصغيرة!! خسئت".

تنهد الأمير جابر ليزيح ذلك الثقل الذي تجمع في حلقه جراء ما يسمع :
- "لن أمانع إخبارك لي عن هذا الأمر أبدا كما تعلم!!".

ودنى الحاكم إلى الأمام خطوتين حتى وضع يده على غمد سيفه الذي كان مغروسا في الأرض حتى هذه اللحظة وقال وهو ملفع بهالة من الغرور والتعالي:

- "دعني أخبرك بالقصة إذن قبل أن أخلع رأسك... نجيد لم يحمي نفسه مني إلا بتلك الغربان الوقحة، ألم أخبرك أنه كان أقوى رجل عرفته الأرض في ذلك الزمن! كان بارعا في السحر بحيث صنع لنفسه درعا صلدا لا يمكن اختراقه، كانت ليلة مقمرة من ليالي الغاب في ذلك الوقت من السنة، وكان

نائماً في خيمته بعد سهر طويل قضاه في تتبع التعاويذ وتطويرها، حسناً، خلّتني كنت بارعاً في التسلل، ولم أرى كم العيون الهائلة التي ظلت تراقبني عبر الظلام وأنا أتسلل إلى خيمته... لكنه كان بالفعل قد جمع كل غريبان الغابة وقيضها لخدمته، ولم أشعر بعدها إلا وأنا أطيّر في السماء تحملني غيمة سوداء فتلقي بي بعيداً، ولولا قدراتي حينها لكنت أردتني ميتاً بسهولة...".

ورفع الأمير جابر بصره حينها إلى الغراب وكان يحلق في السماء في حلقات دائرية كأنما يراقب جيفة ما فتأمله للحظات وعاد بعدها نحو الحاكم:

- "أقلت أن له قدرة غير التفرق إلى غريبان صغيرة؟".

- "أجل...".

- "وماذا عن الوحوش الأخرى، هل كلها تملك مقدرات أخرى؟".

- "ها...".

...

- "لطالما كان نجيد يفضل أرض الشجر على باقي الأراضي الأخرى، ولذلك اختصها بوحشه المفضل فسلمه إلى جدك الأول ثم صنع باقي الوحوش وجعلها على الأراضي الأخرى، لكن الغراب يبقى هو الأقوى من بينها

جميعاً، وطبعاً أنت لا تعرف كيف تستخدمه، لذلك ما رأيك أن تدعني أعلمك كيف تفعل ذلك؟”.

قال الحاكم ذلك وضحك ضحكة فيها من الشر ما يكفي لتظهر نيته الخبيثة واضحة في صوته، لكنه سرعان ما انتهى من الضحك وعاد يقول بعد ذلك بجدية ترسمت سريعاً في عينه:

- ”بالمناسبة، دعني أشكرك لأنك أثرت الإبقاء على ذلك المتجول ولم تقم بقتله حتى هذه اللحظة...” .

وضيق الأمير جابر نظرتة في الملك إذ لم يفهم ما رمى إليه بقوله ذلك، وحينها تابع الحاكم كلامه:

- ”تظنون أن المتجول قد أُطلق لیسرع من ظهور البوابة العظمى فقط! لا... لا... إنما كان يطيل عمري... أجل، كان يطيل عمري لا أكثر... ذلك أنه كلما قتل شخصاً كان يمنحني حياة أخرى... كل شخص كان يموت كانت روحه تمنحني يوماً من الحياة، وإلا فإن أرواح جيشك هذا هي أكثر من كافية لفتح البوابة الكبيرة... الأمر المذكور في كتاب السحر الذي أقدمت على تدميره، إن السحرة الذين ترتفع قوتهم فيصلون إلى المستوى الذي وصلت إليه أنا ونجيد سيكون بمقدورهم ربط أرواحهم مع أرواح الموتى، وهو أمر لم أتردد لحظة

واحدة في استغلاله، لكن نجيد كان شخصا لطيفا بحث فضل أن يمسه الشيب على أن يعبث مع أرواح الموتى...” وأحدث كلام الحاكم هذا عاصفة في صدر الأمير جابر فشعت عيناه وثار غضبه، وحينها أضاف الحاكم قائلاً: ”إن البوابة كانت ستُفتح لا محالة، إلا إذا وجدتم طريقة مفاجئة لتجنب هذه المعركة...” .

الآن ولما كان مقصد الحاكم من هذا الكلام هو أنه سوف يقوم بقتل كل رجال الجيش الجنوبي حتى آخر واحد منهم فإنّ الغضب قد اشتد بالأمير جابر إلى حد تسارعت له نبضات قلبه، ولذلك فقد استل سيف والده الأسود وألقى بالعمد بعيدا واتخذ وضع الهجوم وقال بنبرة تشدد قساوة مع كل حرف يقوله: -”لن تمر لأبعد من هذا، حتى لو هزمتني، سأحرص على ألا أتركك خلفي...” .

وهنا حرك الحاكم رأسه يمينا ويسرة ثم أغمض عينيه للحظة وما إن فتحتها حتى قام لهب في الجزء الأيسر من صدره ووجه، وصاح بعد ذلك بصوت عالٍ وأخرج ذبابة سيفه من الأرض وقام فاندفع كالسهم الغادر نحو الأمير جابر.

صراع

راقب الجميع الأمير جابر والساحر رماح بعد ذلك وقد راحا في قتال أولي يختبران فيه قوة بعضهما البعض، فكان يوجهان ضربات متوسطة القوة ثم يتراجعان ثم يشتبكان مرة أخرى، كانا سيفاهما يلتقيان ليتفجر منها شرر حارق، كان كتف الساحر رماح يشتعل مع كل ضربة، فيما كان الأمير جابر يوجه ضرباته الخاطفة بعناية وحذر بالغين، كانا محاربان من الخيرة، فحركاتهما وهما يتقاتلان وسط تلك الحلقة بدت بديعة للعين رغم ذلك، في لحظة انفصالهما التالية وقف كل في مكانه وقال الساحر رماح بصوت الغليظ المتحجر:

- "أتعلم، يجب أن تنظم إليّ ولا تقف في وجهي، فأنت يمكن أن تحلّ محلّ أولئك الحمقى، إنك قوي بما فيه الكفاية لأعتمد عليك كساعدي الأيمن".

وقال الأمير جابر وهو يرمقه بنظرة كره متقد:

- "حتى إذا أتيت بعشرة من أمثالي، فلن يفيدوك في شيء هنالك في الخارج، إنّ ما يوجد خارج هذا العالم لهو شيء أكبر من أن تتخيله، ولسوف تتم إبادة

جيشك في ساعة واحد، حتى هذا السحر الذي تفتخر بامتلاكه لن يكون ذا فائدة”.

-”فلماذا أنت تقف في طريقي إذن، إنك خائف من أن لا تستطيع النجاة في الخارج؟”.

-”لو كان الأمر سيتوقف عندك فقط لما فكرت لحظة واحدة في اعتراض طريقك، ولكنك بمجرد أن تعبت معهم ويدركوا وجودنا هنا فإن ذلك سيكون بداية نهاتنا جميعا...”.

-”يا لك من جبان أحق، لقد بدأت تُضعف صورتك! وإني أكره الضعفاء كما تعلم، ولا أتردد لحظة واحدة في قتلهم”.

-”ليس مهما عندي كيف تراني أيها المتجبر، ولكنك مشير للشفقة، لقد أمضيت مئات من السنين تحت باطن الأرض، دون أن تدرك ما الذي كان يحدث فوقها، والآن تظهر للعلن وفي اعتقادك أن كل شيء ما زال على حالة، صحيح أننا هنا لم نتطور كثيرا، لكن العالم الخارجي قد تغير بالكامل، إنهم أقوى مما يمكن أن تتخيله”.

وقال الساحر وهو يشخر مثل ثور هائج:

- "لا بأس بذلك، سأرى ما يمكن فعله عندما أخرج، ولكنك قررت أن تقف عقبه في طريقي، فدعني أقطع رأسك الغبي هذا حتى لا أضطر لسماع جبنك الذي يثير اشمئزاي".

حاول الأمير جابر أن يراقب حركة الساحر التالية، لكنه اختفى من مكانه فجأة وظهر أمامه مباشرة، ولولا ردة فعله السريعة لكان قد تمكن منه بضربة واحد من سيفه.

قالت رشا بصوت مرتعد وهي تشاهد الأمر بعينين مرتعشتين:

- "هل أصابه؟".

ونظقت الأميرة الصغيرة تجيبها:

- "لا، لم يتمكن من إصابته، لقد تجنبها أمير أرض الغابة في آخر لحظة".

ارتعشت عينا خولة هي الأخرى وهي تقف بجانب القائد الذي كان يتنفس بصعوبة في تلك اللحظة وهو يطالع سيده بعينين تكادان تنفجران غضبا، لكنهم كانوا يدركون جميعا أن الأمير جابر ما كان ليرضى لهم التدخل في تلك اللحظة، ولذلك راحوا يراقبونه بقلوب تخفق خوفا وتتسارع.

فإذن فقد صد الأمير جابر سيف الساحر الذي كاد يصيب عنقه بسيف والده في آخر لحظة، ثم إنه جذب سيفه حتى احتك بسيف الساحر محدثا شرارة وصوتا ونزل على الأرض ودار خلف الساحر بخفة وبراعة فركله ركلة قوية على ظهره أفقدته توازنه ثم تراجع إلى الورااء خطوتين وبين يلتفت الساحر نحوه إذ بعدد من الغريبان السوداء تنزل أمام وجهه لتجذب عنه الرؤية، لكنه لوح بسيفه نحوها فاحترقت جميعها في لمح البصر، وبيننا تسقط على الأرض مثل الثمار الفاسدة إذ بالأمير جابر يظهر من بينها فينشب ذبابة سيفه في صدر الساحر.

تراجع الأمير جابر بعد ذلك بضع خطوات بسرعة وجعل ينظر في سيف والده مستغربا، وحينئذ أتاه صوت الساحر يقول باستهتار وتعال:
 - "أحمق، لا يمكن لقطعة معدن مهترئة أن تخترق جسدي...".
 - "هذه ليست مجرد قطعة معدن".
 - "لا يهم، لتكن ما كانت.... لقد كنت حتى اللحظة تستعمل سرعتك الكبيرة في مواجهتي، وأنت تعتقد أن ميزتي تكمن فقط في صلابة درعي، فما رأيك الآن وقد رأيتك سرعتي؟".

- "لن أكذب عليك إن قلت أنّ مواجعتك لن تكون سهلة، إنك قوي حقا".
 - "هذا رائع، بل بديع حقا، إن خصمي الضعيف يعترف بتفوقي، والآن ينبغي علي أن أنتهي منك قبل أن تنفذ طاقتي".

قال الساحر ذلك وتحرك في سرعة البرق حتى بدا وكأنه قد اختفى عن الوجود تماما، لكن ورغم أنه الأمير جابر قد استطاع تتبع حركته إلا أنه لم يتمكن من تجنب ضربته، فلم يشعر إلا وقد تلقى ركلة قوية على ظهره ألقته على الأرض فراح يتقلب لعدة أمتار بعيدا عن مكان وقوفه.

قام بعد ذلك عن الأرض بصعوبة واستقام واقفا يستند على سيفه.
 - "قم، فأنت لن تموت بضربة كهذه، أعلم أن جراحك تشفى بسرعة، ولذلك لن أنتهي منك ما لم أنزع رأسك عن جسدك...".

قال الساحر ذلك وهو يقترب من الأمير جابر بخطوات سريعة متوعدة، وما إن وصل عنده حتى وجه إليه ركلة قوية ألقت به بعيدا على الأرض مرة أخرى، ثم إنه اقترب منه كالشبح في لمح البصر فرفع سيفه عموديا وجعل يهوي به نحوه يريد قتله، لكن الغراب الكبير جاء من السماء فجأة وأنقذ سيده من موت محقق.

الآن نظر الساحر فيما حوله ثم رفع بصره إلى السماء فرأى الأمير جابر محمولا بين مخالب الغراب فجعل يغرس قدميه في الأرض بينما يظهر فيهما لهب وكأنه يريد الوثوب نحوه غير أنه تراجع عن ذلك لما رأى الغراب ينزل نحوه، وأعدّ الساحر رماح نفسه للقاء الغراب لكنه وفي اللحظة الحاسمة للقاءهما انفجر الغراب الكبير أمام وجهه فحجب عنه الرؤية وانفصل إلى غربان كثيرة راحت تحلق في عشوائية وكلما حاول ضربها بسيفه إلا وهربت مبتعدة، وعندما حاول البحث عن الأمير جابر فإنه رآه ينتقل في الهواء معتمدا على الغربان مثل كرة المطاط فكان يضرب الغربان بقدميه ليقفز من مكان لآخر، فقال الساحر حينئذ بصوت حانق:

- "أيها الأحمق، إنك تجعلني أتردد في قتلك، هذا... هذا بديع حقا".

كان مشهدا يحبس الأنفاس بحق، فقد كان الساحر محتجزا بداخل كرة عملاقة من الغربان الهائجة، فيما كان الأمير جابر ينتقل بداخلها بحرية مستعملا أجساد الغربان للاندفاع من مكان لآخر في خطوط مستقيمة ومتعكسة.

اندفع الأمير جابر فجأة نحو الساحر وأصابه في كتفه، ثم عاد من موضع آخر وأصابه في ساقه ثم في ظهره، وفيما بقى الساحر واقفا لا يحرك ساكنا

يحاول تتبع الأمير جابر بعينه المختلفتين تحت ذلك القناع المفزع، فإن شعوره بالغضب راح ينمو شيئاً فشيئاً، وفي لحظة بدأ جسده يشتعل ناراً بالكامل، وحينئذ كثف الأمير جابر هجماته حتى أجبر الساحر على محاولة صدها، لكن الغربان كانت تشوش عليه الرؤية دون توقف، ولذلك صاح فجأة بأعلى صوته فاضطربت النار من حوله حتى بدأ وكأنه سينفجر انفجاراً عظيماً يهلك كل شيء من حوله، وحينئذ أمر الأمير جابر الغربان فتراجعت جميعها وعادت في جسد واحد وراحت تحلق مبتعدة.

خبت النار في جسد الساحر رماح بعد ذلك، وفي تلك اللحظة التفت نحو الأمير جابر يقول بغضب عارم:

- "أيها الغبي الأحمق، لقد أجبرتني على استعمال جزء كبير من طاقتي...".
ثم رفع ذراعه عالياً وصاح في جنده بأعلى صوته:
- "ليبدأ القتال حالا، اهجموا...".

وهكذا راحت صفوف الجيش الشمالي تندفع كالموج إلى وسط أرض المعركة، ولم ينتظر القائد ليث أمرا من سيده فراح يصيح بدوره في الجنود من خلفه:

- "أيها الرجال، اهجموا....".

وهكذا اشتبك الجيشان في وسط الأرض الناعمة، بعدما تركتها الخيول البرية وفرت هاربة بنفسها، اصطدم الفرسان أولاً بخيولهم ورماحهم وسيوفهم، فسقط عدد كبير منهم تحت الأقدام ثم قام عدد منهم لمواصلة القتال إذ لم تكن إصاباتهم بالغة، فيما راح الرماة يطلقون السهام من الجانبين في رشقات متتالية، غير أنّ النسر والغراب قد تمكنا من صد معظمها بجناحيهما، فيما التقى القنطور مع التمساح على الأرض وراحا في صراع عنيف دامي كوحشين عملاقين يتصارعان بينما يتقاتل الرجال مثل السناجب الصغيرة تحت أقدامهما.

بحث الأميرة هند عن الأمير شهاب فرأته يقف بعيدا في مؤخرة جيشه بينما يصوب نشابه نحو أعدائه دون أن يزعجه أي أحد، لكنها رأته بعد ذلك الأمير آرون وهو يفترس الصفوف بعصاه السامة مثل عنكبوت قاتل، لكنها قررت التوجه لمساعدة الأمير جابر بدلا من الذهاب لمواجهته.

كان الأمير جابر قد اشتبك مرة أخرى مع الساحر لكنه لاحظ أنّ سرعته قد خفت بشكل كبير عن السابق، وكان قد افترق عنه منذ لحظة حينما سمع صوتا يخاطبه عن مقربة:

- "أيها الأمير جابر، سوف أساعدك على قتاله...".

ونظر الأمير جابر إلى يمينه فلم يرى أحدا.

- "حسنا، يبدو أنه قد فقد كثيرا من طاقته، إنَّ الذهب في كتفه ينطفئ، كما أن سرعته صارت أبطأ".

- "هذا رائع، لكن... ذلك الرجل في العباءة الرمادية، إنه لا يتوقف عن الظهور والاختفاء بين لحظة وأخرى، أمره غريب حقا".

- "أجل، لقد لاحظت ذلك... لكن لا أظنه سوف يهاجم، إنه لم يحرك ساكنا منذ بدأ هذا القتال، يبدو أنه لا يشكل خطرا كبيرا وإلا لما اكتفى بمراقبة سيده من مكانه".

وقف الساحر رماح في وسط المعركة يحاول العثور على عدوه، كانت عيناه الدفینتان تتحركان بسرعة بين الرجال المتقاتلين من حوله، كان يشعر بشيء غريب يتحرك من حوله غير أنه لم يستطع رؤيته، وفي لحظة شعر بنصل حاد يخترق بطنه.

نظر لأسفل فرأى الأمير جابر وقد تمكن من إصابته إصابة مباشرة، ففغر فاه بغضب وكشر عن أسنانه الكبيرة:

- "أيها ال...".

وسحب الأمير جابر سيفه وابتعد عن الساحر بسرعة.

- "إن جراحي تشفى حتى أسرع بكثير من جراحك".

قال الساحر ذلك ورفع ذراعه نحو الأمير جابر وأطلق من يده قذيفة من اللهب نحوه، وتجنبها الأمير جابر فوقعت على رجل من جنوده فأحرقته، وحينئذ اعتدل واقفا وقال للأميرة هند:

- "هذا لن يجدي معه نفعا، اسمعي ما سوف أقوله...".

بعد ربع ساعة من القتال وبيننا سقط عدد من الرجال من الجانبين تحت أقدام الوحوش المتقاتلة فإن الأمير جابر وقف يراقب الساحر رماح وهو ينسحب من أرض المعركة، راقبه للحظات حتى يتأكد من أنه لن يهاجم رجاله، ثم راح بعد ذلك يبحث عن الأمير آرون بين كل ذلك الهرج الحاصل. وجاء القائد داغر نحو الأمير جابر وهو مضرج بدماء أعداءه.

- "سيدي، إنهم يفوقونا عددا، إننا نخسر المعركة، لقد فقدنا عددا كبيرا من رجالنا، ماذا نفعل؟".

وأجاب الأمير جابر بينما يبحث بعينه الحائرتين بين الخيول الهائجة عن

غريمه:

- "اجعلهم يصمدون قليلا يا داغر، إن الأميرة رها قد وصلت بجيشها، إنها على أعتاب الغابة الناعمة، وسوف يساعدنا العقرب على إمالة الكفة".

في مؤخرة الجيش الشمالي وقف الساحر يطالع كتفه بسخط، وحينما جاء الأمير آرون ووقف أمامه مثل كلب مطيع ينتظر أمرا فإنه قال بصوته الخبيث المتعجب:

- "سيدي، أنا طوع أمرك"!.

فخاطبه الساحر بصوت غاضب أمر:

- "خذ بعض الرجال واذهب حالا إلى الهوة لتنظر ما الذي يحصل هناك، إنني أستشعر أمرا".

- "حسنا يا سيدي، سوف أذهب، لكنني أرجوك أن تدعني أقاتل أمير أرض الغابة عند عودتي، فإن لي معه حسابا لم نقضه بعد".

- "حسنا، لك ذلك...".

قال الحاكم ذلك وراح يراقب الساحر آرون وهو يختفي بين الأشجار مثل الفأر البري السريع ثم عاد بوجهه نحو المعركة فرأى الأمير شهاب يأتي يطوف في الهواء حتى وقف بجانبه:

- "سيدي، إنّ أميرة أرض الرمال قد أتت...".

- "وهي في أي جانب؟".

- "إنها قررت أن تكون مع الأعداء يا سدي".

- "لا بأس بذلك، إنّ هذا لن يحدث فرقا، فبمجرد أن يخرج صخر سوف أحرقهم جميعا عن بكرة أبيهم".

- "بالتأكيد يا سيدي، إنّك حاكم هذا العالم، وبمقدورك أن تفعل أي شيء تريده".

- "عد الآن إلى أرض المعركة، وتجنب مواجه ذلك الرجل ذي القناع الخشبي الأسود...".

- "أتعني أمير أرض الغابة؟ إنه...".

- "اذهب حالا...".

ورفع الحاكم بصره بعد ذلك نحو السماء حيث كان الغراب والنسر

يتقاتلان بمخالبهما الحادة في شراسة بالغة.

العجوز - المتجول

بقدم الأُميرة رها رفقة العقرب فإنّ التفوق بدأ يظهر جليا من جانب التحالف الجنوبي فالأمير جابر والأُميرة رها لم يجدا من يعيقهما بعد غياب الأمير أرون وابتعاد الأمير شهاب واكتفاه بالقتال من مبعده، ولذلك فقد خاض الأميران في جيش الساحر رماح فقتلا منه خلقا كثيرا كما تعاون كل من التمساح والعقرب ضد القنطور حتى أوشكا على هزيمته فتراجع مهزوما ينزف جراحه، وحينها وفي لحظة ما نظر الأمير جابر نحو الحاكم رماح فلمح فيه أمرا مريبا، وكان الساحر قد وقف وقفة غريبة ينظر نظرات مملأها الثقة و إذ بكتفه يلتهب فجأة مرة أخرى، لكن بصورة أكبر، وتحول لون ذراعه إلى الأسود فكأنه استحال صخرا، وشعر الأمير جابر حينها أن أمر خطيرا سوف يحدث، ونظر حوله فلا حظ أن أغلب جنود التحالف الجنوبي يجتمعون في منطقة واحدة، وعاد ينظر بعدها نحو الحاكم فوجده يوشك أن يتحرك، ولذلك فقد حاول أن يصرخ بأعلى صوته محذرا جيشه، لكن الحاكم كان بالفعل قد طار في السماء بضحكة فيها من الشر والمكر ما لا يمكن وصفه، وسار المشهد في نظر الأمير جابر بحركة بطيئة، فتابع الحاكم بعينيه الذاهلتين وهو يطير فوقه

والنار تلتهب في ذراعه بينا يتفرس النقطة التي كان سينزل فيها بمكر وشراسة، وتزامنا مع انتهاء صرخة الأمير جابر فقد حط الحاكم في وسط الساحة ضاربا الأرض بقبضته الملتهبة فإذ بها ترتج ارتجاجا عنيفا وإذ بنار تخرج منها على امتداد عشرين مترا من حول قبضته فأخذت تأكل أجساد الجنود من الجانبين، وعلت صرخات الموت وانتشرت في زوايا الأرض الناعمة وراح الحاكم بعدها يجهز على المتقهقرين من جنود التحالف الجنوبي بعد أن شلّ حركتهم بناره الحارقة فخاض فيهم ضربا وقتلا بينا تنسل من فمه ضحكات شيطانية عنيفة مبديا بها استمتاعه بما يفعل، وبينما تجمدت أطراف الأمير جابر وهو يراقب أرواح رجاله وهي تطلع تباعا كان القائد ليث ورشا وخولة قد شكلوا فريقا ثلاثيا وجعلوا يحتمون ببعضهم تحت غمامة من السيوف المتضاربة، فيما اعتلت الأميرة مها ظهر عقربها وجعلت تخترق صفوف جنود الحاكم وأخذ العقرب يضرب الجموع بذيله ويفرقهم، وكذلك حاول كل من الغراب والتمساح القيام بهجمات متفرقة لكنها كانت غير ذات نفع كبير بسبب من أنهما كانا يفتقدان القيادة، فالأميرة هند كانت حتى هذه اللحظة لا تزال تؤدي مهمة أخرى في مكان آخر، أما الأمير جابر فقد شلّ فكره تماما بسبب الغضب الشديد الذي اعتراه في تلك اللحظة.

الآن وفي مؤخرة الجيش الجنوبي كان ثمة من يحاول تأدية دوره في هذا القتال وتقديم المساعدة اللازمة، فظهر العجوز حيدر حاملا معزته البيضاء تحت إبطه وقد ربط دمية الأميرة مايا على جبينها وجعل يحدثها بكلام مبهم ثم تقدم بها نحو الساحة ووضعها ع الأرض فانطلقت تعدو بين الأقدام وراحت تتجاوز العوائق تباعا حتى كادت تصل إلى الحاكم رماح لكنه لمحها فجأة فضرب الأرض بقدمه فاذا بالعنزة تطير في الهواء نحوه فأمسكها بيده والتقطها كما تلتقط الفاكهة، ونظر إليها بعد ذلك فلم يرى الدمية التي كانت على رأسها فاعتراه غضب كبير فألقى بها بعيدا من حيث جاءت وأخذ يلتفت حول نفسه باحثا عن الدمية صارخا ومزمجرا في الوقت ذاته، لكن الدمية كانت قد اختفت تحت الجثث المتساقطة فلم يتمكن من العثور عليها، وعادت العنزة تعرج نحو صاحبها، وحينئذ تلقفها العجوز وهو يتحسس ساقها المكسورة قائلا:

- "تعالى يا ابنتى، تعالى إلى والدك... إنك بطلة حقيقية، ربما تكون خطتنا قد فشلت لكنك أبليت حسنا، سنعود إلى الديار وسأضع أمامك ألد عشب شهدته هذه الدنيا، إنني سوف أكافئك على تلك المحاولة...".

الآن وفي ظل هذه اللحظات العصبية، وحيث لم يكن ينبغي للأمر أن تسوء أكثر إذ بالمتجول يظهر في وسط القتال فجأة، لم يدري أحد من أين أتى، لكنه ظهر هناك وراح يقتل كل من يقع في طريقه دون تفرقة، وبدا وكأنه كان يحاول أن يفتح لنفسه مسارا ليصل من خلاله إلى شيء ما، وحين لمح الأير جابر فقد فاهتز قلبه خوفا على خولة، لقد أدرك الأمر مباشرة، كان المتجول يتجه صوبها، لكن جسده لم يتحرك، لقد تيبس وتجمد بالكامل، شيء لم يسبق أن وقع له قبلا، حتى لقد شعر أنه سيكون بمقدور أضعف رجل هنا أن يخرج من بين الحشود ويتجه صوبه فيقتله دونما عناء يذكر، هل هو من الخوف أم الغضب؟ كلاهما كانا ينموان في صدره وعقله دون توقف، طاقة ظلام عظيمة راحت تحيط به وترسمت من حوله كالهالة، وتدفق الدم سريعا في كل أنحاء جسده، وارتعشت أصابع يده حتى سقط السيف منها، وراقبت عيناه الفزعتان المتجول وهو يفترش الموتى بعبأته المظلمة بينا يتقدم نحو فريسته.

في لحظة التي اقترب فيها المتجول من خولة وكان يهم بالهجوم عليها إذ بعيني الحاكم تقعان عليه في تلك اللحظة، فغضب غضبا شديدا لما أدرك هو الآخر ما الذي كان يريد فعله، وحينها رفع ذراعه ووجهها صوب المتجول

وهو يركز على أسنانه غضبا، وكان المتجول بالفعل قد شرع في تنفيذ هجومه على غفلة من القائد ليث والأميرة رها فإذ بشيء ما خفي يمسكه فيطوق حركته، كان ذلك مثل طاقة خفية جمدت أطرافه وحملته عن الأرض عاليا.

سقطت خولة على الأرض جريحة، وارتعشت رشا حينما انتهت لما حدث، أما القائد ليث فلم يشعر إلا بشيء مثل الظل يرتفع من خلفهم، وجال في آذانهم حينها صمت عميق رغم كل الجلبة التي كان يحدثها القتال من حولهم، مر الوقت بطيئا جدا، وقبل أن يرجعوا أنفاسهم المصطرخة بالخوف إذ بالوقت الثقيل ينفلت أمام الأمير جابر فعاد ضجيج المعركة يقوض تلك المشاهد الثقيلة اللحظية التي عاشها وتسارعت الأحداث من حوله فرأى المتجول وهو يُجذب بعيدا عن خولة فطار مثل السمكة التي تم اصطيادها حتى وقع عنقه بين أصابع يد الحاكم، فجعل يتلوى يحاول الفكاك من قبضته الشديدة ثم رفع نصله وجعل ينقش على طبقة جلد ذراع الساحر الصلبة ما نصه "إنها ستقضي عليك..." وقرأ الساحر تلك الكتابة والغضب يضطرم في بصره، لكنه وقبل أن يفهم معناها إذ بصوت مرتفع يطلع من من خلفه أصم الآذان جميعها وشد العيون نحوه، ونظر الساحر مرعوبا نحو مصدر الصوت

فاذ به الأمير جابر، ووجهه يتفرسه بنظرات شرسة، وعاد الساحر بعدها نحو المتجول فصاح فيه وهو يسحق عظم عنقه بقبضته القوية:
 -”يا كتلة العظام البالية ما الذي فعلته؟”.

وهشّم رقبتَه بعد ذلك حتى فصل رأسه وألقى بجسده بعيدا ونظر إلى السماء حيث أتى نعيق مرعب أطلقه الغراب فأدرك سريعا أن ما كان يخشى وقوعه قد بدأ يحدث.

تحول

ارتفع الغراب نحو السماء بسرعة عظيمة حتى وصل إلى مستوى لا يفترض بالغربان أن تصل إليه في العادة وجعل يجمع جناحيه إلى بعضهما ثم راح كأنما يتقلص وينكمش على نفسه حتى استحال شكلا غريبا وتجمعت طاقة سوداء من حوله لثوان معدودة ثم إذ به ينفجر مثل كرة الدخان فهطل من ذلك السواد أشكال كقطرات المطر نزلت على الأرض فنبت منها رجال سود المظهر بعيون صفراء ثابتة ووجوه تنتهي بمناقير طويلة ولهم أجنحة مغطاة بريش الغربان ومخالب حادة وأقدام الطيور الجارحة وظلت تلك الغماغة تعصر حتى اختفت من السماء تماما وظهر في الأرض جيش من المقاتلين على هيئة الغربان توقف له القتال وخفقت له القلوب وتقهقرت أمامه الحشود وسكنت له السيوف وتخاذلت، وحينها نظر الساحر نحو الأمير جابر فكان يغطي وجهه الخشبي بيده وهو يقف يمد رأسه إلى الوراء مثل الوحش الجائر الذي يوشك أن يقوم بشيء بالغ السوء والوحشية، ولما كان الساحر يعرف شدة السوء الذي يوشك أن يصيب رجاله إذ به يتراجع بضع خطوات كما المتقهقر فيأخذ يصيح فيهم بصوت مهتاج مرتفع:

- "تراجعوا حالا، عودوا أدراجكم... ليتراجع الجميع الآن نحو الهوة..." .
 وكانت رشا في تلك اللحظات تسند خولة إلى ذراعها وقد رفعتها عن
 الأرض وقالت تسأل القائد ليث بدهشة عظيمة:
 - "ما الذي يحدث؟".

ورد القائد بفاه فاغر:

- "ما تراه عيناك، لقد متنا منذ لحظة، وهذا عذابنا..."!!!
 أما خولة فقد فتحت شدقي عينيها بصعوبة بالغة، فلم تكن ترى غير
 السواد يملأ الأرض من حولها، سكون يعم الغابة فكأن أصوات القلوب
 صرات تُسمع، وأتى صوت القائد بعد ذلك خافتا جدا:
 - "لتراجع أيتها المحاربتان بهدوء بالغ..." .

وكان ذلك آخر ما سمعته خولة قبل أن تغيب عن وعيها مرة أخرى.

بعد مضي دقيقتين فقط، كان آخر جندي من جنود الجيش الشمالي
 اللذين بقوا في ساحة القتال قد ذُبح ونكل به من قبل الغريبان المقاتلة، فيما
 تمكن بضع مئات فقط من الهرب رفقة الساحر نحو الجبل، وبذلك هدأ القتال
 أخيرا وحُسمت هذه المعركة، كان الأمير جابر يقف وسط الساحة بين جيشه

الأسود هادئاً يطالع الفراغ وكأن روحه سُحبت من جسده، وفيما أحاطت به الغربان البشرية المحاربة، وقف أتباعه من الجيش الجنوبي يراقبونه من بعدة وقد أخافهم حاله وأرعبهم، فلقد بدا أن الإقتراب منه وهو على تلك الحال سيكون خطيراً جداً، ولذلك حذرت الأميرة رها القائد ليث من الذهاب نحوه قائلة:

- "لا أظنها فكرة سديدة أن تقترب منه الآن أيها القائد، لقد حصل لتوه على قوة جديدة، وهو لا يشعر بما يحدث حوله، وقد تهاجمك الغربان إن اقتربت منه أكثر من اللازم... دعنا ننتظر قليلاً لنرى ما سيحدث".

وبذلك تراجع القائد عن تلك الفكرة وجعل يكتفي بمراقبة الأمر من بعيد حتى بدأ شيء ما يحدث للأمير جابر أمام أعينهم الفزعة فجعل يمسك رأسه بعصبية ثم إذ به يجثو على ركبتيه صارخاً من ألم أصابه، وما هي إلا لحظات وأخذ جيش الغربان يختفي تدريجياً فراحت تلك الغربان التي تجسدت في هيئة محاربين تتبخر كخيوط الدخان وتصعد نحو السماء فتلتقي في نقطة واحدة إلى أن اختفت جميعها وعاد الغراب الكبير للظهور مرة أخرى في هيئته الأولى يخلق في السماء عالياً، وقام الأمير جابر عن الأرض بعد ذلك

وذهب نحو أصحابه فوجدهم يتوجسون منه خيفة، وحينها قال وهو يتأمل وجوههم المرعوبة:

- "أين هي؟".

وبمجرد سماعهم لسؤاله هذا إذ بقلقهم عليه يختفي ويتبدد، فالأمير إذا كان قد سأل عن خولة فهو حتما قد عاد إلى وعيه الكامل، ولذلك افسحوا له طريقا بينهم نحوها، ووجدها تتألم بشدة فجلس إليها حتى اطمأن عليها وقام بعدها فاختمى بالأميرة هند والقائد ليث وجرى بينهم حديث ابتدره بقوله:

- "كم خسرنا من الرجال يا ليث؟".

- "ما يقارب الألفي رجل يا سيدي...".

- "وكم فر من أعدائنا؟".

- "ما لا يقدر على مواجهتنا، إذ استبعدنا الحاكم...".

- "حسنا، سنقضي المساء هنا والليل أيضا، ليرتح الجيش قليلا، وغدا صباحا سنزحف نحو الجبل، ستكون ضربتنا قاضية هذه المرة... أمل أن تكون هند قد أدت مهمتها، لأن ذلك الشيء إذا خرج من الهوة فسوف تنقلب الأمور علينا ولن يتمكن أي شيء من الوقوف في وجهه".

- "فماذا عن تلك الأشياء التي ظهرت قبل لحظة، ألن تكون كافية؟".

قال القائد قاصدا هيئة الغربان الجديدة.

- "تلك؟ لا... ثم إنني لا أعرف كيف أجعلها تعود للظهور مرة أخرى، على أية حال آمل ألا يحدث ذلك مجددا، لقد كدت أعلق في ذلك الوضع، وكأن الغربان وهي على تلك الحال لم ترد أن تعود إلي وضعها الطبيعي أبدا، أي إلى وضع أضعف، لقد بدت وكأنها كانت تقاوم لتبقى في تلك الهيئة...".

ونطقت حينها الأميرة رها:

- "هل بدا الأمر وكأن لها وعيا تعقل به؟".

- "تماما، شعرت وكأن وعي الغراب كان يسحبني إليه أكثر من وعيي البشري، كان أمرا خطيرا بحق...".

وقال القائد ليث:

- "سيدي، لدي سؤال أرغب في طرحه...".

- "قل ما لديك يا ليث".

- "لقد كنا نخطط لإغراق الحفرة بالماء من أجل منع ذلك المخلوق من الخروج منها أليس كذلك!! لكن ماذا عن ذلك العجوز والد خولة وزوجة الأمير شهاب والدة الأميرة مايا، هل ستمكن من إنقاذهما؟".

ورد الأمير بقوله:

- "لا تقلق، إن الساحر سيوفر علينا ذلك، سيخرجهما لا محالة..." .

قالت أميرة أرض الماء حينئذ:

- "ليفاوض بهما إن دعتة الحاجة إلى ذلك؟".

- "تماما...".

- "ثمة أمر كان قد قام به الساحر أثناء المعركة ولم أفهم له سببا، في بداية شطر القتال الثاني كان قد وقف بعيدا بينا يراقب رجاله وهم يهزمون، قبل أن يتدخل بعدها ويقلب موازين المعركة، فإذا كان يملك مثل تلك القوة فلم لم يقم بذلك منذ البداية؟".

- "ذلك لأنه لا يستطيع مواصلة القتال لوقت طويل جدا، ربما لاحظ الجميع أن النار على كتفه كانت تقوى وتضعف بين وقت وآخر، وأعتقد ان تلك هي نقطة ضعفه ولذلك تراجع إلى الورااء ريثما يعيد شحن طاقته، مع ذلك ولولا أن تحولت الغريبان إلى ذلك الشكل لما استطعنا الصمود أمامه، فلقد وصلت قوته حينها إلى حد يفوق مقدرتنا جميعا، ثم... ذلك المخلوق من تحت الأرض، أنا متأكد من أن الساحر ينتظر ظهوره بفارغ الصبر، ليس لذاته، بل لما يمكن أن يقدمه له". !!

- "ما الذي تقصده؟".

- "أعني أن ذلك المخلوق ربما يكون هو مصدر طاقة الساحر..." .

وباندهاش موسوم بالقلق ردت الأميرة رها:

- "آمل ألا يكون ذلك صحيحا، لأنه حينها لن يكون هنالك حد لقوته..." .

- "آمل ذلك أيضا، آمل ألا أكون محقا..." .

قال الأمير جابر ونظر بعدها نحو ساحة المعركة حيث كانت الأميرة مايا

قد راحت تبحث عن شيء ما بين الجثث وأردف قائلاً:

- "ما الذي تفعله الأميرة؟"

وقال القائد ليث يجيبه:

- "ربما تحاول أن تجمع رفات عمها..." .

وعاد الأمير جابر يقول بعد أن رآها ترفع دميتها من بين الجثث المتراكمة:

- "فكرة من كانت تلك؟"

- "خولة..." .

قال القائد.

كانت خولة في تلك اللحظات قد جلست تسند ظهرها إلى جذع شجرة

بينما تُطَيّب رشا جرحها وراحت تجيبها على سؤال لها قائلة:

- "دعك مما حدث، لقد كدت تموتين مرتين خلال هذه المعركة، فالأفضل لك الآن أن تنالي قسطاً جيداً من الراحة، ولو كنت مكان الأمير جابر لأمرت بإرسالك إلى القصر من فوري...".

وعادت خولة بعد ذلك تصر على قولها:

- "أرجوك أخبريني ما الذي حدث، كيف هُزم جيش الساحر، فلم استطع رؤية أي شيء بسبب الغشاوة التي حلت بي حينها...".

وصمتت رشا لبعض الوقت ثم تناولت عنها قربة الماء وقالت تجيبها:

- "وقع أمر غريب حقاً، لقد تحولت الغريبان فجأة إلى هيئات أكثر قوة، هيئات بين الغريبان والآدمية، وامتلات الساحة بجيش أسود لم يشهده أحد من قبل أبداً، محاربون أشداء استطاعوا أن يلحقوا الهزيمة بجيش الساحر بالغة بسهولة، وكأنهم كانوا يصارعون سنابل حقل نضرة، فراحوا يمرون بينهم مثل الشياطين المهرة فيقطعون أوردتهم بمخالب حادة، لم تكن لدى جنود الساحر أدنى فرصة للدفاع عن أنفسهم، لم يستغرق الأمر سوى دقائق... والآن كل من أرض الرماد وأرض الرياح قد فقدت جيشها، قليل فقط هم من تمكنوا من الفرار رفقة الساحر نحو الجبل، وحشا أرض الرماد وأرض الرياح كانا العاملين

الأساسيان في هروب تلك القلة، فتلك المخلوقات التي ظهرت لم تكن لتدع أحدا على قيد الحياة لولا ذلك، حتى... أظن.”

-”ماذا يا رشا، تكلمي.“!!

-”لا أدري إلى أي مدى قد تصل قوة العالم الخارجي الذي أتيت منه يا خولة، لكن أعتقد أن تلك المخلوقات ستكون قادرة على أن تتسبب في فوضى عارمة في عالمك...“.

-”ما الذي تقصدينه، أليس الأمير جابر هو المتحكم فيها؟“.

-”بلى، لكن إذا كانت توجد في عالما قوة مثل هذه، ومن حسن حظنا أنها في الجانب الخيّر، فلا أستبعد كثيرا فكرة ظهور قوة مثلها في الجانب الآخر...“.

قالت رشا وشردتا كلاهما بعد ذلك تفكران بقلق.

استرداد

الآن عند الهوة كان الساحر رماح ورجاله يصلون لتوهم، ووجدوا الأمير
أرون ملقيا على الأرض بين جثث رجاله دامي الأطراف مشوه الصورة عليه
جراح وندبات كثيرة، وحالما وقعت قدما الساحر عند رأسه حتى حرك رأسه
بصعوبة ليرفعها وهو يأنّ من الألم:
- "س.. سيدي، أرجوك ساعدني...".

ونظر إليه الساحر باشمئزاز وكره عظيمين للحظات ثم حوّل بصره نحو
الحفرة، وكان يصاعد منها بخار كثيف من جراء التقاء ماء النهر مع سيول
الحمم في باطنها، ولما لم يكن الأمر يحتاج منه كثير بديهة فإنه استطاع أن
يفهم سعيهم بسهولة، وصاح في رجاله بأن يسرعوا لمنع الماء والحمم عن
الحفرة وبيننا تهتزان عيناه الشيطانيتان بسرعة نظر بعدها إلى السماء وصاح
صيحة دوّت في أرجاء الأرض الوسطى.

وقف الأمير جابريتاأمل الغيوم المتشكلة فوق قمة الجبل، وأتت الأميرة
مها فوقفت بجانبه وقالت:

- "هل هذا يعني أنّ أميرة أرض الماء ورجالها قد تمكنوا من تحويل مسار الحمم نحو النهر؟".

- "أجل، لنأمل فقط أن تُنزل ثقلها...".

- "هل لي أن أسألك من أين لك بهذه الفكرة؟".

- "ليست فكرتي، كانت توجيهها من الساحر الأصغر قبيل موته، أراد من خلالها تصحيح بعض أخطائه".

- "أمل أن ينجح هذا فعلا، لأنها تبدو فكرة غريبة".

... -

بعد فترة صمت نطقت الأميرة رها تقول بجرأة استخرجتها بصعوبة:

- "تلك الفتاة، أتحبها؟".

لم يقل الأمير جابر شيئا.

- "حسنا...".

- "ستعود إلى عالمها بعد أن ينتهي كل هذا...".

- "هل تريد منها أن ترحل؟".

- "ذلك شأنها، هي تنتمي إلى عالم أوسع، لكن إذا أرادت البقاء هنا فالجميع يرحبون بها...".

لم تكن أجوبة واضحة تلك التي قدمها الأمير جابر، وذلك أحدث انزعاجا في نفس الأميرة رها، لقد كانت تعلم أنه تعمد تلك الإجابات لسبب معين، فكرت في نفسها بعد ذلك، إن لها عينان رماديتان حادثان تنتهيان بشكل بارع، لها فم رقيق وذقن جميل ويخالط خذاها دفئ وسمرة، هي أجمل بكثير من خولة، هي أميرة أرض الرمل الواسعة، فأيهما تمتلك الأفضلية؟ ثم داهمتها عينا الأمير حين توجه صوبها قائلاً فجأة:

- "لنتلك الفتاة دين علي، وعليّ إعادته لها، هذا كل شيء...".

قال ذلك وأطال النظر في عينيها حتى شعرت بخجل فهربت ببصرها نحو الظلال حيث كان يصدر صوت تكسر أغصان يابسة، وظهر بعدها جنود من أرض الماء في حال من الإعياء والتعب تكاد أنفاسهم تتقطع فأتوا نحوهما، وحينئذ ابتدرهم الأمير جابر بسؤالهم عن سيدتهم الأميرة هند فخرج أحدهم من الخلف تماما وهو يحمل ثقلا خفيا على ظهره وقال لاهتا:

- "هي هنا...".

قال ذلك وأنزلها على العشب برفق فجيئ إليه بقربة ماء فجعل يسقيها منها بينما يردف قائلاً: "كان قتالها مع الأمير أرون صعبا جدا، فقد كان من الصعب جدا مجاراته، كما أننا كدنا نصطدم مع الحاكم ورجاله في طريق

عودتنا لولا أن استخدمت ما تبقى من طاقتها لإخفائنا حتى استطعنا المرور بجانبهم دون أن يلحظونا... ”

قال الأمير جابر بدهشة:

- ”تقول أمير أرض الرماد، فهل استطعتم النيل منه؟”.

- ”آخرة مرة رأيناه فيها كان ساقطا على الأرض كرجل ميت...”.

- ”فإذن هو لم يموت!!”.

- ”لم يكن لدينا وقت للتأكد، لقد خرجت من الهوة مخلوقات غريبة لها

أجنحة، فاضطررنا للمغادرة بسرعة، كان التعب قد نال منا بسبب الحفر ولم

نكن لنقدر على القتال أكثر...”.

- ”قلت أنها مخلوقات ذات أجنحة، كم كان عددها؟”.

- ”ربما ستة أو سبعة، لكن بالتأكيد كان سيخرج المزيد منها...”.

- ”حسنا، احملوا أميرتكم للعلاج ودعونا نتكفل بالباقي، ليكون معنا من له

القدرة فقط، فلا يتبعنا من به علة من جراح أو تعب، بعد ساعة سننطلق إلى

الجبل لنخوض قتالا حاسما هذه المرة...”.

بعد ساعة فقط كان ما تبقى من الجيش الجنوبي قد أعاد ترتيب نفسه استعداد لخوض الجولة الأخيرة من هذه المعركة، مع كثير من النقص بين صفوفه، فمئات من الجنود المصابين والمرهقين تخلفوا في الورا مع بقاء وحش أرض الماء لحراستهم، فيما انطلق الباقون لمطاردة الفارين نحو الجبل، تقدم الأمير جابر والأميرة هند في مقدمة الجيش يقودان جنودهما، وسار العقرب خلفهما مباشرة بينما حلق الغراب فوقهم جميعا وهو يتفرس الأرض بنظرات فاحصة، لم يكن ثمة من كمين قد تركه الفارون علي طول الطريق نحو الجبل مثل ما هو متوقع، إنّ الساحر رماح وبغطرسته لم يكن ليلجأ في حربه إلى حيل رخيصة، بل إن ديدنه مثل أي رجل لا تعزوه ثقته في قوته يفضل المواجهات المباشرة بلا لف ولا دوران، كان هذا جواب الأمير جابر للقائد ليث حينما لحق به ليسأله أن يتقدم في الطريق فيفحصها، وعاد القائد بعدها فتأخر حتى لحقت به رشا وجعل يحدثها بينما يرتج فوق ظهر حصانه:

- "هل تعتقدين بأنها ستكون بخير؟".

وقالت رشا:

- "جرحها ليس عميقا، سوف تستيقظ بعد فترة... إنني أفكر في... هل سنستطيع استعادة والدها؟ أو هل هو لا يزال على قيد الحياة حتى؟".

- "لن أستطيع إجابتك على هذا، ما أعرفه هو أننا سنبدل قصار جهدنا لاستعادته، وحتى أرواحنا إن تطلب الأمر ذلك؟".

جمهر

هنالك عند قاعدة الجبل وقف الساحر رماح يطالع الهوة التي كانت تلفظ كمية كبيرة من البخار الساخن نحو السماء والغضب باد على وجهه، ذلك أنه وفي لحظة ما استطاع أن يفهم الورطة التي وقع فيها، وكان قد أمر رجاله بإبعاد ماء النهر وسيول الحمم عن الحفرة، وارتد بعدها جهة الغابة ينظر بعين مفترسة بينا تحلق من حوله تلك المخلوقات المجنحة، وبعد وقت قصير ظهر الغراب الكبير يحلق عالياً ثم برز العقرب رفقة الأمير جابر والأميرة رها مع بضعة آلاف من الجنود اللذين لازالت آثار الدماء على ثيابهم، حينئذ ابتعد الساحر عن الحفرة وبرز بجانبه كل من الأمير شهاب والأمير أرون بعدما استعاد بعضاً من قوته فوقف أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، وقال القائد ليث حينئذ لما رأى الأمير أرون واقفاً هنالك بكل الجراح التي عليه بينا ينظر إليهم بظرات ساخطة وناقمة:

- "اللعنة على ذلك القدر، ما الذي ينبغي أن يصيبه كي يموت مثل صخرة، هل هو شيطان أم ماذا؟".

ونطق الأمير جابر يجبه وعليه هدوء رهيب تجلى في نبرة صوته:

- "ليس الأمر كذلك، هو ليس بالشیطان يا لیث، لكن الساحر أعاد له طاقته بطريقة ما، مثلما استعاد طاقته بنفسه...".

وإنما أنهى الأمير جابر حديثه هذا وقد نقل بصره إلى موضع النار في كتف الساحر فكانت تلتهب أكثر بكثير من ذي قبل، وقبل أن ينطق أحد بكلمة أخرى برز من الحفرة مزيد من تلك المخلوقات ذات الأجنحة وراحت تطلع في جماعات كبيرة وتحط على الأرض حتى تكوّن للساحر جيش صغير منها واصطفت خلفه في صفوف منظمة، وحينها أطلق القائد لیث شتيمة لم يسمعها غيره واتبعها بقوله:

- "ألن ننتهي من هذا؟".

وأجابته الأميرة رها وهي تتحسس خنجرها على خصرها:

- "ليس قبل أن نقطع عنق آخر واحد منهم أيها القائد، وحتى ذلك الوقت حاول أن تحافظ على همتك، إننا الآن مقبلون على مواجهة أشرس من ذي قبل، فلا تُظهر ضعفا أمام رجالك لكي لا ينكسر همهم في وقت عصيب كهذا...".

- "لن أفعل أيتها الأميرة، لن أفعل ذلك أبدا، بل سأبدوا أمامهم متحرقا للقتال أكثر من ذي قبل...".

قال القائد ذلك وهم بالإنديفاع إلى وسط الساحة لولا أن الأمير جابر منعه من ذلك:

- "لحظة، لا تندفع... لا يزال الوقت مبكرا لبدئ القتال يا ليث... "وخفض ذراعه بعد ذلك واستمر يحدق نحو الساحر بحذر: "سيكون من صالحنا أن نؤخر القتال هذه المرة، فإني أرى رعبا في عيني الساحر بعد اكتشافه لما كنا نحاول فعله...".

والآن أنزل الساحر رماح عينيه عن السحب ونظر نحو أعدائه، وللحظة بدا أن قلقا كان يلجم فمه، لكنه أخذ من الهواء نفسا كبيرا وجعل يحمل سيفه ويتقدم إلى وسط الساحة مهتاجا تقوده خطاه الثقيلة المتجبرة، ومن الجانب الآخر تحرك الأمير جابر بدوره فاستل سيفه واندفع مثل البرق نحو الملك فتصادما بقوة فجرت الهواء بينهما ثم ابتعدا عن بعضهما وعادا فتصادما مرة ثانية وثالثة ثم وقف كل واحد منها بعيدا عن الآخر وحينها نطق الساحر يقول بصوت يقطر بالغضب:

- "أخبرني أيها الرجل، كيف خطرت لك تلك الفكرة؟ إنك قد فاجأتني حقا".
ورد الأمير جابر قائلاً:

- "لم تكن فكرتي، لكن يبدو أن صديقك نجيد كان قد تمكن من تجهيز كل شيء من شأنه أن يحبط خططك قبل رحيله...".

- "أرى هذا... لكن أريد أن أعرف كيف وصلت إليك معلومة كهذه مع أنها في غاية السرية؟".

- "من خلال الساحر ساري، لقد ترك لي رسالة قبل أن يأتي إليك...".

- "وهل تعرف أيضا بما يوجد فوق تلك الغيوم التي جعلتها تكبر؟".

وهنا سكت الأمير جابر وقد الجمته الحيرة.

- "أجب".

- "لنقل أنني أعرف!".

- "حسنا، وهذا أمر آخر سوف يتسبب في قتلك، لا يمكنني أن أدعك على

قيد الحياة وأنت تحمل لي كل هذا الخطر، بالمناسبة فإنني أهنئك لنجاحك

في استعمال مقدرة الغربان الثانية...".

- "ولكنني لا أدري كيف فعلت ذلك".

- "بالتأكيد أنت لا تعرف، لكنني سأخبرك عن ذلك... أثناء قتالنا في تلك

الغابة أقدمت بنفسني على إرسال بعض من رجالى إلى الموت، أتعرف لماذا

فعلت ذلك؟ لقد أردت أن أجرب مقدار الغضب الذي قد يملكني وأنا أرى

رجالي يتعرضون للهزيمة، لكن يؤسفني حقا القول بأنني لم أشعر بأي شيء تجاههم، فلم تعد لدي مثل تلك المشاعر الآدمية التي أظهرتها قبل قليل أيها الرجل...".

- "ما الذي تقصده؟".

- "الغضب، الغضب هو الفتاح أيها الأمير البطل، رؤيتك لتلك الفتاة وهي تتعرض للهجوم أثار في صدرك الغضب أليس كذلك؟ غضب عارم خلق ذلك الخيط بينك وبين الغراب حتى استجاب لإرادتك في منع ما كان يوشك أن يحدث!! غضبك هو من أطلق تلك المقدره، ولذلك كنت آسف قبل قليل لأنني لن أقدر على تسخييره بتلك الطريقة عندما استحوذ عليه، ذلك أنني لا أجد أمامي شيئا قد أخاف خسارته مثلك!!".

وضيق الأمير جابر نظرتة في الساحر.

- "كان ينبغي لي أن أشكرك لأنك وفرت عليّ عناء قتل ذلك المتجول...".

- "على الرحب، لكنه تسبب لي بكل هذا وأفقدني ثلاثة جيوش بسبب غبائه، آه نسيت أنه لا يمتلك عقلا...".

- "أيها الوقح، هل خادمك المطيع شهاب يعرف من يكون ذلك الرجل الذي سحقت عنقه؟".

قال الأمير جابر ذلك وحوّل بصره نحو أمير أرض الرياح يرمقه بنظرات ساخطة فإذ بالآخر يضطرب وتأخذ جسده رجفة شديدة، وحينها استتلى الأمير جابر يخاطبه: "أرى أنك لم تخبره بما فعلته بجسد شقيقه حينما قام بأمساكه وتسليمه لك".

وشعت عينا الأمير شهاب حينئذ وأخذت عيناه تهتزان في محجريهما، وقبل أن يقول شيئاً أتاه صوت الساحر:

- "وإن يكن؟ لقد كان رجلا ميتا على أية حال، ولم يكن بمقدوره التكفير عن ذنبه لسرقته تلك الدمية مني غير ذلك، حسنا، الآن بالحديث عنها فإنني أريد استعادتها حالا...".

وأجابه الأمير جابر:

- "ليس عليك أن تقلق بشأنها، فأنا لا أرغب في استعمالها ضدك، فيداي ستفيان لقتلك...".

وضحك الساحر حينها مستهترا:

- "أنا لست قلقا بشأنها أيها المعتوه الأخرق، لكنني فجأة وجدت أنه قد يكون لي فيها نفع عظيم لا تدركه، ولهذا...".

ورفع الساحر يده وفرقع بإصبعيه فإذ بأربعة من تلك المخلوقات
المجنحة تطلع من الحفرة حاملة بأقدامها رجلا عجوزا رقيق العود وامرأة
يغطي رأسها شال أسود وهما في وهن شديد وأتت بهما حتى وضعتهما عند
قدمي الساحر فعاد يقول بثقة وغطرسة بالغتين:
- "أعرف أن تلك الفتاة الصغيرة موجودة هنا بينكم، وأظنها سترغب في لقاء
والدتها من دون شك..." .

وحينها خرجت الأميرة مايا من بين الحشود وقلبا يخفق بشدة فصاحت
نحو تلك المرأة:
- "أمي!!".

وراحت عيناها تترقرقان بالدمع وأوشكت أن تركض نحوها لكن الأميرة
رها أمسكتها من ذراعها وسارت معها بهدوء إلى وسط الساحة، وحينها قال
الأمير جابر يخاطب الساحر بغضب:

- "إياك أن تصيبيهما بمكروه أكثر مما فعلت..." .

وضحك الساحر نصف ضحكة شريرة:

- "لا، لن أفعل، فحاجتني لهما قد انتهت..." .

وترددت الأميرة مايا في أخذ الدمية إلى منتصف المسافة التي بينهما،
فقال الساحر حينها:

- "هل أنت لا تثقين في الحاكم رماح أيتها الصغيرة؟".

وعانقت مايا دميتها أكثر هذه المرة بينما تسقط دموع حارقة من عينيها.
وأردف الساحر مستفزاً:

- "حسناً، إذا كان هذا العجوز الوضيع لا يزال قادراً على السير بمفرده
فبمقدوره أن يمضي في حال سبيله، انهض أيها الحثالة، وانجو
بنفسك..." ونظر بعدها في عيني الأمير جابر كأنما يُمني عليه ذلك: "وما هذا
ألا دليل على حسن نيتي... إنني لن أمسهما بسوء بعد هذه اللحظة..." .

ولما كان رأس ذلك العجوز قريباً من الأرض فإنه احتاج وقتاً ليرفعه
عنها، واحتاج بعد ذلك مزيد وقت ليأتي بأول خطوة، وراح يتتعد عن ذلك
المكان يجر ساقيه الثقيلتان وهو لا يكاد يعرف إلى أي موضع يتجه، إنما
كان همه الوحيد هو الهروب من ذلك الوحش الرابض خلفه، ومرّ من أمام
الأمير جابر ووصل عند الجيش الجنوبي وهو يكاد يلفظ آخر أنفاسه، كان
جسده مليئاً بالكدمات حتى لم يسلم منه موضع أنملة، وتلقفه رجالان وأخذاه

بعيدا، وحينها عادت الأنظار نحو الفتاة الصغيرة حين خاطبها الساحر بصوت مخيف مرتفع:

- "هيا أيتها الصغيرة، لقد حان دورك...".

رفعت مايا بصرها نحو الأمير جابر فأومأ لها برأسه، وحينها راحت تمشي نحو والدتها التي كانت تأتي نحوها في تلك اللحظة وحين قطعت نصف المسافة التي بينهما فإنها وضعت الدمية على الأرض بهدوء وجعلت ترتمي بين ذراعيها وهي تشهق باكية.

عادت الأميرة الصغيرة برفقة والدتها نحو الجيش الجنوبي، وأتى رجل من المعسكر الشمالي فحمل الدمية عن الأرض وراح بها نحو سيده، وفي كل خطوة كان يخطوها، كان الألم في ذراعه يتضاعف، وبعد بضع خطوات كانت آثار الحرق قد وصلت إلى عنقه، لكنّه رغم ذلك لم يجرؤ على ترك الدمية، ووصل بها عند الساحر وهو يوشك أن يلفظ أنفاسه، ذلك بينما يتابعه الأخير بنظرات نهمّة، تُظهر مدى سعادته بالحصول على الدمية وإنهاء خطرهما.

وصل الرجل عند الساحر وجعل يمد ذراعه نحوه ليناوله الدمية، كان يكتفم صرخته بصعوبة شديدة، لكن في لحظة سريعة فإن الساحر أمسكه بقبضة من حديد من عنقه ثم رفعه عن الأرض ورماه نحو الهوة مثلما ترمى الصخور من مسافة بعيدة بينا لا يزال يمسك الدمية في يده، وعاد بعد ذلك وأطلق ضحكة تغلغلت في كبد السماء لكنه لم يستطع إكمالها حتى نهايتها بسبب من أن الأمير جابر قد قاطعه بقوله:

- "لقد توقعت منك أن تقوم بهذا...".

وهنا سكت الساحر عن الضحك وتحول وجهه وتجهم ونظر خلفه، وكان أن رأى غرابا يخرج من الهوة يطير حاملا تلك الدمية بين قدميه ثم جعل يتبعه في مسار مقوس حتى عبر الغراب كبد السماء ووصل ناحية الجيش الجنوبي حيث سقط ميتا مثل قطعة خشب متفحمة.

وهنا اتسعت عينا الساحر من خلف القناع فجعل يصيح بغضب عارم:

- "أيها اللعين الماكر، أعدّها إلى هنا حالا...".

فقال الأمير جابر بابتسامة المنتصر:

- "سأفعل، لكن بالطريقة التي أريدها أنا هذه المرة...".

- "ليكن، ليكن أيها الأمير الماكر...".

الآن أحدث هذا الأمر عاصفة في صدر الساحر، وثارَت نفسه بالغضب، وجعل يحكم قبضتيه فطلعت النار من كتفه مرة أخرى، وحينها استعد الأمير لتلقي ذلك، وما هي إلى لحظة والتقى الإثنان في ضربة اجتمع فيها من العنف والقوة ما بث ريحا سرت في الأرض وأمالت العشب حتى أطراف الساحة، وأعلنا بذلك بدأ القتال مرة أخرى.

بعد مضي نصف ساعة على اختلاط الجيشين وبعد سقوط جثث كثيرة من الجانبين، كان التعب قد بدأ ينال ممن بقوا وقوا، القائد ليث كان قد لاحظ الأمير أرون وهو يقاتل بحرية، فجعل يقصده لمبارزته، والتقاءه في زخم شديد وجعل يبادلُه الضربات واحدة بواحدة، فما أصاب الأمير أرون لم يكن قد زال عنه بالكامل، ولذلك استطاع القائد ليث مجارته لبعض الوقت محققا بذلك رغبته القديمة في قتاله قبل أن يظهر القنطور فجأة أمامه، نظر القائد حينها إلى ذلك المخلوق فكاد الدم يجف في أوصاله، وتيبس واقفا وهو يرى حافري القنطور يرتفعان عاليا وعلى وشك أن يقعا على وجهه، قم لم يشعر إلا وهو يتقلب على الأرض في سقطة مؤلمة، حاول الوقوف بعدما تنصل من خوفه ودهشته فوجد الأمير جابر يمد له يد المساعدة.

- "لقد أنقذتني...".

- "عليك أن تتوخى الحذر أكثر، حاول ألا ترخي دفاعاتك...".

ولم تصل آخر تلك الكلمات إلى مسامع القائد، ذلك أن صورة الساحر رماح كانت تظهر في حدقتي عينيه وهو يوشك أن يصيب الأمير جابر في مقتل حينما ظهر فجأة من خلفه.

مطر

وجّه الساحر ضربته إلى الأمير جابر لكنه تمكن من تجنبها بخفة بالغة، وجمد الساحر بعد ذلك وقد تملكه غضب عارم، وكان ذراعه قد دُفع إلى غير الموضع الذي أراده، ونظر بعدها إلى السيف ساقطاً على بعد أمتار من يده، وعاد بعينه الغاضبتان إلى موضع ذراعه، وكان قد نشب فيه سهمان ظهرا فجأة من حيث لم يحسب لهما حساباً، اعتدل واقفاً بعدها ونظر حوله، وكان أن رأى الأمير شهاب يقف في مواجهته يطالعه بنظرات تحدٍ، واستغرب الساحر أمره فصاح فيه بحدة:

- "أهذا أنت!! أيها الأخرق، ما الذي يعنيه هذا؟".

فقال الأمير شهاب وكأنما أتته لحظة إدراك مفاجئة:

- "ما كان يجب أن أفعله منذ زمن، أن أسعى لدمارك، مثلما يفعل أمير أرض الغابة...".

وعاد الساحر ليقول في غطرسة:

- "يا لك من بائس...".

وتحرك الأمير شهاب ناحية القائد ليث والأمير جابر حتى وقف علي مقربة منهما وقال بنبرة ندم:

- "لقد كنت أخدمك حتى هذا اللحظة مثل الأعمى، لكن ذلك قد انتهى، ولن أكون في صفك بعد الآن أبدا...".

- "ما الذي تنفوه به أيها الأحمق، ألا تدري أنه بمقدوري قتلك الآن، أنت في...".

- "لم يعد يهمني، لقد عاملت أخي مثل فأر حقل أو أدنى من ذلك، لقد أمرتني بالقبض عليه فأطعتك، ظننتك ستنتهي حياته ببساطة، لكن... لكن... إن ما فعلته به أمر لا يغتفر".

- "ماذا، هل حزنت الآن لأجله؟".

- "ليس بقدر ما سوف تحزن لكل ما اقترفته".

- "هاهاهاها، هل صرت رجلا صالحا الآن؟ إنك... إنك...".

ولم يكذب ينهي الساحر استهزائه ذلك حتى رأى الأمير شهاب يموت أمامه، إن الأمير جابر قد هجم على أمير أرض الرياح من الخلف فدفع سيفه في ظهره حتى ظهر من بطنه، وراح يقول في أذنه:

- "كما قال سيدك، يا لك من رجل بائس، أظننت بتوبتك المتأخرة هذه أنك ستنجو بأفعالك؟".

وسعل الأمير شهاب سعال موت ولفظ دما من فمه:

- "لقد... لقد فعلتها.!!"

قال ذلك بينما يُميل عينيه إلى الخلف يحاول رؤية صاحب تلك الطعنة،

فقال له الأمير جابر:

- "سبق وخيرتك بين طريقتين لتلقى حتفك، لكنك لم تختبر، لذلك كان علي

أنا أن أختار واحد، إنها واحدة من أكثر طرق الموت التي أمقتها، إنني أطعنك من الخلف مثل الضعيف الخائف، لكن لأصدقك القول فإنني بطريقة ما أجد الأمر ممتعا حقا...".

وسحب الأمير جابر سيفه بقوة فشخر أمير أرض الرياح شجرة أخيرة ولم

يشعر بعدها إلا وصار منكباه فارغان بينما راح رأسه يتدحرج على الأرض بعيدا عن جسده.

فتح الأمير جابر عينيه بعد ذلك ودون أن ينظر إلى ضحيته حتى، ثم قال

يخاطب الساحر وفي نبرته وعيد شديد وغضب:

- "إنك تفقد أوراقك الواحدة تلوى الأخرى، ولن يطول الوقت حتى تجد نفسك وحيدا هنا...".

وقال الساحر وهو يستقبل تهديده بمكر وشرر يتطاير من عينيه:
 - "لا، أنت مخطئ أيها المغتر، إنما هي مسألة وقت حتى أظهر لكم ورقتي الكبيرة، وهي كل ما أحताجه لأحرق هذه الأرض بمن فيها، بمقدورك أن تمحو كل هاؤلاء الرجال أيضا...". قال الساحر ذلك وهو يتلفت حوله لينظر في مخلوقاته المجنحة التي كانت تحلق فوق التمساح والعقرب تهاجمانها بشراسة: "لكنني سوف أستخدم أجساد اللذين ماتوا هنا لكي أصنع منهم مخلوقات مثلها بعدما أنتهي منكم...".

كان الأمير أرون يقف على مقربة يسمع ذلك الحديث ورأسه منكس للأسفل، وبينما يعتريه غضب شديد أخفاه بداخله، قال يحدث نفسه.
 - "أيها المخلوق الفضيع البائس، أتحسب أن رجالي ملكك؟ بل إنك سوف تدفع ثمن أرواحهم جميعا، سوف تدفع ثمن فعلتك...".

ولم يكذب ينهي حديث نفسه حتى باغته صوت قوي إنهال من السماء فجأة، وكان ذلك نسر أرض الرياح وقد طلع إلى الجو وجعل يطلق صراخات عالية بينا يضرب الهواء بجناحيه مهتاجا، وحينها قال الأمير جابر:

- "الآن ستحدث فوضى هنا، لقد مات سيده، ولن يكون بمقدوره التصرف لوحده...".

وبعد لحظات نزل النسرين نحو أرض المعركة فجعل يخوض فيها ويضرب بمخالبه كل ما كان يقف في طريقه فقتل نفرا من المخلوقات المجنحة وأحدث فوضى في ساحة القتال وحين وقعت عيناه على الساحر وشعر بشيء غريب حوله فإنه قرر التوجه نحوه لكن الساحر كان يراقبه بعين هادئة ولحظة أن اقترب منها النسرين إذ به يرفع ذراعه عاليا فارتفع من الأرض جدار من نار وحال بينه وبين النسرين وأصاب النسرين من تلك النار ما أحرقه وأضربه فجعل يلوذ بالفرار بعيدا وهو يصيح صيحات متقطعة، وعاد الساحر بعدها فنظر فيما حوله وقال وهو يرتفع بجسده عن الأرض بطريقة تشبه ما كان يفعله الأمير شهاب قبل ذلك.

قال الأمير جابر وهو يحدج الساحر بسخط:

- "قد أخذتها إذن!!"

وقال الساحر وهو يلتفت في الهواء نحوه:

- "أجل، لقد كان خاضعا لي وتحت سيطرتي، لذلك فكل قواه ستذهب إلي بعد موته... الآن وقد طال هذا الأمر كثيرا، فعلي إنهاءه بسرعة".

قال ذلك ورفع يديه إلى السماء بعدها وجعل يتمتم بكلمات غير مفهومة، ثم إذ بكرات من نار تظهر في السماء في مناطق متفرقة، وراحت تكبر شيئاً فشيئاً حتى صارت مثل السحب الصغيرة المشتعلة، ونظر الساحر بعدها نحو الأرض مشيراً بيديه إلى وسط المعركة فراحت تلك الغيوم تمطر شهباً حارقة أخذت تنزل على الأرض فأصابت كل ما كان تحتها حتى لم تسلم منها تلك المخلوقات المجنحة، وأصاب بعضها أشجار الغابة فنشبت نار حول ساحة القتال وأحطاتها، وتفرق الجيشان وعمّت الفوضى في كل موضع، وحاول الأمير جابر مهاجمة الساحر حينئذ لكنه أحاط نفسه بكرة من نار جعل منها درعاً يحمي بداخلها، وطار الأمير جابر بعد ذلك على ظهر الغراب متجنباً خيوط النار النازلة حتى أتى إلى موضع خالٍ فجعل يفحص الأرض بعينين حائرتين، لكنّه رأى أجساماً من نار تطلع من الأرض وتنبت وتتهياً ليكون لها أقدام ورووس وأذرع، وبينما هو غارق في حيرته إذ به يشعر بشيء ما يسقط عليه فجأة من أعلى.

خرجت الصغيرة مايا نحو الساحة تضم دميته إلى صدرها بعدما قام الغراب الصغير باسترجاعها، فمدت يدها لتعرض حبات المطر، وبينما يسقط بعضها على جيبيها رأت القائد ليث قادماً نحوها، وقال وهو يزرع درعه المدمر:

- "أيتها الأميرة، عليك التراجع إلاي الخلف فالمكان خطير هنا...".
وقالت الفتاة الصغيرة وهي لا تزال تحديق في الغيمة الكبيرة:
- "إنه المطر...".

وألقى القائد درعه على الأرض وحمل الفتاة بين يديه وما إن ابتعد بها خطوتين حتى حطّ شهاب من نهار في ذات الموضع الذي كانت تقف فيه قبل ذلك، وأتى بها نحو والدتها فتركها بقربها وحمل درعا جديدا لنفسه وهم بالعودة نحو ساحة القتال لكنّ مايا بادرت به بسؤال شلّ قدميه تماما عن الحركة:
- "هل حدث شيء لوالدي؟".

ونظر القائد إليها للحظات ثم نقل بصره إلى والدتها وكانت تجلس بعيدا تغطي نصف وجهها بينما تراقبهما بعين مرهقة، وقال حينها وهو يلتقط ريقه:
- "لماذا تقولين هذا؟".

وردت مايا دون تردد:

- "لأنني رأيت النسريتصرف بطريقة غريبة قبل لحظة، وهو لا يفعل ذلك إذا كان والدي بقربه...".

وقال القائد مرتبكا:

- "إنّ، إنّه...".

ونظر بعدها إلى والدة الفتاة مرة أخرى، فأومات له بوجهها أن يخبرها بالحقيقة، وعاد القائد نحو الفتاة لكنه لم يقدر على أن يتفوه بكلمة واحدة، لكن الفتاة الصغيرة فاجتته بنبرة تبيست لها فرائسه:

- "قد قتله أمير أرض الغابة أليس كذلك؟".

زاد الضجيج الذي كان يحدثه المطر أثناء سقوطه فوق أوراق الشجر، وارتفع نعيق الغراب عالياً وهو يهز جناحيه المبللين ليجابه النسر الهائج، لكن في الأرض اشتبك العقرب مع القنطور في صراع شديد وصارت حركاتهما وضرباتهما تهز الأرض هزاً وتدمرها، وفي السماء صاح الساحر وهو يرى جيشه الجديد ينمو على التربة ويتكون:

- "هذه لمحة صغيرة عما ستواجهونه... إنني لا أقدر الآن على إنتاج أكثر من هذا، لكن حالما يظهر وحشي الحبيب صخر فستمتلئ الأرض بجيش مصنوع من النار فلا لا يرى أوله من آخره...".

الآن والحال هذا وبيننا يشتد القتال في الأسفل فإن الأمير جابر تراجع إلى الخلف قليلاً وطلب الغراب إليه ثم طار به عالياً فوق فتحة الهوة وجعل ينظر بداخلها، واستطاع أن يلمح خطوط حمراء تتوهج هناك في الأسفل، ونزل

بعدها وجعل يخوض في جيش النار فقتل كثيرا، وحينها تحركت الأرض من تحت قدميه فجأة، وأتت الأميرة رها لتقف بجانبه وهي تقول بينا يصعد صدرها وينخفض بسرعة بسبب من الإرهاق الذي أصابها:

- "أيها الأمير... ما... ما الذي يحدث؟".

وأجابها الأمير جابر وعيناه قد تبيستا نحو الحفرة:

- "لقد وصل...".

واستدار الساحر نحوهما بعد ذلك وقال بفرح أصر كثيرا على إظهاره:

- "أتعلمان، لقد مكثت تحت الأرض لمئات من السنين مضت، سنوات طويلة قضيتها في تعلم تسخير النار، يوما بعد يوم، عام بعد عام، قرن بعد قرن... حتى استطعت تسخيرها أخيرا، لقد امتلكت قوة عظيمة، لكنني رغم ذلك لم يكن بمقدوري استعمالها كيفما أشاء لأنني كنت مقيدا بنار الأرض، ولم يكن ينفعني أن أبتعد عنها، ولذلك قضيت عقودا أخرى في صنع شيء أستطيع به أن أصيرا حرا، شيء بمقدوري أن أستمد منه طاقتي أينما أذهب... "وجعل يرفع ذراعه ويعصر أصابع يده في قبضة شديدة: "كل قواي تلك، أشعر الآن أنها تعود إلي شيئا فشيئا...".

واشتعلت نار حمراء في ذراعه، نار لم يستطع المطر إطفائها، والتمعت
 عيناه وانعكس فيهما اللهب، وبدا متعطشا للقتل أكثر من أي وقت مضى،
 ونقل بصره بسرعة خاطفة نحو الأمير جابر ورمقه بنظرة شرسة:
 - "أنت...".

ولم يمهل لحظة حتى اندفع نحوه مثل الشهاب ولم يشعر الأمير جابر
 إلا وكانت قبضة الساحر أمام عينيه مباشرة، لكنها سرعان ما اختفت مرة
 أخرى، فهي لم تصبه أبدا رغم أنه لم يجد الوقت لمحاولة تجنبها، وأدار الأمير
 رأسه بسرعة بعد ذلك جهة اليمين فرأى الأميرة رها وقد سكن جسدها على
 الأرض بعدما تلقى وجهها تلك الضربة فألقت بها لمسافة بعيدة.
 ركض جنود الأميرة رها نحوها بجنون وتحلقت فتياتها الغاضبات حولها،
 وما إن تنصل الأمير جابر من دهشته حتى صاح فيهم بأعلى صوته، لكن لم
 يكن من بينهم من كان سمعه مشغولا بصوت غير صوت بكاء قلبه على
 أميرته، وحينها صعد الساحر نحو السماء وجعل يرفع يديه لأعلى كأنما يرفع
 شيئا ثقيلًا فإذ بنار مثل ذيول الشياطين تخرج من تحت الأرض فتأخذ تلقف
 أولئك الجنود وتحرقهم، وبينما ترتفع صراخاتهم وهم يلقفون أنفاسهم الأخيرة
 جاءت ضحكات الساحر من أعلى مثل الحديد المذاب فتساقطت في أذن

الأمير جابر، وبينما يتنامى الغضب بداخل، إذ برعشة غريبة وشديدة تسري في جسده باكمل، وحينها بدأ يطرأ عليه تغير غريب لاحظته الساحر من أعلى فابتسم، ونظر بعدها نحو الغراب فرآه ينفجر فينزل جنودا سوداء ملأت الأرض من تحته مثل المرة السابقة، وهكذا اجتمع للأمير جابر جيشه من الغربان في هيئتهم الثالثة مرة أخرى، وما هي إلا لحظات وكانت الغربان تطير بجنود الأميرة رها بعيدا عن اللهب وتأخذ بهم إلى أطراف الساحة، وحينها نظر الأمير جابر نحو الساحر بعينين تمتلآن غضبا، ثم إنه حرّك يده فنزع القناع عن وجهه وتركه يسقط على الأرض فانفلق نصفين عند قدميه ثم أمر الغربان فوثبت جميعها نحو الساحر تهاجمه لكنه أحاط نفسه مرة أخرى بكرة من اللهب ليجعل منها درعها تقيه تلك الغربان الشرسة.

طارت الغربان حول الساحر في سرعة كبيرة وفي حلقات دائرية حتى جعلته في قلب إعصار راح يخنق تلك النار التي أحاط بها نفسه ويضعفها، ثم إنها راحت بعد ذلك تنطلق نحوه في طيران مستقيم وبسرعة خارقة فتهاجمه بمخالب قاطعة وما إن تخترق قلب الأعصار وتظهر على الجهة حتى تعاود هجومها مرة أخرى.

وإذا كان لأحد أن يحسب عدد الهجمات التي تلقاها الساحر خلال دقيقة واحدة، فإنها لن تقلّ عن مائة هجمة، ذلك وبين كل العيون ممدودة نحوه وبيننا ينزل شعور بالانتصار إلى صدور أفراد الجيش الجنوبي إذ بذلك الإعصار الأسود ينفلق فجأة فتخف حدته وتأخذ الغربان بعد ذلك في الطيران في غير مسارها الصحيح وبشكل عشوائي حتى ظهر الساحر وقد تحرر من قيده، حينها كان الأمير جابر قد وقف يطالع الأمير أرون بنقم وسخط شديدين وذلك بعدما تمكن من تفادي ذبابة رمح القنطور وكان قد أوشك أن يصيبه بها في مقتل، وقف معتدلاً يقول بصوت ناغم:

- "أراك متحرقا لدمك .!!"

ورد أمير أرض الرماد مستهترا من فوق ظهر ذلك الوحش ذي رأس الثور والقوائم الأربع:

- "لا، أبدا... من قال هذا؟ إنما كنت فقط أحاول قتلك...".

وأتى صوت الساحر في شكل ضحكة مشروخة وهو ينزل من أعلى ممسكا ذراعه حتى وضع قدميه علي الأرض فظهرت على جسده رضوض كثيرة وجراح وخدوش في كل موضع، وقال أمير أرض الغابة حينها وشعور بالفشل يقرض لسانه:

- "أما زلت تتحرك!! أيها الشيطان الآثم..".

وتنهذ الساحر كأنما به وجع وقال وعيناه تصعدان من الأرض نحو خصمه:

- "بلى، لقد كاد يقضى عليّ لولا أنّ هجومك قد توقف... ونظر بعدها نحو الأمير أرون للحظة كأنما يمدحه على حسن صنيعه وعاد يقول بعد ذلك: "التحكم في الغريبان وهم في الطور الثالث يتطلب تركيزاً مطلقاً، ومهاجمة القنطور لك قد أفقدتك القدرة على الرؤية، وذلك ما أضعف هجوم الغريبان فممكنني من التحرر... لكن لا بأس بهذا، فإنني أقتالك حتى الآن بربع قوتي فقط، لكن بمجرد ظهور صخر على السطح فسوف لن تقدر على الصمود أمامي لثانية واحدة...".

ذلك ورفع ذراعيه كأنما ليس به ضرر فأغمض عينيه وجعل يتمتم بكلمات مبهمة، ولم تمضي غير ثانيتين وراح جسده يعيد تجديد نفسه من الجراح التي أصابته بها الغريبان، اختفت الندوب حتى كأنها لم تكن، وشد الساحر بعد ذلك قبضتيه فانفجرت منهما نار وشعت عيناه غضبا واحمر وجهه وجعل يصيح مهتاجا:

- "لا، ليس أنت من تقدر على هزيمتي، فأنا الحاكم... حاكم ما تحت الأرض، وقريبا سأغدو حاكم ما فوقها أيضا، ما الذي تظن أنك تفعله بافتعالك لهذا المطر؟ إنك حشرة مضرّة يا أمير أرض الغابة، وقد بعثت في غضبا لم يُبعث منذ سبع مائة سنة، والآن استعد أنت ومن معك لتتلقوه فإنكم هالكون لا محالة...".

قال الساحر ذلك ونظر بعدها إلى السماء فرأى نسر أرض الرياح يحلق عاليا لوحده ورأى الغربان قد تحولت وعادت لطورها الأول فاستحالت غمامة من الغربان الصغيرة، وبحث عن العقرب فوجده يقف على مسافة قريبة. وصاح فيه الأمير جابر بعد ذلك بلحظة:

- "أيها الخبيث، إنك تدري أنه لا يستطيع الآن الدفاع عن نفسه...".
وقهقه الساحر بصوت عالٍ وهو يراقب النار تآكل العقرب بينا يغرق في صيحات استنجد وحشية:

- "هل تظن بأنّ الأمر يهمني؟ هل تريدني أن أقاتل بشرف مثلك؟ أو ووه، إنك لم تفعل ذلك... ألم تطعن ذلك الأحمق شهاب في ظهره بينما جاء ليقف في صفك...".

وعاد الأمير جابر ليصيح فيه بصوت أعلى:

- "بعض الذنوب لا يمكن غفرانها بأي طريقة، ذلك الخبيث كان يستحق ذلك... ولو عاد لطعنته بألف طريقة مغايرة..."

- "حقا... يمكنني أن أفهم شعورك جيدا، فنفس الأمر وقع لي أيضا..."
وسرت في جسد الأمير جابر قشعريرة باردة مثل أن أشواكا دخلت جسمه، حينها أردف الساحر:

- "أتعلم، لم يتفوق علي نجيد من فراغ... كان موهوبا في استعمال السحر بالفطرة، لكنه كان المفضل لدى المعلم أيضا، كان لدينا معلم لطيف مثلك، لا يفكر أبدا في أذية من ليس في حاجة إلى أذيتهم، أتدري ماذا حدث بعد ذلك؟ قام بقتله، أجل... نجيد قتل معلمنا وسرق تعاويذه، علي أن أقر بأنه سبقني لذلك... أيمكنك رؤية الأمر؟ في قصتنا كان نجيد هو الشرير في البداية، ثم أصبح البطل بعد ذلك، وكنت أنا التلميذ البريء في البداية، ثم صرت شرير القصة... ربما لم يفهم أي أحد ما وقع، لكن ذلك ما حدث فعلا، كلانا كان يحمل نورا وظلاما في قلبه... من يدري، ربما تصير تابعا لي في نهاية هذا، حسنا، ذلك لن يحدث، لأنني قررت قتلك... الأشياء لا تدوم على حالها، عليك أن تُقر بهذا أنت أيضا... كم من شخص عرفته في حياتك قد

تغير، دون أن تنظر في السبب... حبيبتك، صديقك... حتى عدوك الذي قتلته قبل لحظة كان قد تغير...” .

-”لا تقارني بك أيها المارق، فأنا لا أمضي السيف في أحد إلا وكان أهلا له...” .

-”ذلك ما تظنه، يمكنني أن أقول هذا أيضا... فإنك لو امتنعت عن قتالي في بداية الأمر لما فكرت في قتلك، إنني معجب بك حقاً، لكن لا يمكن تغيير هذا بعد الآن أبداً، إنك قد دمرت لي ثلاث جيوش كاملة في يوم واحد، كما أنك أول رجل بعد نجيد استطاع أن يسبب لي ضرراً جسدياً، وهذا أمر لن أسامحك عليه أبداً...” ونظر الساحر بعدها في قبضتيه بفخر بالغ:”إنك بالفعل قد جمعت أسباباً كافية ستجعل من قتلي لك عملاً بريئاً جداً إذا كنت سأخذ بالمنطق الذي تأخذ به أنت...” .

الآن أتى كل من القائد ليث ورشا فوقفا بجانب الأمير جابر وكان يهم بقول شيء ما غير أن لسانه انعقد فجأة.

صخر

من ظلام الهوة، راحت يد حجرية ذات أصابع عملاقة تخرج ببطء شديد نحو الأعلى حتى تعلقت بحافتها، وما إن شعر الساحر بظهورها حتى انفلتت منه ضحكة شرسة، ولم يكذب يسكت عنها إلا وعاد يخاطب ثلاثتهم بلهجة متوعدة:

- "الآن دعوني أعرفكم على هذا الشيء، إنه وحش أرض النار، أعظم وحش في هذا العالم، وخادمي أنا الحاكم رماح، إنه مصدر طعامي وطاقتي الأبدية، به أتحرق من القيد الذي كان بي، مخلوق عاش لسبعة قرون في وعاء من نار دون حركة، لقد ضللت أطعمه النار والحمام كل تلك المدة، حتى أعدّه لهذا اليوم، وسيكون هذا هو أسوأ أيام هذا العالم، سوف أسحقم جميعاً مثل الحصى الصغيرة...".

وبينا الساحر ماضٍ في لغطه، قالت رشا وقد شحب لون وجهها:

- "ماذا نفعل الآن...".

وقال القائد:

- "نموت، وهل بأيدينا شيء آخر لنفعله؟".

وقال الأمير جابر وهو يصبوب نظره خلف الساحر:

- "انتظرا قليلا، إن الأمر سينجح، أنا متأكد من هذا...".

كان ذلك المخلوق يظهر بتدرج، فأتت يده أولا، ثم مقدمة رأسه، وظهرت عيناه مملوئتان بنار الحمم، وظهر منكباه بعد ذلك، كل شيء فيه كان مصنوعا من الصخر المتكسر، كان منظره يشبه منظر طفل يخرج من مدخنة، فقد بدت الحفرة ضيقة لكبر حجمه، وكان نفس الساحر قد عاد في هذه اللحظة بعد ضحكة غرورٍ أخرى أطلقها:

- "الآن بات مصير هذا العالم بيدي، لا شيء سيوقفني، فبمجرد أن...".

وقاطعة الأمير جابر فجأة بقوله:

- "لكنه لن يخرج...".

وصلت كلمات الأمير إلى أذن الساحر بشكل متأخر، ومرت لحظات حتى قرر أن ما وصل إلى سمعه كان ذلك، وحينها تجهم وجهه ويبس مثل وجه ميت، إذ شعر بأن خطبا ما قد حدث، ولما كان يفترض بذلك المخلوق أن يكون خروجه قد اكتمل حتى هذه اللحظة، فإن الساحر استدار نحوه فراه لا يزال غارقا في الحفرة حتى منتصف جسده.

اقترب الساحر من حافة الهوة فوجدها تكاد تفيض بالماء وأنّ الماء قد غطى نصف جسد ذلك المخلوق فاتسعت عيناه بالدهشة، وقال غير مصدق لما يرى:

- "ما الذي حدث، إن هذا... إن هذا غير ممكن، ليس حقيقيا أبدا... هذا لا يمكن أن يحدث..." وانخفض صوته حتى صار شحيحا: "أيها المخلوق البديع الذي طال انتظره، أفلا تتحرك...".

وكان ذلك المخلوق قد صرخ نصف صرخة تشبه احتكاك الحجر ثم تيبس فمه الكبير وتجمد في مكانه وتوقف عن الحركة تماما عند هذا الموضع، فكان يميل رأسه الكروي الثقيل وينظر بعينيه الحجريتين إلى سيده، بينما تنطلق من منكبيه العريضين ذراعان تمتدان كجذوع الشجر وقد تعلق أحدهما فوق رأسه في السماء تمتد بأصابع من صخر مفروشة كأنما تحاول التمسك بشيء معلق، فيما تسقط الأخرى عند الحافة تتمدك بالأرض التي أغرقها ماء المطر، لكن في لحظة تحركت الذراع التي في الأعلى في رعدة صغيرة ثم سكنت تماما عن الحركة، وانطفت عين المخلوق بينما راحت خطوط النار على جسده تخبو ببطئ وتخد، وفتّرت ثورة الساحر وزال عنه

الغروّ حتى لكأن المطر سلخ عنه رداء التفاخر كما يسلخ السكين رداء الغنم،
وحينها قال بصدر منقبض:

- "ما هذا الشعور الذي يراودني؟ أنا أهزم؟... أنا الحاكم، هذا غير حقيقي، هل
تم خداعي؟..." وتذكر صديقه فجأة: "نجيد، أهذا أنت؟ لقد هزمتني وأنت على
قيد الحياة، فهل فعلتها أيضا وأنت ميت؟... أم أنا من كان ضعيفا جدا!!...
نجيدا!!... لقد هزمني أطفالك، أولئك الأغرار، هل أنت ترى ما فعلوه بي؟...
إنك تعلم أن نفسي هذه ما هي إلا امتداد لنفسك الأولى، فلماذا أرسلتهم
نحوي؟ لماذا ما زلت تعبت معي؟ أأنت أول من علمني الغدر والخبث،
فلماذا الآن تقف في طريقي؟... نجيد... إنني...".

وخفض الساحر رأسه حتي بدا منكسا، فأتى صوت الأمير جابر من

خلفه:

- "لقد اغتررت بنفسك حتى نسيت ما كان يحدث من حولك...".

وقال الساحر بمثل ذلك الصوت الحزين الذابل:

- "لقد خدعتموني...".

- "أجل... ثم إنك قد حفرت حفرة لنفسك، وانقلب عليك سحرك... إنّ موقع

قلعتك بعيد جدا عن هذه النقطة، لكنك قمت بحفر ذلك الخندق نحو هذا

المكان تحديداً، وليس ذلك إلا لأنك كنت على علم بالمكان الذي سوف تظهر فيه البوابة العظمى، يبدو أنها تظهر هنا على رأس كل مائة عام، أليس هذا صحيحاً؟” .

- ”لقد عرفت كل شيء إذا .!!”

- ”أجل... والآآن يبدو لي وأنك تتسائل عما حدث هنا، سأخبرك... بما أنك وقعت في هذا... كل ما في الأمر أن صديقك نجيد قد ترك لك هدية قبيل رحيله، إنها وصية نقلها لي تلميذه ساري يوم أن سقط الصرح وانذك وتحطم...” .

وهنا لوى الساحر عنقه ببطء حتى أمكنه رؤية خيال الأمير واقفا خلفه:

- ”هل هو من أخبرك بأن ترسل البخار نحو السحب؟” .

- ”لنقل أنني لم أفهم معنى وصيته جيداً في البداية، حتى نزلت إلى أرضك، وحينها فقط عرفت ما علي فعله... إن مياه المطر حينما سقطت على الحمم جعلتها تتصلب، وارتفعت الطبقات وتصلبت فوق بعضها حتى سدت الخندق، وصارت الهوة مثل بئر كبير فملأته المياه بسهولة كما ترى...” .

الآن عاد الساحر ببصره نحو الهوة وكانت توشك أن تفيض بالماء، وتأمل صخر وكان غارقا فيها مجمدا قد تصلبت أطرافه، وعاد يقول بعد ذلك بصوت واهن:

- "لقد خدعتموني... كل ذلك العبث، إنما كان لإلهائي عما كان يحدث هنا...".

وقال الأمير من خلفه:

- "هذا يعني أنك لن تذهب لأبعد من هذا...".

واقترب الأمير أرون حينئذ من الساحر وجعل يخاطبه:

- "سيدي، أليس ثمة من طريقة لإحيائه؟".

ونظر إليه الساحر وقد راحت نار غضب بعيدا تتقد في عينه، وشعر الأمير بالفزع من تلك النظرة، ثم وقبل أن يشعر بما وقع له، كانت أصابع يد الساحر قد طوقت عنقه، وارتفعت قدما الأمير أرون عن الأرض وهو يخرخر ويترجى سيده، لكن لم يكن يبدو وأن الساحر سيتركه، وشعر الأمير بعدها بأن قواه تزول وتستنزف.

وقالت رشا وهي تتأمل المشهد المفزع:

- "ما الذي يفعله؟".

وقالت الأميرة رها وهي تأتي وعلى ثيابها آثار حرق:

- "يأكله، إنه يأكل تابعه المخلص..." .

فقال الأمير جابر:

- "هذا صحيح، فهو يمتص طاقته..." .

- "هل سيعود قويا كما كان قبلا؟" .

ولم يجب رشا أحد هذه المرة، لأنّه لا أحد كان يعلم.

عندما انتهى الساحر من امتصاص جسد الأمير أرون حتى أحاله خرقة

بالية فإنّه تركه يسقط عند قدميه وارفح بصره إلى السماء في نظرة مرعبة.

قال القائد ليث حينئذ وهو يرى وجه الساحر من تحت القناع وقد تبدلت

ملامحه:

- "الآن سيقبض روحي، أنا متأكد..." .

وقالت رشا:

- "ثلاثة ضد واحد، إننا..." .

وسمعا بعدها صوت الأمير جابر:

- "ابتعدا عن هنا، كلاكما، ابتعدا حالا..." .

أتت كلماته سريعة وصارمة، ونظر الإثنان نحوه، فصرخ فيها بصوت عالٍ:
- "هيا...".

بانتهاء صرخة الأمير جابر فإنّ الساحر كان قد ارتفع نحو السماء ووقف في نقطة تقارب وجه صخر، وبدأ جسده يلتهب تدريجياً، فظهرت نار في يده اليسرى ثم في ذراعه ثم في رأسه، وجعل يفرد ذراعيه ليتمتم بكلام غريب فخيّل للناظرين بعدها أنّ شمساً صغيرة قد بدأت تظهر في كبد السماء وراح حجمها يكبر شيئاً فشيئاً حتى صار منظرها مرعباً.

اتسعت عينا الأمير جابر تدريجياً وارتعد صدره من هول المنظر، وفغر فاه وارتخت ذراعه حتى سقط سيفه من يده دون أن يشعر، ولم يعد يسمع بالأصوات حوله وهو يرى تلك الشمس تنزل نحوهم مثل المذنب المدمر.

منطقة محرمة

من داخل الإطار الخشبي المعلق على الجدار المقابل، اعتادت عينا السيد عادل خبير الآثار وبنظرة واحدة لا تتغير، أن تنظر في تفاصيل غرفة المعيشة، كل صباح ومساءً، فظلت صورته معلقة لعدة أشهر منذ عودة خولة من ذلك العالم الصغير المختبئ وسط الصحراء.

رنّ صوت ملعقة وهي تدور بداخل فنجان شاي مصنوع من الزجاج الأبيض، للحظات ظل يأتي من غرفة المطبخ، لكنه سرعان ما راح ينتقل نحو غرفة المعيشة.

مشت خولة تنتعل جوربين من قطن أبيض على البساط الأخضر حتى جلست على أريكة تقابل التلفاز مباشرة.

أخذت آلة التحكم ورفعت صوت التلفاز قليلا، وارتفع معه صوت المطر في الخارج، قامت خولة لتغلق باب الشرفة لكن عندما استدارت عائدة وقعت عيناها على صورة والدها للمرة الأولى هذا اليوم، لكن للمرة المليون منذ رحيله، وقفت تحمق فيه بنظر شبه فارغ، ارتج كأس الشاي في يدها، وأحست بألم يلدغ صدرها، أيضا للمرة المليون منذ رحيله.

عادت تجلس على الأريكة فثنت ساقها، في التلفاز يتحدثون عن منطقة سقوط النيزك والأعاصير الرملية التي باتت تظهر فيها بشكل مفاجئ، يتحدث المذيع فيقول أنه لم يتم إحصاء أي اختفاء آخر منذ أسبوع كامل، لأن عدد المتطفلين قل كثيرا، الذين يمتلكون الشجاعة فقط هم من بقوا يحضرون إلى تلك المنطقة لالتقاط الصور خلصة، لأن فرقة من الجيش قد عسكرت هنالك على مسافة قريبة، وراحت ترسل أفرادها من وقت لآخر من أجل التحري في الأوقات التي لا تتواجد فيها الأعاصير الرملية، واصلت خولة رشف شايها بينما تتابع الأخبار بعينيها الباردتان فكانها تشاهد فيلما وثائقيا عن حياة نبتة، ما يقارب العشرين شخصا قد اختفوا كلهم وسط تلك الزوابع الرملية، بعضهم في جماعات وبعضهم فرادى، لم يكن ثمة من سبيل للهرب أو الفكاك منها، اللذين نجوا حكوا عن صراخات رفاقهم، لم تكن لها أصوات أبدا، اللذين نجوا أقسموا ألا يعودوا إلى الصحراء مرة أخرى، أحدهم يتحدث.

- "لا، ليس الأمر كما تظنون، إننا لم نخاطر بحياتنا، لقد كنا نقف هنالك لالتقاط بعض الصور، لكن الأعصار ظهر فجأة فوق رؤوسنا، ربما أنا محظوظ كثيرا، لكني رفيقاي ليسا كذلك... لقد أخذهما الأعصار حتى قبل أن يلحظا وجوده، لكنني ركضت، ركضت بأقصى سرعة، لأنني لمحتة قبل أن

يصل إلينا، حاولت تحذيرهما، لكنهما لم يسمعاني، لقد كنت في الخلف تماما، أبعد عنهما أربعين مترا، كانا منشغلين بمحرك السيارة، لقد صرخت، لقد فعلت ما بوسعي، لكن كان علي الهرب بعد ذلك... إنني حزين لأجلهما، حزين جدا، تلك الأعاصير مخادعة، وقاتلة، إنها تظهر أمامك فجأة، تأخذ منك صوتك، ثم تأخذك بالكامل، لكنك إذا وصلت خارج منطقتها فلن تطاردك أبدا، إنها...".

تحدث الرجل لوقت طويل جدا، قال ما عنده، أصبحت الصورة في عيني خولة ضبابية، الجو يحثها على النوم، رغم أنها استيقظت لتوها، الشقة دافئة جدا، لكنها فارغة أيضا، ثلاثة أشياء فقط تتحرك، يداها عندما ترفعان فنجان الشاي وألوان التلفاز ونار المدفئة، عكس ما في الخارج، إذ يبدو وكأن كل شيء يتحرك، لا شيء ثابت، وهذا يذكرها بشيء ما، إن الشقة تبدو كعالم صغير يختلف كثيرا عن العالم الكبير الذي يقبع خلف النافذة.

عاد المساء مرة أخرى، وعادت خولة لتقف عند الشرفة، كل الأيام التي تلت رحيل والدها انتهت بنفس النسق، إنها تستيقظ في وقت متأخر، تشاهد التلفاز ثم تخرج لتتجول قليلا في الخارج ولا تلبث أن تعود مجددا إلى الشقة،

ربما كانت تذهب إلى قبره، ثم تمر على حوانيتها المفضلة، ولا يكون قد مرّ من الوقت ساعة حتى تنتهي من كل ذلك، إعداد الغداء يستغرق ساعة أيضاً، مهما كان نوعه، تلك التفاصيل الصغيرة من حمل السكين ووضعه، أو إخراج طبق أو إيقاد فرن، كلها باتت تحتاج وقتاً مضاعفاً، مشاهد ذلك العالم لم تزل تظهر لها في كل شيء تلمسه، كل شيء يلمع أمامها كان يتحول إلى نافذة زمنية.

أطلت بوجهها نحو الأسفل، الشوارع مبتلة وباردة، الناس ينحسرون إلى البنايات والأنوار تبهت، إنها تبهت مثل... ربما، مثل جمرات صخر حين أطفأها المطر، أحكمت خولة قبضتها علي فنجان الشاي، دافئ، هو ليس كدمية الساحر، دافئة وخطيرة، وهنا انهالت عليها الصور فجأة، دفق غزير من الصور.

– قبل ستة أشهر –

نظرت خولة نحو الأسفل، وكان جناحي الغراب يهتزان من تحتها، لم يكن بمقدورها التصويب جيدا، ظلت تشد قوسها وتصوب سهمها نحو الساحر في انتظار أن تتاح لها تلك الفرصة.

على الأرض وقف الأمير جابر مُرخيا ذراعيه ينظر إلى الساحر رماح وقد طلعت من بين يديه نار كالشمس أضاءت الأرض ونالت الجميع بحرّها، انعكست كرة اللهب العظيمة في حدقتي عينيهِ وراحت تكبر فيهما وتعظم، هذا بينا الساحر ينظر إليه وعلى وجهه أمارة النصر، كان يتفرسه بضحكة شيطانية، استعد الساحر لإلقاء كرة اللهب نحو أعدائه، وحينها عدت صيحات من المعسكر الجنوبي لكنها لم تصل أبدا إلى حيث أُريد لها، لقد كانت تمضي في الهواء وتتكسر، صاح القائد ورشافي وقت واحد نحو الأمير جابر، ظنا أنه قد غادر المكان أيضا، لكن بعد قطعهما مسافة، أدركا أنه لم يلحق بهما، لا ولا حاول إنقاذ نفسه، لقد ظل جسده ساكنا لا يتحرك، تباطئ الزمن، بدأت كرة اللهب العظيمة في الإنزلاق نحو الأمير جابر مباشرة، انطلقت... لكنها انطفأت بعد ذلك فجأة، نظر الساحر إلى كتفه، ليس بكل برأسه، بل

بعينه فقط، وتأمل ذلك الشيء للحظة، ولو كان في حلقه ريق لا ابتلعه، لكن النار تسكن جسده، وعينه أيضا، شعت النار فيهما حتى كادتا تنفجران بها ثم خبت مباشرة بعد ذلك، أصبحت عيناه سوداوتان فارغتان لا شيء فيهما، فقال بصوت متكسر:

- "من أين أتى هذا؟".

انفلت الزمن، ووصلت آخر تلك الصيحات إلى مسمع الأمير جابر فتحرر جسده وعادت إليه الحركة، تراجع بضع خطوات متقهرا ثم تمالك نفسه، ونظر إلى السماء فوجد الغراب وقد راحت أجزاء من جسده تظهر شيئا فشيئا حتى اكتمل، ورأى خولة والأميرة هند تقفان على ظهره، لقد نجح في إرساله لجلب خولة دون أن يلحظه أحد.

وضع الساحر يده على السهم الذي نشب في كتفه فانتزعه بسهولة بالغة، لكن الدمة التي كانت مربوطة في آخره راحت تحترق مثل قطعة ورقت بعدما لامست جسد الساحر مباشرة، ترك الساحر السهم يسقط من يده، لكن نارا سوداء اشتعلت بعد ذلك في كتفه، ولم تزل به حتى نزلت إلى ذراعه، وحينها نظر إلى الأمير جابر، أراد مخاطبته، لكنّ صوته أتى ضعيفا جدا، قال وهو يوشك أن يموت في تلك اللحظة.

- "إن عدتُ فلك عليّ عهد أن أقتلك بطريقة لم تقع لأحد من قبلك، يا أمير أرض الشجر، لقد تمكنت مني بدهائك...".

وما كاد يقول ذلك حتى غطت النار السوداء جسده بالكامل، وهوى نحو الأسفل كصخرة مشتعلة، لكنه وقبل أن يغرق في ماء الحفرة رأى وجه صخر للمرة الأخيرة، بينما ينزل على رأسه، رآه متجمدا ينظر إلى الفراغ دون أن يستطيع فعل شيء لأجله، ثم نظر نحو الشمس التي قام بصنعها فرأها تختفي وتتبخر قبل أن تصل إلى هدفها، وما هي إلا لحظة وغطت النار السوداء عينيه وهو يغرق في ماء الهوة.

راقبت الفتاتان من على ظهر الغراب الساحر وهو يسقط، لكن بعد لحظة نزل بهما الغراب إلى الأرض، وقال الأمير جابر وهو يستقبلهما بابتهاج وسرور لم يرد إخفائه:

- "لم أكن متأكدا من أنك قد استعدت عافيتك".

وابتسمت خولة بخجل وفرح عظيمين جعلها خذاها يحمران بشكل واضح.

قالت الأميرة هند حينئذ.

- "وأنا لم أكن متأكدة مما كنتا تنوي فعله، لكن حينما رأيت الغراب يتحول إلى هيئته الثانية فيما يتوجه صوب الغابة الناعمة فقد فكرت مباشرة في أنك إنما أرسلته لإحضار خول، وحينئذ أردت تقديم بعض المساعدة الإضافية، فأخذت الدمية من الأميرة مايا وانتظرت قدوم الغراب في غفلة من الساحر."

نظر الأمير جابر بعدها إلى خولة، فخرجت من نظراته، ذلك أنه لم يكن يضع قناعه، بعدها أتى الجميع فتحلقوا في حلقة كبيرة حولهم، وجاء صوت القائد:

- "لقد هزمنا آخر شرير في هذا العالم، ألا يستدعي هذا أن نفعل شيئاً؟".
وسألته رشا:

- "مثل ماذا أيها القائد؟".

- "أن نرقص!! لماذا لا نرقص فرحاً؟".

- "حسناً، يمكنك فعل هذا، فلا أظن أن ثمة ما يمنع، تفضل ونحن سنشاهدك وأنت ترقص...".

- "ماذا، لو حدي؟ هذا لا يمكن...".

- "بلى يجب أن تفعل، ثم أنه ينبغي علينا أن نحتفل بطريقة ما، مثلما قلت تماما، بعد كل ما حدث...".

ونظر القائد بعينه يمناً ويسرة، ثم إنه مطّ شفتيه وشعر بإحراج شديد مما قاله، وتنبه لأمر لينقذ به نفسه، قال يتظاهر باهتمام مصطنع:
 - "الأمير أرون!! هل نسيتم أمره؟ أنا متأكد من أن قلبه مازال ينبض".

وهنا انفجرت ضحكات الجنود من حوله، ذلك أن أمير أرض الدخان كان بالفعل قد اختفى هو ووحشه، بالإضافة إلى خادم الساحر الذي فرّ مع بعض المخلوقات المجنحة بشكل مفاجئ ودون أن يلحظهم أحد.

انتهت لحظات السعادة، وتوقفت معها الغيوم عن إنزال المطر وانزاحت عن السماء فاندفع نور الشمس نحو الأرض حتى أضاءت كل شيء حول الجبل، وجاءت طيور الغابة من كل صوب تحلق فوق البحيرة الجديدة وبعضها حط على رأس صخر ومنكبيه ويده الممدودة في الفراغ، بدا وكأنّ الربيع جاء يندفع إلى الغابة الوسطى في هذه الساعة، فظهرت خضرة الجبل وازدانت السماء بزرقتها، وخرجت الخيول برية من بين الظلال لتشرب من البحيرة وترعى بجانبها، حدث كل شيء بشكل مفاجئ وبسرعة.

وقف الأمير جابر يتأمل جثث الموتى بحزن خانق بنا يتم جمعها في مكان واحد، لكنه نظر بعد ذلك نحو خولة ووجدها لا تقدر على كفكفة دموعها وهي تعانق والدها، ثم شدّ بصره بعد ذلك منظر بوابة سحرية عظيمة وهي تظهر أمامهم في وسط الساحة.

بينما انفردت كل من خولة والأميرة مايا بعزيميها، وسط دفع غزير من المشاعر الحارة، أتت رشا إلى خولة لتخبرها بأمر البوابة، وحينها قامت خولة تبحث عن الأمير جابر بعينيها، ووجدته يقف قريبا من البوابة يطالعها شارداً. وأتت عنده فقالت:

- "هل أنت بخير؟".

وردّ وهو ينقل بصره إليها:

- "أظن أنه ينبغي عليّ شكرك لأنقاذك لنا جميعاً، لقد أحسنت صنعا لما فعلته...".

- "تقصد إصابة الساحر!! لم أفعل شيئاً، فتلك الدمية تكفلت بكل شيء...".

- "حسناً، لم يكن من السهل إصابته بها أليس كذلك؟".

- "ربما...".

- "سوف تغادرين إذن؟".

اضطربت دقات قلب خولة عند سماعها هذا، فنظرت نحو والدها وكان يتلقى الرعاية من قبل رشا، عادت بعد ذلك فنظرت إلى الأمير نظرة تمحيص وتدقيق غريبة.

- "ماذا أفعل إذن؟".

- "لا أدري، الأمر متروك لكما...".

- "لقد سألني والدي قبل قليل إن كان ثمة من طريقة لنعود بها إلى عالمنا...".

...

- "أنت ما رأيك؟".

- "ليس لي رأي في أمر يخصكما وحدكما...".

- "حقا.!!"

- "أجل...".

- "كم بقي على غلق البوابة؟".

- "ربما بضعة دقائق...".

- "ألا يمكن إعادة فتحها مرة أخرى؟".

- "تعرفين أن ثمة طريقة لذلك..." .

وتذمرت خولة عبر تحريك شفثيها بشكل متعرج، فلا يمكن فتح معابر أخرى إلا باستعمال تلك القلادة، أو عبر سقوط مزيد من الجثث، وفهمت أنها إن تأخرت عن الذهاب الآن فإنها قد لا تقدر على الخروج بعد ذلك أبداً، ونفس الأمر سيحدث لو أنها غادرت إلأى عالمها، فإنها لن تستطيع العودة مرة أخرى، امتلاً حلقها بغصّة حتى شعرت بذيق لاذع، وانقبض صدرها ألماً، ونظرت إلى والدها مرة أخرى.

- "وأنت، ألا تخرج؟" .

- "تعرفين أنه لا يمكنني فعل هذا، إنّ الفوضى التي أحدثها الساحر هنا لن تستقيم من تلقاء نفسها، لدي مسؤوليات كبيرة تجاه شعبي وتجاه هذا العالم..." .

- "أنت محق..." .

قالت خولة ذلك وهي تخفض بصرها، وحينها رأى الأمير ارتعاش يديها، وبينما تهم بإخفائهما خلف ظهرها اقترب منها فجأة وظمها إلي صدره.

أسندت خولة ذراع والدها إلى كتفها ووقفا معا على مقربة من البوابة،
 وحينها نظرت خلفها بعين دامعة، ورأت كل الرفاق يشيعونها بنظرات حزينة
 منكسرة، رشا الفتاة المحاربة والقائد ليث والعجوز حيدر والأمير جابر أيضا،
 كذلك الأميرتان هند ورها، جميعهم كانوا يقفون في خط واحد، ومن خلفهم
 كل الجنود اللذين نجوا من المعركة، والعقرب والتمساح والغراب أيضا، لقد
 وقف الجميع يحيونها شاكرين لكل ما فعلته لأجلهم، وكل ما بذلته من أجل
 هذا العالم، منذ قدومها، كل تلك الرحلات التي خاضتها معهم إلى أخطر
 الأماكن، إلى مكامن الأعداء تحديدا، إلى أرض الرمال وأرض الرماد وأرض
 الرياح، قال القائد ليث وعينه توشك أن تفيض دمعاً:
 - "هل حقا ستغادرنا دون رجعة؟".

ولم يجبه أحد في تلك اللحظة، إنما ساد صمت مريب بينهم ثم انتهى حين
 فضّته رشا بقولها:

- "لكل بداية نهاية، حسنا، إنني أبكي الآن بلا خجل، لقد أحببتها كثيرا...".
 وقالت الأميرة هند:

- "أنا أيضا، ولن ننسى فضلها علينا، أعلم أنها لم تدّخر جهدا من أجل
 مساعدتنا في إنقاذ عالمنا...".

لم تقل الأميرة رها شيئاً، كذلك الأمير جابر لم يعلّق، أما العجوز صاحب العنزة فلم يكديكف دموعه وهو يرى هذا المشهد، وأتت من أنفه المحمر شخرة أنهت ذلك الانتظار المر الطويل الذي أرهقه، لقد انغلقت البوابة وانطبقت على نفسها فجأة، مؤذنة بانتهاء الكارثة، وبرحيل خولة أيضاً.

رمل

عادت خولة من شرودها حينما علت مزامير السيارات في الأسفل، ثمة حادث صغير قد وقع وانتهى بشجار صغير أيضا، مما جمع الناس في مكان واحد، اللذين كانوا في عجالة من أمرهم أصروا علي فض الخلاف بمزامير سياراتهم، رفعت خولة بصرها عن الشارع، ظهر القمر يطل من خلف الغيوم بعين واحدة، وكأنه يتجسس على أحد ما من خلف سحابة كبيرة، انتهى تدفق تلك الصور إلى رأسها، تنهدت نحو السماء بقوة، ودمعت عيناها مجددا، رأت كأن طيرا قطع طريقا عبر القمر، فجف دمعها، ومدت عنقها لتبحث عنه باهتمام لكنها لم تعثر عليه أبدا.

السابعة صباحا، والأخبار تتدافع على شاشة التلفاز مرة أخرى، أرخت خولة عنقها على ظهر الأريكة وأغمضت عينيها، تحدث المذيع عن ظهور تلك العواصف مرة أخرى، فقد باتت تشغل الرأي العام منذ أشهر، ولا تخلو قطعة زجاج ذكية من تلك الأحاديث والصور، سيل من الأفكار تقاطعت في ذهنها، أرادت أن تسترخي قليلا قبل الرحيل فسقطت يد التحكم من يدها،

فكرت في الأمر مرة أخرى... لكنها بالفعل كانت قد اتخذت قرارها منذ يوم مضى.

قادت خولة سيارة والدها بعيدا عن المحمدية، في الراديو كانت تذاع أغنية هادئة باللغة الفرنسية، بدت مناسبة جدا، الطريق السريع سلسل ولا وجود للاكتضاض هذا اليوم.

بعد ساعات من السير المتواصل وصلت خولة إلى حدود المنطقة المحرمة، وبالفعل كانت هنالك جمهرة عظيمة، طوابير من المركبات السياحية، وأناس يقفون في خط طويل على امتداد حدود المنطقة المحظورة لالتقاط الصور، تركت خولة السيارة وهي تحمل ثورة والدها في يدها دون أي غرض آخر، لقد تركت كل شيء خلفها، مشت بضع خطوات نحو الجمهرة وتقدمت حتى أخذت لنفسها مكانا بينهم.

أمكن لها أن ترى عددا من الجنود المسلحين يحومون حول آثار النيك في ثنائيات متقاربة، لم يكن هناك أثر للزوابع، لكن كان يبدو وكأنها على وشك أن تظهر، لأنّ رجلا قال بأنها لم تظهر منذ بضع ساعات ولا بد وأنه قد حان وقت ظهورها، نقلت بعد ذلك عينيها في حدود المنطقة، وقررت سريعا

أنه إنما ينبغي عليها تغيير خطتها، ذلك أنّ الركض السريع لن ينفعها في وجود كل أولئك الجنود المستعدين للإمساك بها.

عادت ودلفت إلى السيارة مرة أخرى وجعلت تنتظر بصبر فارغ، والآن وبعد مرور بضع دقائق كان أحد الجنود قد وضع قارورة ماء فوق وجهه وراح يفرغها في فيه لكن رملا نزل مع الماء الذي كان فيها وسقط في حلقه.

أرجع الجندي الماء بصعوبة وما كاد يرفع رأسه حتى وجد صاحبه يصرخ بأعلى صوته نحو سيارة كانت قد مرت مسرعة بجانبها قبل لحظة.

بعينين ضيقتين وعزم كبير قادت خولة السيارة نحو إعصار رملي كان قد بدأ في الظهور منذ لحظة في وسط المنطقة، اندفعت نحوه في سرعة مجنونة، وما إن وصلت إليه حتى التقمها بسرعة فاخفت سيارتها أمام مرأى الجميع.

دمار

للمرة الثانية يدخل جسم معدني كبير إلى هذا العالم المتخلف، شيء
ولشدة تطوره فإنه يصبح عديم الفائدة تقريبا. وقفت السيارة لوحدها على سفح
تل وقد حُشرت عجالاتها بين صخور محترقة، ومن هنالك انطلقت آثار أقدام
تتجه نحو الحافة.

مشت خولة وهي لا تكاد تصدق ما تراه من حولها، آخر مرة كانت هذه
الأرض حتى وهي في خضم الحرب أفضل بكثير مما هي عليه الآن، لقد كانت
ملئى بالشجر الأخضر، ملئى بطيور كثيرة، ملئى بأصوات الوحوش، وبألوان
شتى، لكنها الآن!!.. ما الذي حدث، ما الذي أمكنه فعل هذا؟ ألم يكن الشر
قد انتهى بموت الساحر؟ وقفت خولة فجأة على حافة السفح تطالع العالم
بعينين ذاهلتين يكاد ينفجر منهما دمع حارق، الأراضي بات يغطيها لون
واحد ساحق، سواد في كل جانب، وكأن هذا العالم قد صب عليه الزيت وأحرق
بالكامل!... بعد قليل من التحديق استطاعت تحديد مكان تواجدها بدقة، إنها
أرض قريبة من الأرض الناعمة، أي أنها تقف الآن في وسط هذا العالم، كان
يبدو وكأن لا شيء قد بقي على قيد الحياة، رائحة الخشب المحترق تملأ

الجو، وفتات الرماد يتطاير، أشجار قليلة فقط تلك التي استطاعت أن تحتفظ ببعض أغصانها، شيء لكن كان هنالك شيء لم يتغير، إن تلك الغيوم فوق رأس الجبل كانت لا تزال ثابتة في مكانها كأنها قطعة منه لا تتزحزح.

أخرجت خولة صورة والدها من جيب بنطالها ومشت تنزل المنحدر، عندما وقفت مفترق الطرق الذي يربط بين الأرض الوسط وأرض الرماد وأرض الغابة وصل إلى سمعها صوت أنس وحشتها للحظة، لقد كان سهيل أحصنة شريفة وقفت تلتقط أعشابا من تحت شجرة مورقة، اقتربت من أحداها بهدوء وجعلت تمسح على رأسه، لكنه بدا غير مكترث ولا خائف.

- "أجل، كما توقعت تماما، أحصنة مدربة ومملوكة مسبقا، ربما مات أصحابها في مكان قريب من هنا...".

وامتطته بعد ذلك وجعلت تنطلق به مسرعة نحو أرض الغابة.

لم يكن بوسع خولة (حينما رأت الأرض التي عاشت فيها فترتها السابقة في هذا العالم وهي تستقبلها بتلك النظرة الكئيبة) إلا أن تشعر بانقباض صدرها، فلقد ارتعشت عيناها بينما تثقل خطوات الحصان تدريجيا، إن أرض

الغابة نفسها لم تسلم من الدمار الذي طال هذا العالم. تاما مثل كل تلك الأراضي والقرى التي رأتها مدمّرة على جنبات الطريق أثناء قدومها من الأرض الوسطى، لقد احترقت كل الغابات المحيطة بالمدينة فذهبت خضرتها وضلالها واستحالت جذوع وأغصان مسودة ومدمّرة، تركت خولة الحصان يذهب ومشّت بخطوات مترددة نحو بوابة المدينة، جزء كبير منها قد احترق وسقط، لقد شعرت وكأنها تدخل مدينة أشباح قديمة، معظم البيوت تدمرت، كل الأسقف خرّت، بياض الجدران قد ذهب، بعض الأزقة سُدت، السوق الكبير فارق أصحابه، تلك الجلبة التي كانت تحيا فيه قد ماتت، مرّت على السجن الذي احتواها ذات مرة، رأت عينا رشا تتمثلان من خلف القضبان حينما كانت تصف لها شكل الأمير لما كان واقفا على شرفة قصره، غلبتها دموعها، هل حقا كل ذلك قد ذهب؟، هل أنها فعلا دخلت ذات العالم؟، مشّت تنتقل بين الأزقة بخطى أصابها الوهن، وصلت إلى باب القصر أخيرا، لكن حاله بانث من مبعده، كان قد تحترق بدوره وسقط جزء من سقفه... خرجت منه بسرعة ولقد شعرت بضيق ووحشة بالغتين فجثت على ركبتيها على عتبة المدخل تشهق باكية.

بعد ساعة، وكانت خولة قد غادرت القصر لتبحث في المدينة أكثر، إذ بها تلمح شيئاً كان قد تحرك في الظل ومرّ كالشبح من أمامها، هرولت خلفه مسرعة، بدت حركته أبطأ من أن يكون قادراً على الاختفاء بعيداً، في زقاق ضيق شعر ذلك الشيء أخيراً بأنه قد حشر نفسه في مكان مسدود فتوقف تماماً عن الحركة... دنت منه خولة على وجل، ومدت يدها.

- "مرحباً، ما اسمك؟".

...

- "أرجوك لا تكن خائفاً مني، إنني لن أؤذيك أبداً...".

ومسح الطفل براحتيه الصغيرتان دمعاً تحجر في مقلتيه وعاد يأخذ قطعة الخبز المتعفنة من الأرض وجعل يقول بصوت باكٍ متقطع:
- "هل... هل لديك طعام يا خالة؟".

ووخز كلام الصغير صدر خولة، حتى لقد جثت على ركبتيها أمامه.

- "هل أنت وحيد هنا، أم يوجد غيرك؟".

- "يوجد آخرون أيضاً".

مشت خولة رفقة الطفل خلال الأزقة المتسخة حتى انتهيا إلى بيت صغير لم يكن قد تهدم سقفه، وحينها جعل الطفل يتقدم فضرب الباب بقبضته الصغيرة ضربة ثم اثنتان ثم ثلاثة.

- "لماذا تفعل ذلك؟".

- "إنها رمز الأمان هنا، إذا كان الطارق يعرف سرنا فسندخله...".

وزاد قلق خولة عند هذه اللحظة، إذ كان بمقدورها وبسهولة أن تحدد مقدار ما قد تبلغه أعمار اللذين في الداخل.

حوالي عشرين طفلا كان يقف بعضهم ويجلس آخرون في ثلاث غرف متفرقة، بعضهم كان يطهوا أعشابا بداخل قدر كبير وبعضهم كان يلعب وبعضهم كان يغط في نوم هادئ، نقلت خولة عينيها بينهم، وكان ظنّها صحيحا، إن أكبرهم لا يمكن أن يفوق الثانية عشر من عمره، وبعدها استقبلها الصغار بشيء من القلق، أتى كبيرهم وجعل يقول بصوت حاول رفعه بشكل يُظهره على غاية من القوة:

- "من أنت، ولماذا أتيت إلى هنا؟".

ولم تدرِ خولة ما تقوله من أول وهلة، إنما جثت مجددا حتى تمنح الصغار بعض الثقة:

- "أتيت للمساعدة".

- "إننا لا نريد مساعدتك، نحن بخير هنا، يمكنك الرحيل الآن ابته المرأة الكبيرة...".

كذلك قال الصغير بصوت منفر بينا وقف يسترجع أنفاسه المسرعة. وقامت خولة بعدها لا تدري ما تقوله، لكن الصغير الذي قابلته أول الأمر قال أخيرا:

- "إنها ليست سيئة مثل الكبار الآخرين يا أخي، أظن أنها لن تتركنا هذه المرة...".

وصرخ الطفل الكبير غاضبا بأعلى صوته:

- "بلى، ستفعل... ستذهب وتتركنا لوحدا مجددا، إنها تخدعنا...".

الآن قُرع باب البيت بمثل تلك الضربات المحددة، وقُتح الباب سريعا ودلف شاب يفوق الجميع طولا، وقف الشباب بعد عتبة الباب وكان يحمل عددا من الأرانب الصغيرة الميتة على كتفه يطالع خولة بنظرة حذرة.

- "من تكون هذه المرأة؟".

الآن بعد دقائق قليلة كان كل من خولة وذلك الفتى قريبا من بعضهما كل يمتطي حصانا، وعلى وشك أن ينطلقا في ركض سريع خارج أسوار المدينة، قالت خولة حينئذ وهي تمسح على رأس حصانها:
 - "إذن هل يبعدون كثيرا عن هنا؟".

وقال الفتى وهو ينتظر أنه يأتيه طفل أحد أولائك الأطفال بجراب سهام
 آخر:
 - "نعم، لكن قد نصل إليهم قبيل الظهيرة...".

وتناول الجراب عن الصغير بعد ذلك وودعه بجملة طمأنه فيها بأنه سيحضر مزيدا من تلك الأرانب الصغيرة في طريق العودة.

الآن غادر الاثنان أسوار المدينة المدمرة ودخلا دروبا جديدة متعرجة تخللت الغابات المحترقة كانت قد استحدثتها الخيول خلال الأشهر الماضية، أثناء الطريق دارت بين الاثنان محادثة، ولتكن بدايتها بإجابة قدمها الفتى:
 - "ليس كل الأطفال من أبناء المدينة، فبعضهم عثرت عليهم أثناء خروجي للصيد، مشردين يصارعون البرد والجوع لوحدهم، أغلبهم أتى من القرى والقبائل المنتشرة في الغابات القديمة...".

- "لماذا، هل قتل الساحر كل أهاليهم؟".

- "لا، لم يقتل الكثير منهم...".

- "فأين هم إذن، أين اختفوا هكذا؟".

- "لقد أخذهم رهائن...".

... -

- "أجل، عندما دخل المدينة بجيشه القوي قتل كل من قرر الوقوف في

وجهه، ثم إذ بالآخرين قد قرروا الإستسلام له والإنضمام إلى صفه...".

هنا اندفعت الدماء إلى رأس خولة، واكتض صدرها بمشاعر الأسى

والحزن والغضب.

- "وماذا عن الأمير جابر، ما الذي حدث له؟".

- "ها، أمير؟ أمير ماذا؟ لقد فر هو الآخر...".

كانت هذه إجابة خشيت خولة كثيرا من سماعها، لكنها أتت، ولم تقدر

بعدها على أن تقول شيئا، كان كل ما رآته بعد ذلك هو بقايا أشجار وأعشاب

وصخور محترقة بطيئة السرعة ظلت تعود من أمامهما وتراجع.

بعد ساعة من السير قالت خولة وقد باتت صور المكان تعود إليها:

- "أليست هذه طريق أرض الرماد؟".

- "بلى...".

قال الفتى ذلك بينما يصبوب بصره مباشرة بين أذني حصانه.

- "هل تدري ما الذي تقوله، أو حتى إلى أين ستأخذنا هذه الطريق أيها الفتى؟".

- "لا يهمني ما أقوله، ما دمت أقول الحقيقة، أو إلى أي مكان سأذهب، ما دام الطريق الذي أسلكه صحيحا...".

الآن قررت خولة أنها لن تعترض لأبعد من ذلك، فهي بطريقة ما وجدت صدقا في حديث الفتى، ثم إنه تحمّل المشقة لقطع كل تلك المسافة والقدوم برفقتها، لكن وبمجرد أن توقف الحصانان عن المشي أخيرا، عادت تقول وقد امتلأ حلقها بالدهشة:

- "هل أنت متأكد من أنك رأيتهم؟".

ورد الفتى بلا مبالاة كبيرة، لكن أيضا بالثقة ذاتها:

- "متيقن من أنهم يختبئون هنا، مثل الجرذان الخائفة، إنهم لا يخرجون إلا للصيد من وقت لآخر...".

وقالت خولة بعد لحظة قضتها في تأمل بوابة أرض الرماد المتكسرة:

- "لو أنك فقط أخبرتني في المدينة، حينها لم يكن عليك أن ترافقني حتى هنا."!!

- "لا يهم، كانت غايتي أن أتأكد من أنك ستذهبين بعيدا عنا...".
وظن الفتى بهذا أنه إنما قد قال كلاما قاسيا من شأنه أن يدفع خولة إلى عدم التفكير في العودة مرة أخرى، لكن خولة ردت عليه بعد لحظة وفي فمها ابتسامة:

- "أتعلم أيها الفتى... أعدك بأن كل هذا سينتهي، وسيعود كل شيء إلى سابق عهده، سأعثر على الأمير حتما، وسيصلح كل شيء، إنا...".
الآن وقد راح الفتى يتأمل خولة لأول مرة منذ لقائهما فإنه قال يقاطعها فجأة:

- "أنت هي تلك الفتاة التي قدمت من العالم الآخر، أليس كذلك؟".
- "أجل".

- "لا بأس أيتها الغريبة، لست مضطرة لفعل أي شيء لأجلنا، لو أنك فقط لا تقودين أحدا إلى الديار مرة أخرى... سيكون من الجيد أن تبقوا جميعا هنا بالداخل، فذلك سوف يبقيكم أحياء لفترة أطول...".

الآن وقع كلام الفتى كالحديد الحارق في أذني خولة، وإن لم تأخذ كلامه بشكل شخصي فإنها استطاعت في تلك اللحظة أم تفهم حجم الخذلان الذي شعر به أولئك الصغار، وما عانوه منذ رحل الكبار عنهم، لكنها أيضا لم يغب عنها شعور قوي بوجود حقيقة أخرى تقف خلف كل ما رواه الفتى، إن الأمير جابر لا يمكن أن يفعل ذلك بشعبه دونما سبب مقنع، فليس هو من قد يخذل الضعفاء حتى لو كلفه ذلك حياته، فإذن ودعت خولة الفتى ورأته بعد ذلك وهو يغيب بعيدا في طريق العودة، ونظرت بعدها إلى البوابة، وكانت لا تختلف كثيرا عن بوابة أرض الغابة في صلاحيتها، إذ كان شقها الأيسر محطما بالكامل.

لم يكد شيء يتغير في أرض الرماد منذ آخر مرة، مشت خولة تنزل المنحدر بحذر، كل الظلام مازال موجودا، ورائحة الرماد مازالت تملأ الهواء من حولها، فيما تنبع رائحة الكبريت من خلف الصخور الكبيرة، راحت تتقدم ببطء شديد وقلبها يخفق بقوة، وعندما اقتربت من الخيام سمعت أصواتا تتحدث، فتقدمت بحذر شديد حتى تلقي نظرة.

وقفت خولة أمام حلقة النار حيث كان عدد من الرجال والنساء يتحلقون حولها، وكان أحدهم قد قال منذ لحظة بأنه سوف يذهب لإخبار السيد بمجيئها، وممرت لحظات وظهر، وتجمد كل منهما يطالع الآخر بصمت مطبق.

أدخلت خولة إلى خيمة واسعة أقيمت نار في وسطها وجيء بطعام وشراب فوضع أمامها، لكنها لم تمد يدها لأي من ذلك رغم أن الجوع كان يقرض بطنها، بل إنها جلست القرفصاء أمام النار مطأطأة الرأس لبعض الوقت ثم قالت تخاطب القائد ليث وكان يجلس في الجهة المقابلة:

- "كيف انتهى بكم الأمر إلى هنا؟".

ورد القائد وفي نبرته ألم، بل لم يعد فيها شيء من مرح سابق:

- "لقد تحتم علينا هذا، فلم يبقى مكان إلا وطوردنا فيه من قبل جنود الساحر...".

- "هل حقا ما زال على قيد الحياة؟".

- "أجل، ولقد عاد، بل عاد أقوى مما كان عليه بأضعاف مضاعفة، لا ندري كيف نجى من تلك النار السوداء، لكنّه عاد بطريقة ما وليس في مقدور أحد منا الآن مواجهته، حتى...".

ورفعت خولة بصرها إلى القائد للحظة ثم عادت مطرقة:

- "هل ثمة خبر بشأنه، ألا يوجد من يعرف مكانه؟".

- "لا أحد يعرف، لقد انقطعت أخباره عنا منذ دخلنا إلى هذه القرية...".

...

- "وأنت، لماذا عدت؟".

- "لا أدري...".

- "وكيف حال والدك؟".

- "لم ينجو...".

انقبض قلب القائد، وبحث عن كلمة مناسبة أراد بها تعزية خولة، لكنه لم يهتدي إليها بسهولة، حتى أتى صوتها حزينا يخترق تكسرات الجمر والحطب:

- "من هم هؤلاء؟".

- "أناس مشردون، لقد جمعتهم من كل بقاع الأرض شرقها وغربها... بعد رحيلك، عشنا أياما جميلة، أشرقت فيها الشمس وظهر فيها الزرع والتقت بها خطوات الناس من كل حذب وصوب، عمّ الخير وانقشع الفساد ولم يعد السائر في الليل يخاف على نفسه، ظلت هذه الحال لعدة أشهر، لكن بعدها

أتى ذلك اليوم حيث ارتفع صوت عظيم من الأرض الوسطى فجأة، وكأنَّ الجبل تجشأ مرة أخرى، كان ذلك نذيراً بحصول أمر سيء، أدرك الجميع ذلك من أول وهلة، كان الصوت مرتفعاً بحيث سمعه كل من في هذا العالم...” .

... -

- ”خرج الساحر حينئذ... من حيث سقط، بعدما جفَّ ماء الهوة، خرج ومعه جيش عظيم من تلك المخلوقات المجنحة لا يرى آخره من أوله، أحرق الغابات في الأرض الوسطى أولاً، ثم توجه صوب أرض الرمال فأتى عليها في ساعات قليلة، كما أنه قتل العقرب أيضاً، وكل هذا حدث في يوم واحد...” .

وَصُعقت خولة لحديث القائد:

- ”الأميرة رها؟” .

وأوماً القائد برأسه.

- ”إنها هنا، لكن جيشها قد أُبيد الكامل...” .

وقاطعته خولة مرة أخرى.

- "أخبرني الفتى الذي...".

- "طارق، الفتى الذي يقود الصغار في تمردهم، أجل... يعتقد أولئك الصبيان أن أهاليهم قد فروا وتركهم لوحدهم...".

- "إن لم يكن الأمر كذلك فما الذي حدث إذن، أين ذهب الجميع؟".

أطرق القائد هنيئة:

- "إن الأهالي لم يفروا كما زعم الصغار، كما أن الساحر لم يقتلهم جميعاً، إنما قتل كبار السن فقط، وأما من يقدر على حمل السلاح فقد أنزل عليهم سحره واقتادهم إلى تحت الأرض ولم يظهر أحد منهم منذ ذلك الوقت...".

قالت خولة بصوت مندفع:

- "قلت كبار السن؟".

- "أجل... السيدة نجلاء والسيدة مريم والعم حيدر... وكل من رأى فيه ضعفاً، أما الآخرون فاقتادهم بالسحر إليه طواعية، وأخذهم إلى باطن الأرض جميعاً، أما الذين ترينهم هنا فأناس قدموا من القرى والقبائل المختبئة في مناطق مخفية بين الأراضي الخمسة، حسناً، نسيت إخبارك بأن الساحر بات يعمل

لوحده، حتى لقد تخلى عن كل حلفائه، فهجم على هذه المدينة وأسر كل من فيها...”.

غاصت خولة في حزن عميق بعدما عرفت بموت كل أولئك، وخاصة العجوز المداوية، وبينما واصل القائد حديثه دون أن يدرك بأنها م تعدت سمعه فإنها قالت فجأة بينا ينزل خيط دمع على وجهها:

- ”ما الذي حدث للأمير أرون؟“ .

- ”لقد ذهب مع الساحر طواعية...“ .

- ”يا له من رجل وضع حقا، رغم أنه قتل شعبه فهو لا يتوقف عن خدمته.“ .

- ”أجل، إنه وضع وحقير أيضا... الآن سوف أخبرك بما حدث، في ذلك الوقت كنت خارج مدينة أرض الغابة أبحث في الغابات الواقعة قريبا من أرض الماء عن التمساح لأنه ضاع مرة أخرى، عندما سمعت صوت الجبل عدت مسرعا نحو أرض الغابة، لكنني لم أستطع الوصول في الوقت المناسب، فتلك المخلوقات المجنحة كانت قد ظهرت في كل موضع، بل انتشرت في بقاع الأرض مثل الرحيق الذي طيرته الرياح، وراحت تبحث عن الأحياء لاصطيادهم، بحثت في الغابات ودخلت الكهوف المظلمة وأتت على المدن والقرى فعاثت فيها وخربتها، استغرقتني أمر العودة إلى الديار

يومين كاملين، لم أكن أقدر على الخروج في النهار أبدا، وعندما عدت كان جميع من في المدينة يغادرون في صفوف منظمة خلف الساحر وجيشه، لقد اقتادهم مثل الأغنام المطيعة... بدا مختلفا، فتغير شكل وجهه، صار قبيحا ومخيفا أكثر، أتصدقين أنه كان يمتطي القنطور بنفسه!! أمر مروء، قوته تعاضمت أكثر... راقبت الأمر من مبعدة، حتى غاب آخرهم، ودخلت المدينة بعدها... وجدت أنها لم تعد كما كانت، كل شيء فيها كان قد تدمر...".

- "أجل، أعرف...".

- "خرجت بعدها لباحث عن أي أحد، بعد بضعة أيام عثرت على أشخاص تائهين مثلي، ثم بدأت تظهر مجموعات أخرى، أناس من العامة... أصبح جمعنا كبيرا، وأصبحنا مشردين في الغابات تطاردنا تلك المخلوقات فكنا نضطر لقتالها أحيانا، لكن ذات يوم ظهر أمامنا الأمير جابر فجأة...".

... -

- "كان هو من أمرنا بالقدوم إلى هنا، كما أنه كلفني بمهة تدريب هؤلاء الناس، معظمهم لم يسبق لهم أن حملوا سلاحا... لم يظهر الأمير بعد ذلك مرة أخرى، لكن قبل أيام جاءت مجموعة جديدة إلى هنا، قالوا أنهم قد التقو

رجلا يرتدي بدلة سوداء وقناعا خشبيا قريبا من الأرض الوسطى فدلهم على هذا المكان” .

- ”وهل عاد لارتداء ذلك القناع مرة أخرى .!!“

- ”هذا ما يبدو...“ .

- ”وجيش أرض الغابة... ما الذي حدث له؟“ .

وكسر القائد غصنا كان يبحث به في رماد النار منذ وقال يعتصر لسانه:

- ”كما رأيت، فإنّ مدينة أرض الغابة تخلو من الجثث، ذلك أنه عندما وصل

خبر مهاجمة الساحر لمدينة أرض الرمال فإنّ الأمير جابر قام من فوره فأمر

بتحرك جيشنا إلى هنالك، لكن وقبل أن يصل إليهم، فإنّ الساحر كان بالفعل

قد تمكن منهم، والتقى بجيشنا في طريق عودته، ولم يتمكن رجالنا من

الصمود أمامه...“ .

وقالت خولة بعين تكاد تفيض دموعا:

- ”هل كانت رشا هنالك أيضا؟“ .

ورد القائد:

- ”لا...“ .

- ”وأين هي إذن؟“ .

وهنا تملمت عينا القائد في النار ووجد صعوبة في التحدث:
 دخلت أميرة أرض الرمال إلى الخيمة الكبيرة في هذه اللحظة، وشعر
 القائد بأن دخولها قد أنقذه من ذلك الموقف، وما إن لمحتها خولة حتى عادت
 تطالع القائد بمثل تلك النظرة المترجية، ولم يجد بعد ذلك بدا من إخبارها،
 فقال بغصة في حلقه:

- "قبل خروج الأمير جابر بجيشنا نحو أرض الرمال كان قد طلب منها البقاء
 في المدينة لتتولى الأمور في غيابه، لذلك...".
 - "تحدث...".

قالت خولة بما يشبه صيحة مبسوطة:

- "لقد رحلت في من رحلوا مع الساحر إلى باطن الأرض...".
 وتبيست جوارح خولة تماما، وساد في الخيمة صمت للحظات قبل أن
 تمر يدها تحت عينها فتقول في نشيج خالطه فرح:
 - "هذا يعني أنها قد لا تزال على قيد الحياة".

ورد القائد:

- "ربما، لكن...".

وتطلعت إليه خولة بنظرة مترجية:

- "أخبرنا الأمير جابر بأن من ذهب من السا لن يعود أبدا، حتى لو لم يمت...".

- "وما الذي يفترض أن يعنيه هذا؟".

- "لا أدري، حقا أنا لا أدري يا آنسة...".

بعد لحظات جمود أخرى، قامت خولة في خطوات بدت وكأنها لن توصلها إلى أي مكان أبدا، لكن ما إن شيعها الاثنان عند مخرج الخيمة حتى جلسا إلى النار يتباحثان أمورا أخرى.

لمئات السنين اعتادت مدينة أرض الرماد على أن تنام في النهار وتقوم في الليل، لكن منذ بضعة أشهر فقط، ومنذ عودة الساحر قد تغير حالها بالكامل، فصارت تسكن ليلا وتنشط نهارا، مثل جميع مدن البشر العادية، رغم الظروف الصعبة التي تميزها، فإذن ومع اندفاع ذلك الكم القليل من الضوء عبر السديم الأسود الذي يغلف سماء المدينة وسقوطه على جنبات الصخور الصلبة والجدوع السوداء الميتة، فقد عرفت تلك الوجوه المنهكة التي سبق واستيقظت قبيل ساعة بأن صباحا كثيبا آخر قد حلّ عليها، اندفع الناس خارج الخيام بأطراف بدت مسممة ومنهكة، بعضهم خرج إلى الصيد وبعضهم إلى ساحات التدريب وآخرون لأشغال يومية، فيما غادرت خولة

خيمتها دون أن تكون قد ذاقت للنوم طعاماً، مشت تبحث في الطرقات وتساءل، وحين دلها أحدهم عن موضع القائد ليث فإنها أتت عنده وبغير مقدمات بادرتة بقولها:

- "قلت أنهم رأوه قريباً من الأرض الوسطى!! أظن أنني أعرف مكانه...".
وتلقت إليها القائد بدهشة وكان قبل ذلك منشغلاً بمراقبة متدربين لم تكن تبدو عليهم مظاهر الحماسة.

الكهف

انطلق من مدينة أرض الرماد حصانان قويان وراحا يركضان بسرعتهما القصوى صوب الأرض الوسطى، في دروب متعرجة متداخلة، صامتة، يسكنها الموت والسواد من كل جانب، أحياناً كان الحصانان يضطران للقفز من فوق جذوع كانت تسقط ممدة أمامهما، بعض الغابات لم تنزل بها ألسنة النار حتى اللحظة، وكل ما بقي للحياة من أثر كان يتمثل في عيون صغيرة خائفة ظلت تظهر وتختفي بين منعرج وآخر، الآن ومع اقترابهما من الجبل العظيم بدا وكأن الهواء أصبح أثقل، وأكثر امتلاءً بروائح النار والجثث الميتة، ثققلت خطوات الحصانين معاً، وكانت خولة تسبق القائد، ولذلك قال من خلفها ودهشة تغلف وجهه بينما ينقل بصره بين توابيت الأمراء المعلقة على الصخرة العظيمة:

- "هذا المكان؟! ترى ما الذي دفعك للتفكير في أنه جاء إلى هنا".

ولم تجبه خولة حتى نزلت عن ظهر حصانها، وحينها قالت وهي تقف أمام

الظلام الذي يسد مدخل كهف تعميد الأمراء:

- "توجد آثار خطو هنا لا تزال تظهر على الرماد، لكنها تتجه إلى الخارج، تعال...".

وترك القائد حصانه مربوطا على مقربة من المدخل ودلف هو الآخر خلف خولة، وأثناء توغلهما في الكهف وجداه منارا بشعلات أقيمت في ثنايا الصخور فظهرت لهما آثار احتراقه، قال القائد وهو يتبع خطوات خولة بينا يتلفت يمنا ويسرة:

- "ألبس هو الذي أضرم النار هنا في ذلك اليوم؟".

- "بلى...".

- "لا أمراء جدد، لا قوى يُتصارع لأجلها...".

وصلا أخيرا عند صخرة التعميد وكان يغلفها أثر الحريق بالكامل، غير موضع فيها كان عليه أثر أصابع يد ظاهرة.

- "هذه إشارة أخرى...".

قالت خولة مؤكدة على ظنهما، ودارت بعد ذلك وهي تشير بشعلة أخذتها من الجدار حتى أتت إلى ركن قصي في الكهف ونادت القائد فجاء يقول بدهشة.

- "هذا سيف والده! لا أصدق، هل أمضى أشهرها هنا لوحده، في هذا المكان الموحش."!!

وردت خولة بينا نزلت تتلمس بأطراف أصابع يديها ذلك الغمد البديع الأسود:

- "لن نعلم ما حدث معه حتى نجده..." .

- "هذا إذا أراد التحدث..." .

وقامت خولة وقد أثار كلام القائد دهشتها:

- "يعني؟"

- "أعني أنه قد لا يرغب في التحدث عن هذا الأمر خاصة، أترين كيف وجدته في بداية تعارفكما؟ لقد عاد متكتما، بل أشد مما كان عليه، رأيت في ذلك اليوم وهو لا يقول إلا ما لم يكن يقدر على كتمه، وكأنه لم يعد يطيق التحدث إلى أحد، وإذا تحدث بشيء فإنما يتحدث كارها وبأقل عدد من الأحرف..." .

وسكنت خولة تطالع عيني القائد، رغم أنها لم تكن تراهما فعلا، إنما كانت ترى فيهما وجه الأمير جابر نفسه، فغاب فكرها حتى شردت في ذلك المنظر، ولم يُعدها إلا صوت القائد لَمَّا تكرر.

- "أنسة خولة... أنسة خولة."

والتفتت تنظر خلفها، فإذ بها ترى الأمير جابر واقفا أمامها مباشرة، وبذلك عادت أطرافها للتيبس مرة أخرى، وجف حلقها وتلعثم لسانها، ابتلعت ريقها بصعوبة، وأتى صوت الأمير نحوهما كاسرا طيف السكون الذي غمر فراغات الكهف المخيفة، قال الأمير بنبرة حادة:

- "ما الذي أتى بكما إلا هنا؟".

لم تسمع خولة ما قاله، وإنما كانت تتطلع إلى شكله خاصة، فقد تغير كثيرا عن آخر مرة، إن شعر رأسه قد طال كثيرا، وغزت وجهه لحية كثيفة، وبات يميل مظهره إلى رجل كهف حقا، كانت عيناه وإن ظلّ فيهما الجمال الذي كان، حزینتان بشكل لا يمكن تكذيبه، كان الأمير يحمل في إحدى يديه قناعا خشبيا مصنوعا بطريقة غير متقنة وفي الأخرى حيوانا صغيرا جلبه من الغابة كان يشبه السنجاب في شكله، لكنه ألقى بالقناع على الأرض فجأة وراح نحو صخرة ترتفع عن الأرض في زاوية فترك صيده الصغير عليها ثم غادر الكهف بعد ذلك دون أن يقول شيئا.

رفعت خولة القناع عن الأرض وأمسكته بين يدها تتأمله وقالت بعد لحظة.

- "صنعه بعشوائية...".

وقال القائد:

- "أظنه يشعر بالعار بعد الخسارة، إحساسه بأنه خذل اللذين من من حوله دفعه للتخفي عنهم، لذلك صنع هذا القناع ليخفي به وجهه عندما يتجول في الخارج، لا يمكنني أن أتصور مدى الوجد الذي يشعر به، ولا يسعني إلا أن أتفهم إصراره على أن يخلو في مكان كهذا..." .

عاد الأمير بعد لحظات وهو يحمل حطبا بين ذراعيه فألقاه على الأرض وجلب مشعلا فأشعل الحطب وأتى بذلك الحيوان الصغير بعد ذلك فسلك جلده وجعل يعالجه حتى استوى على النار وجلس يراقبه إلى أن نضج لحمه فأخذه وقسمه بينهم، كل ذلك ولم يكن قد تفوه بكلمة واحدة، حتى عندما انتهى كل من حصته، جلس الاثنان يسترقان النظرات بينهما، وكان الأمير جابر لا يبعد عيناه عن النار لحظة واحدة، لكنه تحدث بعد ذلك فجأة فقال يخاطب خولة:

- "لماذا رجعت؟ لم يكن عليك فعل هذا..." .

وطأطأت خولة رأسها دون أن تقول شيئا، فنظر إليه القائد ليث دونما خوف وقال بجرأة.

- "سيدي.!"

- "لست أنا من تقلقون بشأنه يا ليث، لست أنا... كان عليك أن تبقى في

أرض الرماد لتعلم الناس كيف يدفعون الأذى عن أنفسهم...".

- "أتيت لأنه لم يعد لدي ما أعلمهم إياه، الجميع بات بمقودرهم حمل السيف

والتلويح به...".

صمت مطبق.

بعد ربع ساعة، وبينما كان الثلاثة يحدقون في النار شاردين إذ بشيء ما يظهر عند مدخل الكهف فجأة، شيء وقف هنالك وحجب النور المتسرب من الخارج، ووقف كل من ليث وخولة وقد انحسرت الدماء عن وجهيهما من الرهبة وهما يطالعان ذلك الشيء بهلع، لكنه سرعان ما اختفى في لمح البصر ثم عاد للظهور قريباً منهما، وحينئذ لمحاه جيداً، فأسرع القائد يشهر سيفه بينما يركز على أسنانه، فيما تراجع خولة وقد تملكها خوف قاتل، أما الأمير جابر فكان لا يزال جالساً في مكانه حتى اللحظة، وبينما يلغط ليث بكلمات غاضبة مشدودة، قام الأمير حينئذ وقال له:

- "إهدأ يا ليث، إنه ليس عدواً...".

ولم يكف القائد عند تهديده الذي لم يتعدّ نظراته المفترسة، رغم أن ساقيه أوشكتا ألا تقدرا على حمله، ولم تخفّ جفالاته إلا لما شعر بيد الأمير وهي تقع على كتفه.

- "قلت لك إهدأ...".

وتقدم الأمير نحو الزائر وقال له:

- "هل حان الوقت؟".

ورد خادم الساحر من تحت قلنسوته المظلمة، بمثل ذلك الصوت المبحوح الذي قد يتحدث به أي ساحر ذا هيئة مخيفة:

- "ثلاث ليالٍ فقط... "قال ذلك ثم صمت لبرهة وأردف بعدها: "أمل أن الأمير قد وجد حيلة تمكنه من الوصول إلى الطور الرابع، لأن ذلك فقط ما قد يمكنه من هزيمة الحاكم، وعليه أن يتذكر أنه إن لم يهزم الحاكم فلا شيء سيوقف جيش السماء عن غزو العالم الآخر، إلى ذلك الوقت ينبغي على الأمير أن يكون قد عثر على ألمه، فتلك هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ ما تبقى...".

لم يرد الأمير جابر بعد ذلك، وحينها تحرك الخادم عائداً إلى الورااء ورأسه لا يزال منكسا نحوهم، ثم اختفى فجأة كما ظهر أول مرة، وجاء ليث يسأل الأمير عن ذلك:

- "سيدي، هل تخبرنا بما يحدث؟ أوليس هذا خادم الساحر، فكيف لا يكون عدوا لنا؟".

ورد الأمير وبصره لا يزال مرسلا نحو المدخل، إلى ذات الموضع الذي اختفى فيه الخادم:

- "قلت لك أنه ليس عدوا... وتلفت بعد ذلك وعاد يجلس على تلك الصخرة بجانب النار وراح يسترسل في جوابه :

- "عندما واجهنا الساحر رماح وجيشه آخر مرة تعرضنا لهزيمة ساحقة، وحينما كان قد بقي منا القليل أتاني هذا الرجل وأخبرني بأن انسحب من ساحة القتال بسرعة، فقد أوشك الساحر أن يقوم بسحقي، لقد عاد بقوة لا مثيل لها... أخبرني الخادم بأن خطرا لا يمكن تصوره سيحل بهذا العالم، فثمة جيش من السحرة ظلّ مخبئاً في الغيوم منذ صُنِع هذا العالم...".

وقال القائد والدهشة تملأ فمه:

- "وهل هذا أمر يمكن تصديقه؟".

- "أجل، يمكن أصدقه، لا أدري ما الذي دفع الخادم للتحويل عن أهداف سيده، لكن بمقدوري أن أميز صدقه من كذبه، وهو صادق فيما يقوله...".

نظر القائد نحو خولة فوجدها مصعوقة هي الأخرى، وحينئذ أردف الأمير

جابر قائلاً:

- "لست متأكدا مما يعنيه هذا، لكن لطالما كان هنالك شيء مريب بخصوص تلك الغيوم لم يستطع أحد معرفته".

وقالت خولة وكانت هذه أول مرة تتحدث فيها إلى الأمير جابر:

- "ألا تعرف أيضا ما الذي عناه بقوله أنه ينبغي عليك أن تبحث عن ألمك؟".

ورفع الأمير وجهه نحوها وظل يطالعها بنظرات قلقة ثم قال بهدوء بالغ: - "لا، لا أعرف، لكن ربما يمكنني اكتشاف هذا في وقت لاحق... كيف حال والدك؟".

- "لقد رحل، لم يتمكن الأطباء من مساعدته...".
وتجمد وجه الأمير فجأة، ثم نظر إليها وقد آلمه أن يسمع ذلك، وأسمعها كلاما لطيفا بشأن فقدها، ثم خيم صمت طويل بينهم، حتى نطق الأمير قائلاً: - "لم تجيبني، لماذا عدت إلى هنا؟".
وجمعت خولة نفسا خفيا وقالت: - "لا لشيء محدد، عدت فقط...".
- "حسنا...".

مرة فترة صمت ثم نطقت خولة لوحدها: - "عدت لأنه لم يبقى في عالمي شيء يستحق أن...".
الآن قام القائد ليث فاعتذر منها ليغادر الكهف لبعض الوقت، وأذنا له بصمت مطبق، وغادر مسرعا، وحينها قال الأمير وهو يطالع خولة بأسف:

- "وهل يوجد هنا ما يستحق أن تعودى لأجله؟".

- "أجل...".

- "وما هو؟".

- "أنت تعرف...".

- "لو كنت أعرف ما سألتك".

- "بل أن تتعمد فعل هذا".

- "كيف أعرف شيئاً لم أسمعته؟".

- "لست غيبياً، بل أنت أذكى شخص في هذا العالم".

- "وإن يكن!!".

- "لن أقول شيئاً".

تجدد الإشارة إلا أن هذا الحوار القصير قد حدث بسرعة كبيرة، مثلما

أنهما قد تحدثا في وقت واحد، دون أن يسمعا بعضهما، ثم راحت وتيرة

حديثهما تتباطئ بعد ذلك.

- "ستبقين هنا إلى الأبد؟".

- "إذا كان هذا الأبد يعني ثلاثة أيام فنعم".

- "وإذا كان يعني أعواماً؟".

- "أيضا، نعم...".

- "لن يموت أي أحد، بعد ثلاثة أيام، ولا أنت...".

- "ما الذي ستفعله؟".

- "لا أعلم، لكنني سأحرص على حمايتك...".

وغمست خولة وجهها بين يديها حتى كبحت رغبتها في البكاء ثم قالت في شبه ضحكة أتتها فجأة:

- "تبدو جميلا حتى وانت في هذه الحال...".

وتأملها الأمير لفترة طويلة، حتى احمرت وجنتاها خجلا، ثم قال وهو يبعد عينيه إلى نقطة مظلمة في الجدار المقابل:

- "هل ذهبت لرؤية الثلج مرة أخرى؟".

وتذكرت خولة الأمر فغلبتها ابتسامة.

- "لا، لم أذهب...".

- "لو كنت مكانك لذهب إليه كل يوم".

- "حقا؟".

- "أقسم أنني سأفعل".

وغاصت عينا خولة في لون الجمرات وهي تشع تارة وتخبو أخرى.

- "صحيح أن الإنسان كثيرا ما يجهل كم أنه يمتلك من أشياء ثمينة حتى ينبهه الآخرون إليها".

... -

- "لكن، بمقدوري أنا أيضا أن أدفع نصف عمري لأبقى هنا، هل تصدقني إن قلت بأن عالمي صار موحشا أكثر من عالمك؟".

- "لم تقولين هذا؟".

- "لا أعرف...".

قالت خولة ذلك وعيناها تغرقان في عينيه تواليا، وطالت النظرات بينهما، وكان يعرف بأنها تكذب، لكن القائد ليث عاد في تلك اللحظة فقطع تلك اللحظة، دخل حاملا بين ذراعيه بعض الحطب وهو يأمل ألا يكون قد خرّب حديثهما :

- "لم أجد غير هذا، حطب سيء، لكنه سيفي بالغرض لساعة أخرى...".

الآن بعد مرور ساعة من الوقت خرج القائد ليث وخولة من الكهف عائدين على صهوتي حصانيهما نحو أرض الرماد، وخلال اليومان التاليان حرصا رفقة الأميرة رها على تجهيز المجندين الجدد الذين سيمثلون الجيش

الأخير الذي سيقا تل به الأمير جابر ضد الساحر وأتباعه، ولذلك وفي صباح اليوم الثالث وبعد خطبة قصيرة ألقتها الأميرة رها على آخر جمع من البشر في هذا العالم، فإنها خرجت تقودهم بعد ذلك وهم بضعة آلاف فقط نحو الأرض الوسطى، سار الجميع بقلوب يملؤها اليأس والقلق، بسبب من الفروقات بين الطرفين والتي غالبها ستؤدي إلى هزيمة ساحقة، لكن ولما لم يكن ثمة خيار آخر مطروح أمامهم فإن كل من قدر على حمل السلاح قد خرج، صغيرهم وكبيرهم، رجلا كان أو امرأة، الجميع خرج في هذا الزحف الأخير إلى حيث سوف يتم تقرير مصير هذا العالم، فهل سيعود كما كان لمئات من السنين خلت آمنة ولو تخللته أحداث شاذة، أم ستدور الدائرة فيغلب الشر ويمثل بجناحيه يمنة ويسرة وبذلك تنكسر الحياة التي بناها الساحر نجيد منذ قرون خلت.

وصل الزحف أخيرا إلى الأرض الوسطى، واستقر أوّله عند حدود صحن الجبل، شاهدت خولة بعينها مدى التحول الذي طرأ على المكان منذ آخر مرة، الأرض زال عشبها، وأوراق الغابة لم تعد موجودة، والهوة قد جف ماؤها، والسماء تلبدت أكثر، لكن صخر كان لا يزال على حاله، رغم إن ثلاثة من

أصابع يده العليا قد سقطت، إلا أن نظرته لم تتغير، فإنه بقي يطالع الفراغ ببلاهة، مثلما أنه لم تكن لديه أدنى رغبة في أن يخرج من بركة النار التي صُنِعَ فيها، إنسلخ من الوقت شيء يسير وسُمع نعيق الغراب وهو يأتي صاحبا من تحت السحب، لقد كان يطوف السماء منذ وقت طويل جدا، كان الجميع في خوف وترقب، حتى الخيول المصطفة في خط طويل على حدود الساحة بدت قلقة، إذ كانت لا تتوقف عن ضرب حوافرها بالأرض وهز رؤوسها، نزل برق السماء على رأس الجبل فجأة، وسمع دوي رعد شديد بعد ذلك، ارتبك القائد ليث أكثر بقليل من الآخرين فترجل عن ظهر حصانه وجعل يتقدم نحو الهوة، لكن خادم الساحر ظهر فجأة أمامه، وأطلق القائد شتيمة لذلك، فتحدث الخادم تماما أمام وجهه:

- "مهلا أيها الرجل، ألم يأتي سيّدك بعد؟".

وقال القائد بعدما كاد يسقط قلبه:

- "ليس بعد، لكن ما شأنك أنت بنا؟".

وصلت كل من خولة والأميرة رها بجانبه في تلك اللحظة، وحينها التفت

الخادم نحو الغيوم وعاد يقول بعد ذلك:

- "أندرون لما كانت ترعد؟".

ولم يجبهُ أحد.

- "ثمة حمل ثقيل على ظهر تلك السحب، وإنها توشك أن تُنزل حملها، ولا قبل لكم به ما لم يأتي أميركم..." .

وتلقف ليث هذا الكلام بنصف ضحكة، ذلك أنه بدأ بالنسبة إليه أقرب للكذب منه للحقيقة، لكنه في لحظة تذكر أن الأمير أقر بصدق ما يقوله، ولذلك تردد قليلا وقال بعدها:

- "أي حمل تقصد؟" .

- "ثمة جيش من السحرة الموتى يقبعون هنالك منذ مئات السنين، وإنكم توشكون أن تروهم..." .

وارتعدت فرائس الثلاثة لدى سماعهم هذا، بل إن أسماعهم أرادت تكذيب ما قاله، رغم أن قلوبهم قد آمنت، ووسع الأميرة رها أن تقول في خوف شديد تملكها:

- "هل تعني أنهم سحرة الزمن الأول، اللذين قاتلهم الساحر نجيد وغلبهم؟" .

وردّ الخادم:

- "هاه، أجل... أنت تعرفين ما أقوله، يعتقد الجميع بأنه قام بقتلهم بعد هزيمتهم، لكنه لم يفعل، إنما سيّرهم بطريقة ما لخدمة هذا العالم..." .

وعادت الاميرة هند تقول وقد اعترها الغضب:

- "كيف يكون قد سيرهم لخدمة عالمنا بينما تقول بأنهم سينزلون لتدميره؟".
وصمت الخادم لبرهة، كأنما يفكر، ولو أنه لم يكن بحاجة لذلك، لكنه عاد يقول بصوته الهازئ:

- "كان الساحر نجيد واسع النظر، حكيما لا يسلك مسلكا قبل أن يرى نهايته، في ذلك الوقت كان يعرف أن سيدي الحاكم رماح لا يمكن بحال من الأحوال أن يظلّ تحت الأرض إلى الأبد، ولذلك صنع من أجله أسلحة وجهازها لمواجهة، منها تلك القوى التي أمد الأمراء بها، رغم أنه لم يتوقع يوما أن أحدهم سيخون عالمه ليعمل مع عدوه، منها أيضا تلك الوحوش التي كانت تحرس الأراضي الخمسة، على اختلاف خصائصها، إذ كان. يفترض أنها ستجتمع جميعها لدحر هذا الخطر الكامن، لكن ذلك لم يحدث، بل إنها تقاتلت فيما بينها... بعدها يأتي جيش السحرة اللذين وكما أخبرتكم فهم يستعدون للنزول نحو الأرض قريبا، غاية ما أراد نجيد من رفعهم إلى هنالك وإبقائهم سرا هو أن يعثر عليهم طرف الخير أولا ويستعملهم لصالحه، لكن ذلك ما لم يحدث...".

- "أو كان يفترض بنا أن نعلم بأمرهم قبل هذا؟".

صاح القائد ليث وفي صوته يأس ظاهر.

- "كان يفترض بكم أن تُنزلوهم من السحب...".

- "فكيف عرفتم بأمرهم أنتم؟".

- "من قبيل الصدفة...".

... -

- "في المعركة الأخيرة، رأيتم جميعا كيف تمت هزيمة سيدي، وكيف أنه قد سقط في ماء الهوة، ظننتم جميعا بأن أمره قد انتهى، صحيح أن تلك الدمية قد أحرقتة وشلت حركته، لكنني في تلك اللحظة نزلت نحوه إلى قاع الهوة فوجدته ما زال يلفظ أنفاسه، فقامت بإخراجه دون أن تلاحظوا أمرى، واستغرقني أمر علاجه بعد ذلك شهرا بأكمله، وفي اللحظة التي فتح فيها عينيه طلب مني أن أبحث عن النسر سريعا، وعثرت عليه قريبا من رأس الجبل، أتى بعدها سيدي وركب على ظهره فصعد به النسر نحو السحب، وهنالك رأى شيئا أسعده... لقد رأى جيشا من السحرة الموتى المستعدين لخدمة أول شخص يُنزلهم من هنالك، نزل سيدي بعدها وقرر أنه سوف يُعد نفسه جيدا هذه المرة قبل المواجهة فقام بالاستلقاء علي كل السحر الذي وضعه الساحر نجيد في النسر وتخلص منه بعد ذلك، وفعل نفس الأمر مع التماسح حينما عثر

عليه وهو يتجول قريبا من أرض الماء، وبذلك أعاد سيدي شحن نفسه بقوة أكبر مما كانت لديه قبل هزيمته، صحيح أنه خسر وحشين قويين رغم أنه كان يخطط لاستعمالهما حينما يخرج إلى العالم الآخر، لكن لم يكن ثمة من طريقة تمكنه من استعادة قواه بسرعة غيرها، حسنا... لقد بدا وكأنه ظل يفكر في خطة للانتقام منكم أثناء غيبوبته... فإنه لحظة شعر بأن السحريسي في دمائه قرر أن يصنع لنفسه جيشا جديدا أقوى من سابقه، فأتي به على كل شيء رآه أمامه، فكما رأيتم لم تسلم من ناره شجرة أو صخرة...” التفت بعدها نحو الأميرة هند يخاطبها: ”لقد أحزني كثيرا وأنا أرى العقرب وهو يقتل بتلك الطريقة، لكنها شهادة مني أننا لم نستطع هزيمتكم إلا بصعوبة بالغة...” .

وتلقت الأميرة رها كلام الخادم بوجه متجهم غاضب، بنفس يختنق، وبصدر يصعد وينزل، وكانت تكز على أسنانها غيضا.
 - ”أيها اللعين المارق، ما الذي دفعك لقول كل هذا، ما هو مرادك مما تفعل؟” .

وصمت الخادم قليلا ثم قال بعدها:

- "إنما أنا عبد مأمور أيتها الأميرة، مأمور بأن أخدم سيدي، لكن لي عقلا رغم ذلك، وقد سئمت مما يحدث... لن أعصي أوامر سيدي، ولن أقف في طريقه، فذلك عهد بيني وبينه، لكن لا شيء قد يمنعني من قول ما قلته، في النهاية أنا أيضا كنت بشرا مثلكم، لولا أن الزمن والسحر فعلا بجسدي فعلهما...".

وصاح القائد ليث مغتاضا:

- "فماذا تكون أنت إن لم تكن بشرا؟".

وقال الخادم:

- "حيث أنه يوجد الجن ويوجد البشر، فإنني شيء بينهما... ولا أظن هذا مهما، ما يهم الآن هو ما سوف تفعلونه لكي تتمكنوا من إيقاف عدوكم".
وصمت الجميع بأفواه من حجر، فلم يدري أحد بما يجيبه، جميعهم يعرفون أن هذا الجيش الهزيل لن يستطيع الصمود لبضعة دقائق، والآن ارتفع الخادم عن الأرض فجأة وراح يقول وهو يطالعهم من أعلى:

- "حسنا، ما يعنيه هذا هو أن حكاية جمع الساحر الأول لباقي السحرة الضعاف وحرقتهم في وادٍ واحد هي حكاية مكذوبة، والواقع أنه قام بحجب

قواهم ورفعهم فوق الغيوم لمثل هذا اليوم، رغم أن نيته كانت حسنة في ذلك...”.

الآن بدأت السماء تتلبد بشكل سريع ومخيف جدا، وبدأ الرعد يأتي على فترات متقطعة، وحينها شعر الخادم بشيء يأتي من الهوة فاستدار نحوها ورفع يديه عاليا وراح يصيح بصوت كرجع الصدى:

- ”ليكن هذا يوما مشهودا، آخر يوم يلتقي فيه الخير والشر في هذا العالم، حيث سوف يقضي أحدهما على الآخر في صراع أخير سوف تتناقله الصخور لما تبقى من الزمن، هي أحداث لم يُخطط لها بهذه الدقة، ولكنها سوف تحدث، ولن يتم منعها بأي طريقة...”.

أنهى الخادم كلامه وخفض يديه وظل يطالع حافة الهوة في ترقب، حتى راحت تظهر منها أيدي كثيرة تشبه المخالب الشيطانية.

حين اكتمل ظهور تلك المخلوقات من الهوة وتمركزت في وسط الساحة كان قد عم صمت رهيب في صفوف جيش البشر الذي شعر بضعفه أكثر في تلك اللحظة، بعدما شدوا أيديهم على أسلحتهم وأنزلوا الخوذات ورفعوا الدروع أمامهم، وبينما كان يتقدمهم القائد ليث والأميرة رها وخولة فقد قال القائد حينئذ وقطرات من العرق تنزل على جبينه:

- "هذا ليس عدلا، ليس عدلا...".

وقالت خولة بصوت متهدج:

- "عددهم كبير حقا".

أما الأميرة رها فضيقت عينيها بألم وظلت تطالع تلك المخلوقات المخيفة، ونظر القائد بعدها يمنة ويسرة ثم قال غير مصدق لما يرى:

- "أنا لن أقاتل، بل إنني أنسحب اللحظة، فليتدمر هذا العالم إن شاء...".

ونظقت رها بامتعاض شديد مما ترى:

- "شه، قف مكانك أيها القائد، فليس القادة من يهربون من ساحة المعركة...".

الآن نزل خيط دمع على وجه خولة وهي ترى صديقتها رشا تقف قبالتها وقد تغير شكلها كثيرا، فلقد اسودت عيناها بالكامل واستطال عنقها وظهرت لها أنياب في فمها وامتدت أصابع يديها وتقوست حتى لكأنها مخالب وحش ضار، وما قدرت خولة أن ترفع عينيها عن صديقتها وهي على تلك الهيئة إلا ووقعتا على الأميرة هند وقد بات جسدها ظاهرا للعيان بشكل مفرع، ونظرت مرة أخرى فوق بصرها على الصغيرة مايا ثم على والدتها ثم على كثير من الوجوه التي استطاعت تمييزها رغم تحول شكلها، بعد لحظات هبت ريح باردة

على الساحة وحملت معها زفيراً مخيفاً، وظهر فجأة في السماء طيف الساحر
رماح ثم اختفى بسرعة ليعاود الظهور في مكان آخر، وكأن الريح قد حملته
فوضعتة بينهم.

انتشر الرعب في أوصال رجال جيش البشر، ففي نظرات أولئك
الشياطين كان ثمة نزوع للقتل وشراهة للدماء لا تُخطأ، قالت خولة وهي تطالع
وجوها ضبابية بسبب الدمع الذي تسلق أهداب عينيها:
- "هذا ما كان يعنيه جابر بقوله أنهم لن يعودوا أبداً...".

فقال القائد:

- "أجل، لقد كان يعرف...".

وقالت أميرة الصحراء وعزم قد تبدى في صوتها:

- "إن لم تريد القتال فتراجعا إلي الوراء حالا حتى لا تقوموا بإعاقتي، فإني
لا عزيز لي بينهم، ولذلك لن أدخر جهداً في تقطيعهم، وسوف أفعل أي شيء
في سبيل الوصول إلي ذلك الساحر، لقد أباد شعبي بالكامل، ولن ينقطع نور
هذا اليوم وأنا أشاركه الهوء ذاته...".

الآن هبط من السماء برق كالسيف العظيم فسقط على رأس صخر وهشم جزء منه، ونزل بعده آخر أعظم منه فنزل في فوهة البركان ففجره عيوناً راحت تتدفق عبر المسارات التي حفرتها أمير أرض الماء وجنودها قبل ذلك، هذا وما إن انجلى ضوء البرق حتى خَلَفَه رعد كثيف منفجر فكأن أحدهم راح يدحرج صخوراً عظيمة فوق تلك الغيوم المعتمة.

نزل الساحر بهدوء إلى الأرض فوجد الأمير أرون في انتظاره، وكان في وجه الساحر المشوه نظرة عدوانية لا تخلو من اشمئزاز وسخط، وطالع الجيش الصغير الذي أتت به الأميرة رها باستهتار بالغ، وبحث عن الأمير جابر فلم يجده بينهم، ولذلك نادى على القنطور فظهر أمامه من العدم وهو يخور خوارة مخنوقاً، وامتطاه بروية وهو لا يكف بصره عن الأميرة رها، وأشار بعد ذلك بذراعه فسكن جنوده من البشر المتحولين للحظة، ثم إذ بهم ينطلقون كالموتى السائرين في هجوم شرس نحو القائد ليث ومن معه.

أحكم القائد ليث يديه حول مقبض سيفه بينما يقف في مقدمة الجيش وقفة المحارب الصامد، ولم يكذب يقدر على تحريك قدميه ليثبتهما في مكان

أنسب بسبب التصلب الذي أصاب جسده وهو يرى الأميرة هند تقود هجوم الأعداء نحوه بوجه شيطاني مفزع، لكن وفي غمرة ذلك الخوف والتردد اللذان تملكاه أتت الأميرة رها ووقفت بجانبه وقالت فكان صوتها يأتي مثل الماء المغلي في أذنه:

- "تماسك أيها القائد، فإنهم موتى على أي حال...".

وجاء بعده ضجيج أقدام الأعداء وراح يتصاعد في مسامع ليث توازيا مع اقترابهم، صاح أحد الجنود من الخلف فصاح الآخرون من خلفه:

- "إما نحن وإما هم... إما نحن وإما هم... إما نحن وإما هم...".

وسقطت أولى قطرات العرق من جبين القائد بينا يتنفس مخنوقا، وأغمض عينيه للحظة، وما كاد يفتحهما حتى رأى رجالا سود المنظر يهبطون من السماء أمامه مثل النبال الساقطة، وسمع بعدها صوتا يقول من مقربة:

- "لقد أتت الغريبان...".

بدى ذلك الحديث مثل نصر صغير نزل، كان المشهد يتباطئ في نظر القائد أكثر فأكثر، ورأى بعد ذلك سعادة تغزو وجوه الرجال من حوله، وظهر الأمير جابر وهو يقف أمامه فجأة، فانفرجت أساريره وكادت دموع الفرح تغلبه، وأتى صوت الأمير جابر بعدها بينا يقف أمام جيش الساحر رماح مباشرة:

- "ليترجع الجميع حالا، الآن ليس ثمة من داعٍ لأن تخوضوا هذه المعركة...".

لكن كلامه أشعل حماسة الجنود من خلفه، فأخذت تسري في عروقهم شجاعة، ولذلك صاحوا جميعا بصوت واحد:
- "سوف نقاتل، سوف نقاتل...".

وأطلق الأمير جابر زفرة طويلة ثم انطلق مثل الشهاب الخاطف نحو عدوه.

الآن وفي خضم هذا القتال وحيث وجد القائد ليث فرصة للحديث فإنه قال بعدما أخرج سيفه من دماغ أحد الوحوش المجنحة:
- "ما الذي تفعله؟".

وردت الأميرة رها وهي تنظر إلى مجموعة من الغربان وهي تسحق ذراع أحد البشر المتحولين في صفوف الساحر:
- "إنها لا تريد قتلهم، إنما تحاول كبح خطرهم فقط...".

كذلك كانت الغريبان تحاول صد هجوم البشر المتحولين دون أذيتهم، فراحت توجه لهم ضربات محددة بغية شل حركاتهم دون قتلهم، وأردفت الأميرة: "ماذا كنت تتوقع من سيدك؟".

قالت ذلك وارتمت نحو القائد بحركة خاطفة لتصد هجوما كاد يصيبه في مقتل.

التفت القائد حينها فرأى رشا بشكلها الغريب المفزع تحاول الوقوف على قدميها بعد الضربة التي تلقتها من أميرة أرض الرمال، وما إن قامت واقفة حتى احت تظالعهما بوجه مفترس وهي تكشر عن أنيابها.

- "حاول ألا تقوم بأذيتها".

- "وهل تُراني أقدر؟".

كذلك أجاب القائد بينما يتدفق ألم مرير إلى صدره.

بعد صراع ضارٍ شرس، إفترق الساحر رماح عن الأمير جابر، وكان الأخير قد أصيب إصابة بالغة في ذراعه، فوقف غير بعيد يتفرس غريمه بنظرات ساخطة، وحينها خاطبه الساحر بصوت فيه زهو وتبجح:

- "لقد وليت هاربا مني في المرة السابقة، ولم يعجبني منك ذلك، وكنت قد وضعتك موضع شخص أحبه، فليتك حافظت عليه حينئذ وقبلت بموتك...".

وصاح الأمير جابر في غضب:

- "وهل تظنني أحفل بقيمتي عندك!! أيها الملعون القمئ؟... إني تراجع
ليس خوفا منك، بل لأنّ الحرب سجال ودوائر، ولم يكن أمرا حكيما أن أترك
نفسي لأهلك هنالك فيما أملك الفرصة لأعود مرة أخرى وأقضي عليك
للأبد...".

ورفع الساحر ذراعيه ومدهما يمنا ويسرة:

- "وما الذي تظنه قد تغير؟ لا تزال ضعيفا، أما أنا فلا أنفك أزداد قوة مع كل
روح بشرية تزحق، لا أخفيك سرا أنني متردد في قتلك، مع أنني قد عزمت على
هذا منذ زمن، فأنت تستحق أن تكون خادما لي عندما أضع قبضتي على كل
شيء في النهاية...".

- "أنت لن تضع قبضتك على أي شيء، عدا أن تضعها على صدرك حينما
أضعك في تابوت يليق بوجهك...".

فوق الغيوم

صمت الساحر رماح لبعض الوقت بوجه محترق عكراً، ثم إنه نظر بعد ذلك من حوله، ورأى جيشه من البشر المتحولين وقد هُزم بالكامل، وسقط جميع أفرادهم بين أقدام الغريان القوية، نظر إليهم مثلما قد ينظر نمر بري إلى صخور في منحدر، ثم حول بصره عنهم دون أن يتملكه أي شعور مهما كان نوعه وارتفع عن الأرض بضعة أمتار وجعل ينظر نحو حلقة الوسطاء وتماها نحو الوسيط السادس الذي لم يكن أي أحد يعرف سبب وجوده قبل ذلك، فأغمض عينيه ومد ذراعه اليسرى أمامه وراح يتمتم بكلام مبهم، وما هي إلا لحظة وانفجر في الغيوم دوي رعد هذ السماء كلها.

أدرك الأمير جابر أنّ الساحر رماح إنما كان يحاول التواصل مع الوسيط السادس بتلك الطريقة لكنّه وما إن رفع بصره نحو الغيوم حتى رآها تتحرك بغرابة، فراحت تنقشع مثل الضباب وتتحرك مبتعدة عن بعضها، وهو أمر لم يحدث من قبل أبداً، فاستدار يصيح فيمن حوله بصوت مرتفع:

- "ليبتعد الجميع من هنا حالا...".

لكن في موضع قريب قال القائد ليث للأميرة رها:

- "في كل مرة يشعر بأن خطراً عظيماً يتهددنا يسارع لإبعادنا عنه ليقابله وحده، أما هذه المرة فلن أهرب، إن كنت سأموت فليس أشرف لي من أموت بجانب هذا الرجل، وإن كنت سأحيا فسأفخر بهذه اللحظات لوقت طويل جداً...".

وسرق بعدها نظرة قصيرة إلى الأميرة فردت:

- "ها... هذا ما يعنيه أن تكون مخلصاً لصديقك، ألا تفر من ساحة القتال مهما شعرت بالخطر...".

- "هذا سيء...".

وهكذا تغيرت نبرة القائد فجأة وذبلت شجاعته، حين رأى السحرة يهبطون من الغيوم في عباءات بيضاء مهيبية، وفي أيديهم عصي ذات أطراف ملتوية تشع بضوء أبيض.

نزل السحرة وعددهم يقارب الألف إلى الأرض ووقفوا بجمود ينظرون إلى الفراغ برؤوس تغطيها قلنسوات بيضاء مهترئة، ونزل بعدها الساحر رماح قبالة الأمير جابر ووقف كل أمام جيشه، فذلك من خلفه جيش من السحرة

الموتى الذين عاشوا قبل عدة قرون، أسلحتهم عصي تخفي السحر في رؤوسها وهذا خلفه غريبان في هيئة هي أقرب للبشر وأسلحتهم المخالب.

الآن جاء كل القائد ليث وخولة والأميرة رها فوقفوا بجانب الأمير

جابر فقال يخاطبهم بلهجة خالطها العجب:

- "ما الذي تفعلونه هنا؟".

فقال القائد:

- "أشد عضد سيدي وصديقي...".

وقالت الأميرة رها:

- "نحاول أن نتصرف بحماقة.!!"

نظر الأمير بعد ذلك إلى خولة فرآها تطالع الساحر بغرابة، وكأنها تتحرق

شوقا لقتاله، فابتسم وعاد نحوه بوجه صارم، وحينها تبادل الإثنان نظرات

صارمة لوقت قصير فقط، ثم وفي لحظة ما ودون سابق إنذار تحرك الجيشان

نحو بعضهما فتخطيا أسيادهما واندمجا معا في قتال عنيف بين غريبان

جارحة وسحرة موتى يسيرون في خطوط متعرجة.

احتدم القتال بين الطرفين واشتد من بدايته، فكانت الغريبان تستعمل

سرعتها الخاطفة للهجوم على السحرة وتقطيعهم بمخالبها الحادة، وكان

السحرة يطلقون شُهبا بيضاء حارقة كانت كلما أصابت غرابا إلا واشتعلت في جسده نار حتى أتت عليه بالكامل.

ضجت الأرض الوسطى بصيحات الغربان التي تشبه النعيق الحاد المتوسل، وصراخات السحرة التي كانت تطلع من وجوههم السوداء المجوفة مثل شخير الجن عند احتضارهم، فكانوا كلما مرت مخالبا غراب في جسد واحد منهم إلا وسقطت عبائته مثلما أنّ الريح كان يأخذها، كل هذا تحت أنظار القادة اللذين لم يغيروا أماكنهم حتى اللحظة، بعد دقائق بدأ تفوق الغربان يظهر جليا والساحر لا يحرك ساكنا، ولا علت وجهه أمانة قلق، بل كان يبدو عليه الهدوء بشكل يثير القلق، ذلك حتى سقط آخر ساحر وقد تحلق حوله ما تبقى من جيش الغربان من كل جانب، وحينئذ تحركت ملامح الساحر فظهر وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى تكاد تتحول إلى قهقهة، لكنه فتح عينيه على اتساعهما وقال ووهج يندفع منهما مثل الشرر:

- "هل انتهيت؟"

...

نبض قلب الأمير جابر باضطراب فجأة، وأحس بألم يوخز صدره، فأدرك أن الساحر رماح يخفي شيئاً، ولم يمهل الساحر وقتاً حتى انفجر ضاحكاً وانطلق يمد يديه الصلبتين في الهواء يمناً وبسرة:

- "أيها الأحمق، سحرة عاشوا منذ أكثر من ألف عام ولا زالوا يقدرّون على الحركة، فهل تظن بأن هزيمتهم سوف تكون بهذه السهولة؟".

وحينئذ قال القائد ليث وقد دبّ الرعب في صدره:

- "ألن ينتهي هذا؟".

وقالت الأميرة رها بينا تضيق نظرتها:

- "استعد لما يأتي...".

وراحت تلك العباءات البيضاء الممزقة على الأرض تتحرك فجأة فتقوم واقفة كأنما لم يمسيها سوء أبداً، بل راحت بعد لحظة تتناسخ، حتى وقف بجانب كل عباءة واحدة مثلها، وتضاعف عددها إلى ألفين، وهكذا فهم الجميع سبب تلك النظرة الخبيثة التي كانت تعلو وجه الساحر، ثم إنه قال في صوت يغلفه الفرح:

- "رغم كل ما فعله بي نجيد إلا أنني سامحته، لقد وهبني جيشا لا يمكن هزيمته، شيء كهذا سيكفر عنه كل ذنوبه، إنني أسامحه، ولسوف أصادقه مرة أخرى إن التقيته في العالم الآخر...".

وانطلق يقهقه دون توقف، في الجانب الآخر وكانت قلوب الجميع تخفق بشدة، عادت الأميرة رها تقول وقد فترت عزيمتها:
- "هذا أمر جنوني حقا".

قالت ذلك ورأت خولة تركض نحو ساحة القتال وهي تحمل في يدها سيفاً فلم تستوعب ذلك بسهولة، بل انتظرت حتى سمع صوت القائد ليث وهو يأتي عالياً من أمامها:

- "ما الذي تفعله هذه المرأة، منذ متى وهي تعرف كيف تستخدم سيفاً؟".
انفجر الوقت بسرعة، وانطلق الجيشان نحو بعضهما مرة أخرى في صدام أكثر عنفاً مما سبق، ونظر القائد حوله فلم يرى الأمير جابر في مكانه، ثم لمح بعد ذلك وهو ينطلق خلف خولة مثل السهم الجامح.

دخلت خولة بين سواد الغربان وبياض السحرة، وراحت تقاتل في ضراوة، ولا حظها الساحر رماح فانطلق نحوها بسرعة، وقطع عليها الطريق في فرجة

صغيرة فكاد يرشق سيفها في صدرها لولا أن الأمير جابر صد ضربته في الوقت المناسب، وسمع لالتقاء سيفيهما طنين قوي دل على قوة الضربة، وقال الساحر وهو يطالع عيني غريمه من مقربة:

- "أنت مصاب الآن، لكنني سأقتلها أولاً، أريد أن أراك وأنت تغضب، أعلم أنني لن أقابل رجلاً مثلك مرة أخرى، فلذلك أريد أن أستمتع بلحظاتك الأخيرة قدر ما أستطيع...".

- "حتى لو قطعت يداي، فسوف أجد طريقة لأنهاءك".

وانفجرت شرارة من تفرق سيفيهما، ونظر الأمير بعد ذلك فرأى خولة تهم بالهجوم على الساحر فصاح فيها بصوت هائج:

- "ما الذي تفعلينه، خولة... تراجعى...".

لكنها لم تسمع كلامه واقتربت من الساحر، فضحك ضحكة المنتصر وهو يهوي بسيفه على رأسها.

- "تراجعى...".

صاح الأمير جابر مرة أخرى بنفس يعتصر، بينما يحاول دفع سيف الساحر بعيداً عنها، لكن قبضة الساحر كانت أقوى بكثير فتغلب عليه بسهولة وأسقط سيفه على الأرض ثم ركله في صدره فألقاه بعيداً.

عندما رفع الأمير جابر وجهه عن التراب بعد ذلك فإنه رأى الساحر بضخامته يقف أمام خولة يطالعاها بعينين مفترستين وسيفه مرفوع لأعلى يوشك أن يُنزله نحوها.

في مثل هذه اللحظات العصبية يجدر بالوقت أن يتناقل ويتباطئ، حتى يتسنى للقارئ أن يرى اللحظة بكل تفاصيلها، هكذا كانت خولة تنظر ببرود إلى سيف الساحر وهو يوشك أن يقع عليها، سمع القائد ليث والأميرة رها صيحة الأمير جابر والتفتا نحوه فتيسبت أطرافهما في ذات اللحظة، تباطأت حركات الغربان والسحرة على حد سواء، لكن حينما بدأ المشهد يعود للتسارع مرة أخرى، انفجرت معه خيوط دم من صدر خولة وطارت نهاياتها بعيدا، اتسعت عيون الجميع من الصدمة، وخفق قلب الأمير جابر خفقة تشبه الخفقة الأخيرة، فأمال عينيه المتصلبتين ببطء كأنما ليرى الأمر من زاوية أخرى... إستل الساحر سيفه من صدر خولة فهوى جسدها على الأرض مثل لحاف ثقيل مبلل، لم يكن من المنطقي أن يُسمع صوت ارتطام جسدها بالأرض بسبب فوضى المعركة التي كانت تدور بين الغربان والسحرة، لكنه سُمع رغم ذلك، أو ربما تكون المخيلة قد صنعت لذلك المشهد تفاصيل مكملة، نظر الساحر إلى الأمير جابر بابتسامة قدرة، ولكي يغذي غضبه فإنه

عمد لرفع سيفه عاليا وعاد يهوي به بكلى يديه على خولة فغرسه في بطنها،
 وحينئذ مال وجه خولة وارتد نحو الأمير جابر فوق بصرها في عينيه مباشرة،
 لفظت من فمها دما ثم ما هي إلا لحظة وذبلت نظرتها وتيبست عيناها وهما
 تحدقان نحوه بحزن مطبق.

قام الأمير جابر عن الأرض بصعوبة وجعل ينظر حوله غير مصدق، كان
 جيش الغريان يتعرض للهزيمة بدوره، ذلك أن كل ساحر كان يتم تمزيقه إلا
 وكان يعود للوقوف مجددا ومعه نسخة أخرى، فتضاعف عددهم أضعافا كثيرة
 ولم يعد للغريان طاقة بهم، ووقع بصره بعدها على القائد ليث والأميرة رها
 وكانا ينظران نحوه والرعب يدب في وجهيهما، كأنما يُقران بالهزيمة، أو كأنما
 يرجوان منه أن يفعل شيئا، عاد ببصره المتعب نحو خولة، ووجدها لا تزال
 تراقبه بمثل تلك النظرة الحزينة المتيبسة، وبدأت عيناه تهتزان في
 محجريهما، ورفع بصره بعد ذلك نحو الساحر وهو منغمس في ضحكة
 قاسية، فشعر بالغضب ينزل على جسده ويدخل جلده فيتغلغل في أوصاله،
 وراحت نظرتة تتغير شيئا فشيئا، انسحبت ملامح الذهول وأخذت تجاعيد
 الحقد تغلف نظرتة، لكن في لحظة، وكان يشعر بأن قلبه سينفجر بالألم بعدما

انسحبت كل مشاعره على اختلافها إلى نقطة واحدة في صدره إذ بها تختفي فجأة، فلم يعد يحس بأي شعور مهما كان نوعه، وكأنما قد انفجر قلبه دون أن يحدث صوتاً.

تحول آخر

بذهول شديد راقب القائد ليث والأميرة رها ما كان يحدث لأمير أرض الغابة، ذلك أن ضباباً أسود قد راح يتجمع حوله ويحيط بجسده، كان يقف في هذه اللحظة مثل الأبله، يطالع السماء بغم فاغر، وبدأت الغريبان تطير جميعها نحو السماء حتى لم يبقى في ساحة المعركة غير السحرة، وشعر الساحر رماح حينهذ بأن الأمر على وشك أن يحدث، ذلك أن الغريبان توقفت عن الدوران في السماء ثم راحت فجأة تنزل مثل الشهب السريعة نحو سيدها، فما إن تلامس جسده حتى تدخل فيه مثل الأشباح تتلبسه، كان ذلك يؤلم جسده، فكان كلما دخل جسده غراب إلا وتأوه متألماً، انقشعت السعادة من وجه الساحر، وبدأ ينظر بعين يعلوها القلق، فتقدم الأمير أرون بجانبه:

- "سيدي، ما هذا الذي يحدث لأمير أرض الغابة؟".

وتابع الساحر سقوط الغريبان دون أن ينبس ببنت شفه.

انتهى سقوط الغريبان واختفت جميعها في جسد الأمير جابر، وبيننا يتملكه شعور غريب فقد أخذ ينظر بين يديه ليجد أصابعه وقد راحت تطول

حتى تحولت إلى مخالبا حادة، ونظر إلى ذراعيه فرأهما تتمددان وينبت الريش فيهما حتى استحالاتا جناحان واسعان مثل أجنحة الغربان الكبيرة، ثم إنه شعر بشيء غريب يحدث لوجهه، لكن من داخل عيني الساحر الذي كان مستغرقا في مراقبته، فإن وجهه كان يتحول مثل يديه وذراعيه ليلائمهما تماما، فصار له وجه غراب كامل، بعيون سوداء مدورة ومنقار طويل مدب وريش على جبينه ومؤخرة رأسه.

تمزقت ثياب الأمير وظهر الريش يغطي جسده بالكامل، نظر بعدها عند قدميه فوجد نفسه يقف على ثلاثة أصابع طويلة من كل جانب، فنزل بمخلبه إلى الأرض وأخذ سيف والده وجعل يضع نصله أمامه وجهه ليتبينه. الآن كاد يغمى علي القائلين من غرابة المشهد، لكن أميرة الرمال أبقتة مستيقظا بقولها:

- "أعتقد أن هذا الأمر سيكون في صالحنا..." .

أنهى الأمير جابر تفحص شكله الجديد ثم حول بصره نحو الساحر، والذي خاطبه بلهجة تحد:

- "ما الذي تفعله أيها الأحمق، هل تحولت بنفسك إلى غراب أرعن، رغم أنك تبدو الآن أكثر قوه، لكن إذا أردت مواجهةتي هكذا فأرني أولاً كيف ستهزم جيشي الذي لا يقهر."!!
فقال الأمير أرون بجانبه.

- "سيدي، لا أظنه يريد قتال السحرة، بل إنه يريدك أنت أولاً."!

في هذه اللحظة تحديداً كان الأمير جابر في هيئة الغراب قد قطع نصف المسافة التي كانت تفصل بينهم، وكانت عيناه مصوبتان بإصرار نحو الساحر، غير أن الأمير أرون تحرك فجأة ووقف بينهما كأنما ليدافع عن سيده، لكنها ثانية واحدة من الزمن، ومزق الأمير جابر عنق أمير الرماح ووقف خلفه والدم يقطر من مخالبه.

نظر الأمير أرون فاجر الفاه نحو الأميرة رها والقائد ليث، حاول أن يقول شيئاً بعد ذلك، لكن رأسه سقط عن جسده وتكور على العشب المضرج بالدماء، وحينها دب رعب في أوصال الساحر فقال في نفسه:
- "اللعنة، لقد صار سريعاً جداً، حتى أنني لم أرى حركته...".

بعد ذلك بلحظة شخر القنطور بغضب وأطلق ثغاء قويا بعدما رأى ما حدث لسيده، وضرب الأرض بقائمتيه وانطلق نحو الأمير جابر، لكنه وقبل أن يصل إليه فإنّ أقدامه تلعثمت واختلطت حركاتها فانهار على الأرض مثل أرنب صغير تم اصطياده، كان السحر هو من قتل القنطور إذ أزعجه أنه راح يتصرف من تلقاء نفسه بعد موت سيده، فرماه بسهم من نار اخترق قلبه مباشرة، وهنا نظر الأمير جابر إلى الساحر فوجده يعيد ذراعه بعد تلك الرمية فحجج الإثنان بعضهما لبعض الوقت بكثير من الغضب.

ونطق الساحر يقول بعد ذلك:

- "لطالما كان نجيد مجنوناً بحق، لا عجب أنه تفوق عليّ، ولا أدري كيف استطاع أن يخفي كل هذه الأطوار بداخل مخلوق واحد، هذا بديع حقاً...".
 أراد الساحر بكلامه هذا أن يخلق بينه وبين الأمير جابر حواراً قصيراً قبل أن يواجهه للمرة الأخيرة، لكنه لم يلقى رداً لحديثه، فالغراب الواقف أمامه كان قد ظل يطالعه بوجه حيواني صامت، فعاد يقول بعد ذلك:
 - "حسناً، لننتهي من هذا...".

وما كاد يقول ذلك حتى راح السحرة بعباءاتهم البيضاء يرتفعون في الهواء حتى حجبوا جزءاً كبيراً من السماء لكثرتهم، ثم جعلوا ينزلون كالضوء

نحو الغراب الواقف على الأرض ذلك الوقوف الذي كان يثير الاستفزاز في نفس الساحر لشدة هيئته، وجعلوا يصطدمون به ويتحلقون حوله حتى غُطي جسده بالكامل بنحو ثلاثة آلاف ساحر قد توجهوا نحوه بعصي يخرج السحر من أطرافها.

اشتعلت أرض المعركة مرة أخرى بنار السحرة، رغم أنها لم تكن تؤذيهم، وبدا أنهم قد تمكنوا من حرقه، غير أن الأرض انفجرت بهم فجأة فطار كثير منهم في الهواء وطلع الغراب من بينهم وصعد نحو السماء وأفرد جناحيه وظل يطالعهم لبعض الوقت ثم راح ينزل نحوهم في سرعة بالغة وقد شكلوا جداراً قويا لصدّه، لكنه تجاوزهم جميعاً في لمح البصر، وحينها رآه الساحر قادماً نحو فقال وهو يشعل ناراً في سيفه:

- "أنت متعطش للموت على ما يبدو، لا بأس... تعال إذن...".

وتلقف الساحر ضربة الغراب بسيفه لكنه تفاجأ من قوتها ولم يستطع صدها فدفعته بعيداً عن مكانه، ولم يمنحه الغراب وقتاً فهجم عليه مرة أخرى، وبعد عدة ضربات لم يتمكن الساحر من صدها إلا بصعوبة شعر بقوة الغراب فدعى السحرة لمساعدته، لكن الغراب اقتادهم بعيداً عن ساحة القتال حينما

راحوا يطاردونه كسرب من الطيور المهاجرة، وحينئذ وجد القائد ليث والأميرة هند الفرصة مناسبة فأسرعا نحو خولة وسحبا جسدها بعيدا.

كادت عينا القائد أن تذرفا دمعا حين جثى علي ركبتيه أمام خولة،

فقال بصوت متهدج:

- "إنه لعار علينا، لقد فرطنا في روح جميلة كهذه، لم تكن تملك شيئا في هذا العالم لكنها قاتلت لأجله أكثر منا...".

احتشد الأهالي حول القائد بوجوه قد خيم الحزن فيها، فيما اغرورقت عيون البعض منهم، وتسرب إلى صدورهم شعور بالندم والحسرة، وعاد القائد يقول بصوت يلهج:

- "هذا ليس عدلا، علينا أن نموت نحن أيضا، أجل... إنني سأذهب من فوري لألقى حتفي، لن أستم بالعيش وفتاة مثل خولة تموت دفاعا عني...".

قالت الأميرة رها:

- "تمهل أيها القائد، إن موتك لن يفيد شيئا، دعنا نفكر في طريقة نساعد بها الأمير جابر فهو يقاتل الساحر لوحده".

- "لن أستهلك وقتا في التفكير في خطة، ذلك لن ينفع... قال القائد منفعلا ثم قام والتفت نحو الأهالي: "إنني أرى أعينكم تدمع لأجلها، أحب هذا..."

لكن هل سوف تقاتلون معي حتى الموت؟ دعونا نساعد الأمير فهو
بحاجتنا”.

وصاح الأهالي بعد كلام القائد مباشرة:

- ”نحن معك...“ .

لكن صوتا جاء من الخلف فجأة يخاطب القائد بعدا اشتدت به الحماسة:

- ”مهلا، انتظر أيها القائد...“ .

والتفت ليث وما إن وقع بصره على صاحب الصوت حتى اتسعت عيناه

من السعادة وجفتا في لحظة.

اخترق الغراب الفراغ بين الأشجار المحترقة وقاد السحرة خلفه بعيدا عن

ساحة القتال وظل يهرب منهم حتى تاه بين الأشجار المحترقة وغاب عنهم،

لكن في الخلف كان الساحر قد بقي لوحده فنظر إلى الأهالي باشمئزاز ثم

نظر إلى الأسرى اللذين قام بتحويلهم فقام برفعهم عن الأرض بإشارة من يده

حتى عادوا وقوفا وقد لمعت أعينهم، ولمحتهم الأميرة رها فأمرت الأهالي

بالأستعداد لمواجهةهم.

ظل الساحر رماح يراقب القتال من السماء وهو يشعر بامتعاض مما

يحدث، ذلك أنه رأى أن الأمر قد طال كثيرا وأراد إنهائه فجعل يخرج كرات من

نار في الهواء واستعد لإلقائها نحو الأرض حتى يُحرق كل شيء ويتحرك، لكنه وما إن هم بإنزالها حتى اخترق ظهره سيف الغراب وخرج من بطنه، فقال بينا ينفجر دم من فمه:

- "من أين ظهرت أيها اللعين هكذا فجأة؟".

وسحب الغراب سيفه وفتح جناحيه وطار نحو السحب بسرعة خاطفة. نزل الساحر إلى الأرض يتألم من أثر الطعنه، وحاول أن يعالجها بسحره، لكن السيف نزل عليه من أعلى مرة أخرى فاخترق جسده وكسر عظام كتفه فصاح صيحة بعيدة، ولم يكذ يرفع يده إلى موضع الجرح حتى اختفى الغراب من أمامه في لمح البصر.

الآن أضرم الساحر نارا في كامل جسده وجعل يحرك عينيه بسرعة فيما حوله يحاول أن يعثر علي الغراب والغضب يضطرم في صدره، وما إن لمح أنه يتحرك في مكان بعيدا حتى صاح مهتاجا كما لم يسبق له أن فعل، فقلد أحس بمهانة مما يحدث له، وكان كلما لمح الغراب وهو يمر أمام ناظريه في سرعة خارقة كالشبح الهارب إلا وألحقه بشهاب من نار كان ينتهي به الأمر بالإنطفاء في الهواء دون أن يصيب هدفه، استغرق الغراب وقتا في الدوران

حول الساحر ثم جعل يقترب منه أكثر ليصيبه بمخالبه، لكن السحرة عادوا للظهور مرة أخرى فأسرعوا لإحاطة سيدهم من كل جانب.

وقف الغراب غير بعيد عن ذلك الدرع الأبيض يراقب بحذر، كان جناحاه يهتزان لأعلى وأسفل بهدوء محير، ولاحظ أنّ ضوءاً كان يُشع وسط تلك الكرة من السحرة، فعرف أن الساحر يعالج نفسه، ولذلك انطلق فجأة نحوه فاخترق أجساد السحرة ونشب مخالبه السفلية في وجهه وراح يطير به عالياً نحو قمة الجبل، وتبعه السحرة وهم يصوبون من عصيهم نارا ظلت تلاحقه، غير أنّ الغراب غاب في الغيوم فتوقف السحرة عن ملاحقته في موضع من السماء وراحوا ينظرون بعيون ميتة بعدما فقدوا أثره.

بركان

في الأرض كان الجميع يحدقون نحو السماء في قلق وترقب، حين ظهر شيء بعيد ينزل من الغيوم في سرعة بالغة وفي خط مستقيم نحو فوهة البركان المتفجر، فقالت الأميرة رها وهي لا تكاد تصدق ذلك:

- "لا، لا... أرجوك لا تفعل هذا...".

فقال القائد وهو يفتح عينيه أكثر:

- "ما ذلك الشيء؟".

وكانت قطرة دمع تنزلق لتوها من أهداب خولة وهي تأتي لتتقدمهما

بخطوة:

- "سيقتل نفسه... ذلك الأحمق".

وسقط ذلك الشيء في فوهة البركان وانغمس في الحمم مثل قذيفة

سريعة، وهنا انهارت خولة جاثية وراحت تشهق باكية حتى كادت تتقطع

أنفاسها، فنزلت الأميرة رها تعانقها، فيما وقف القائد ليث كأنما تجمدت

أطرافه، وقف يطالع رأس الجبل ودمع يطل من عينيه، شخر شخرة رجل فقد

روحه، ومسح تحت عينه براحة يده وحمل سيفه إلى يده الأخرى ثم سقطت
عيناه إلى الأرض ولم يستطع رفعهما بعد ذلك.

توقف حركة البشر اللذين جندهم الساحر فجأة، وسكنت أجسادهم
وراحت وجوههم تتجدد وتنسحب منها تلك الملامح الشيطانية، وبعد لحظات
قصيرة عادوا جميعاً إلى طبيعتهم فالتقوا أسلحتهم وجعلوا ينظرون فيما
حولهم والدهشة تملأ أفواههم.

رفعت خولة وجهها بصعوبة فرأت رشا من بين الضباب الذي تجمع في
أهداب وهي تأتي نحوها مسرعة فقامت تعانقها:
- "رشا..."

صاحت وهي تبكي بكاءً مريراً، وحاولت رشا أن تُهدأ من روعها لكن
خولة استمرت تنشج وتنحب: "لقد مات، لقد رحل، إنه لن يعود هذه المرة
أبداً...".

وغطت في بكاء عميق حتى بللت كتف صديقتها.

شاهد الأهالي السحرة وهم يختفون من السماء مثل ندف من الضباب
أخذتها رياح مسرعة، ثم إنَّ السماء بدأت تمطر عليهم مطراً غزيراً راح يتزايد
ويشتد ضجيجهم، لكن لم يكن به برد قارص، بل إنَّ دفئاً حل فجأة بينهم،

وغمرت قلوبهم راحة وسكينة، وراحوا بعدها يتعانقون والسعادة تملأ صدورهم، وعمت الفرحة أرجاء الساحة وعلت صيحات الرجال وراحت تخترق ضجيج المطر الذي كان حتى هذه اللحظة لا يزال يتسارع.

بعد بضعة دقائق، بدأ أن وقت الإحتفال قد انتهى، فالتفت الناس إلى رأس الجبل وكان دخانه لا يزال يطلع، فمشت حسرة في وجوههم على الأمير الذي ضحى بحياته، لكن أعينهم ظلت تبرق فخرا، وأقسموا جميعا بأنهم لن ينسوا فضله، وسوف يخلدونه إلى الأبد، ولذلك جاء الجميع والتفوا حول خولة يحاولون التخفيف عنها ببضع كلمات مشجعة، لكن خولة كانت لا تسمع كلامهم، بل لم تكن ترى شيئا مما كان يحدث حولها، لكن حينما سمعت الأميرة هند تذكر اسم الأمير جابر فإنها لم تقدر على تمالك نفسها وصاحت بغضب في وجهها:

- "لا، هو لم يموت... لم يموت... لا تقولوا هذا..." .

وهنا ضمتها رشا عميقا وهي تبكي معها، وبدأ الناس يرحلون عن المكان تاليا، حتى إذا لم يبقى غير عدد قليل منهم قالت الأميرة هند وهي تحاول إخفاء حزنها:

- "هيا بنا، المطر لا يتوقف، وسوف تصابون جميعا بالمرض، سوف نعود لاحقا لترتيب المكان هنا...".

وقالت الأميرة رها بصوت حزين منكسر:

- "لقد خذلانه جميعا، لكن أفضل شيء يمكن أن نفعله الآن من أجله هو أن نعيد إحياء هذا العالم، أليس هذا ما أرادته؟".

وقال القائد ودموعه تنهمر مع المطر:

- "فعلا، سوف نعيد إحياءه، وبطريقة أجمل مما كان عليها...".

بدأ هاؤلاء في الرحيل أيضا، فلم تجد خولة ورشا بدا من اتباعهم، وراحتا تسحبان خطواتهما بتثاقل خلفهم، وكان بعض الجنود قد أتوا إليهم بأحصنة، لكن حينما وضعوا أيديهم عليها جاء صوت نعيق من السماء مثل الرعد البديع الذي ينذر عادة بهطول المطر، التفت الجميع نحو رأس الجبل، فخرج من بين الدخان المتصاعد طائر عظيم مثلما تنبعث العنقاء من رمادها وطار يضرب الهواء بجناحيه نحو السماء ثم عاد ينزل نحوهم في سرعة بالغة.

ثلج

صاح القائد ليث وعيناه تتفجران بالدمع وكان قد أوقفهما منذ لحظة، لقد
صاح وشعور مثل الشوك يقرص جلده بالكامل:
- "هنالك، أنظروا... الغراب عاد... الغراب... غراب الأمير جابر..." .

تُركت حبال الجياد معلقة، وراح الجميع يركضون عائدين في خطوات
تتلعثم في الأرض السبخة، وحينما نزل الغراب إلى الأرض فإنه ترك على
الطين جسدا ثقيلا سكانا ملفعا بالسواد وغادر إلى عنان السماء مرة أخرى،
كانت خولة أول الواصلين فاستلقت بجانب ذلك الجسد بلهفة بالغة وجعلت
ترفع رأسه عن الأرض لترى وجهه الجميل وقد خالطته جراح وكدمات قليلة،
تحسست نبضه، بدا ضعيفا جدا، أو أنه كان يذبل، حاولت ضرب وجهه برفق
ليستيقظ، ومضى بعض الوقت منذ تحلق الجميع حولهما، توقف المطر عن
الهطول فجأة، وعمّ المكان سكون غريب للحظة، كان الأمير جابر لا يزال
فاقدا لوعيه، ولم تظهر عليه أصغر استجابة، وبدأت همهمات متشائمة تطلع
من بعض الناس اللذين لم تكن تربطهم بالأمير أي صلة، وجاء القائد ليث
يتفقد سيده فقال وهو يثني ركبتيه على الطين:

- "هل سوف يستيقظ؟".

وردت خولة في نسيج متقطع:

- "لا أدري، منذ لحظة أحسست بنبضه، لكنني لم أعد أستطيع سماعه... ربما لو كانت السيدة مريم هنا لعرفت كيف تساعد...".

- "دعيني أجرب شيئاً، ربما يمكنني إنقاذه...".

قال القائد ذلك وهم بالإلحاح ليستلم رأس الأمير بين يديه لكنه سمع صوتاً ينهاه عن فعل ذلك:

- "توقف، وأبعد يدك الثقيلة عن وجهي!!"

تجمدت يد القائد في مكانها، وشعر بقشعريرة تسري في جسده، ثم ابتلع ريقه وقام واقفاً وهو لا يكاد يصدق ما يسمع، هتف الجميع من حوله فرحاً، لكن خولة زاد نسيجها في تلك اللحظة، فاندمجت مشاعر الحزن لديها بأخرى سعيدة كانت قد خلقتها اللحظة، حينما رأت عينا الأمير جابر تفتحان بثقل بالغ نحو عينيها، تأملاً بعضهما لوقت قصير جداً، ثم أخذ الأمير بعينيها نحو السماء مباشرة، كان صوت الغراب يأتي متقطعاً بفرح، ظنت خولة أنه أراد رؤيته، لكنه رغم ألمه قال بسلاسة وكأن المنظر قد أنساه ما هو فيه من تعب:

- "تلج...".

وردت خولة:

- "ماذا؟".

- "الثلج، إنَّ الثلج يسقط...".

ورفع الجميع رؤوسهم إلى السماء لأنَّهم أرادوا رؤية ما تعنيه تلك الكلمة، غير خولة فإنها كانت ترى ندف الثلج وهي تهبط بهدوء في حدقتي عيني الأمير اللتان كانتا تشبهان مرأتان صافيتان في تلك اللحظة، بكت وغلبتها الدموع مجددا، فنظر إليها الأمير مبتسما:

- "كيف نجوت من ذلك؟".

وردت خولة بابتسامة مماثلة:

- "لم أكن أنا، إنه خادم الساحر، لقد ضحى بنفسه لأجلنا جميعا...".

- "كيف ذلك؟".

- "أثناء القتال أتى من خلف صفوفنا وأخذني بعيدا دون أن أشعر، ثم طلب مني أن أبقى مختبئة وأخبرني بأنه سوف يحاول القيام بشيء ما من شأنه أن يقلب الوضع تماما، لقد قال بأنَّه لن يكون بمقدورك هزيمة الساحر ما لم تصل إلى درجة معينة من الغضب...".

سعل الأمير ولم يقدر على الحديث أكثر فأردفت خولة قائلة:

- "قال أن بمقدور الغراب أن يتحول إلى طور آخر، وأنه يحتاج منك أن تغضب كثيرا كثيرا، ولدفعك إلى ذلك قام بانتحال شكلي وذهب فظهر أمام الساحر مباشرة وكأنه يدعوه إلى قتله، لقد ضحى بنفسه من أجلنا جميعا...".
- "طننتك أنت...".

- "أعلم، فلقد أتقن دوره حقا...".

- "ألم يخبرك لماذا فعل ذلك؟".

- "للسبب ذاته الذي دفع الساحر ساري إلى تغيير أهدافه، لقد رأى فيك شيئا ما، وربما شعر بالندم أيضا، وأراد تصحيح أخطاءه..".

- "ذلك الحاكم الأحمق، كل اللذين كانوا معه انقلبوا ضده، وأما اللذين لم ينقلبوا ضده فقد قام بقتلهم، ما كان سينجح معه الأمر على أي حال...".
- "ربما، لأنه حيثما نبت شرفي أي عالم من العوالم، حتما لن يسبق الخير في نموه...".

- "كم أحب حديثكما عندما تشرعان فيه بهذه الطريقة؟".

ونظر كلاهما إلى القائد، وخاطبه الأمير بطريقة مختلفة:

- "قد رأيت تبكي أخيرا...".

- "وأنا يا سيدي، رأيتك تضحك...".

وسقطت دمعة القائد، ثم انفجر الجميع ضاحكين عليه مثلما انفجر هو ضاحكا على نفسه.

كانت هذه المرة الأولى التي يسقط فيها الثلج في هذا العالم، ولذلك لم يستطع الناس خفض أبصارهم عن السماء إلا بعد مرور فترة طويلة، بعضهم بكى من جمال المنظر، فبعد مضي ساعة فقط، أخذ الثلج بالتجمع على الصخور وأغصان الأشجار المحترقة، وأخذت الأرض الوسطى تكتسي رداء ناصع البياض لم يسبق لها أن شهدته قبلا.

الآن وقد حمل الأمير جابر على ظهر جواد قوي فإنّ قافلة من الخيول انطلقت تعود أدراجها في زهو جميل نحو مدينة أرض الغابة، هنالك حيث كان الأطفال بالفعل قد خرجوا إلى ساحة واسعة وبدأوا بتشكيل كرات صغيرة بعدما انقسموا إلى قسمين بغية إقامة حرب صغيرة بينهم.

انتهت.

تمت بحمد الله.